لغة العرب

وأثرها فى تكييف العقلية العربية

(ودراسات أخرى)

حسين أحمد أمين

دار العين للنشر

لغة العرب

وأثرها فى تكييف العقلية العربية

(ودراسات أخرى)

حسين أحمد أمين

دار العين للنشر

لغة العرب

وأثرها فى تكييف العقلية العربية

(ودراسات أخرى)

لغة العرب
وأثرها فى تكييف العقلية العربية

تأليف: **حسين أحمد أمين**

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة
تليفون: ٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٤٥٨٠٩٥٥
E.mail: elainco2002@yahoo.com

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٠٨٥ – ٢٠٠٥

المحتويات

- ١ -

لغة العرب وأثرها فى تكييف العقلية العربية

لا أزال أذكر إلى اليوم ما أصابنى وأنا بعد صبى من صدمة وذهول، إذ أخبرنى والدى وأنا أراجع معه معلّقة عمرو بن كلثوم (وكان مدرس اللغة العربية بالمدرسة الثانوية قد كلّفنا بحفظ أبيات منها) ، أن شعراء الجاهلية فى قصائدهم التى تصف الحروب بين القبائل ، والانتصار الرائع الذى حقّقته قبيلة هذا الشاعر أو ذاك على القبيلة المعادية لها ، كانوا فى أغلب الأحيان لا يصفون معارك جَرَت ، ولا انتصارات أُحرزت ، وإنما كانوا ينظمون تلك القصائد قبل نشوب الحرب ، للتعبير عن أمانيهم وآمالهم فيما سيأتى به الغد ، وما سيُسفر عنه سير القتال ، ولكن بصيغة الماضى ، وكأنما التعبير عن هذه الأمانى بصيغة الماضى كفيل وحده بأن يحقّق بالفعل كلّ ما وصفه الشاعر فى قصيدته من إنجازات لقبيلته .. فهو هنا بمثابة الساحر الذى يسعى إلى التأثير فى الإرادة الإلهية ، أو فى قوانين الطبيعة ، عن طريق ما يردّده من عبارات وهمهمات .

فَقَدْتُ من وقتها الثقة فى دلالة قصائد الجاهليين (وربما الكثيرين أيضًا بعدهم) على ما وقع من أحداث ، ولم يعد يخامرنى ما كان يخامرنى قبل ذلك من مشاعر الإعجاب بالبطولة والروح القتالية اللتين يتحدّث الشاعر عنهما ، مادام الأمر لا يعدو التعبير عن أمنيات قد تتحقّق و تخيب .. كذلك خطر فى ذهنى أن صياغة العرب للدُّعاء فى صيغة الماضى ، على نحو قولنا لمن أغضبنا « لعنك الله » ، وللمريض « شفاك الله » ، وللمسافر « صحبتك السلامة » ، وللجندى « نصرك الله على أعدائك » ، هى أيضًا قد لا تخلو من أثر لمسلك السحرة فى سحرهم ، وأن استخدام صيغة الماضى هنا من شأنه أن يؤكد أن المرض هو بالفعل فى طريقه إلى الزوال ، وأن المسافر قد بات قاب قوسين أو أدنى من الوصول سالمًا إلى بلدته ، وأنه لن يبقى غير ساعات قلائل على انهيار أعداء الجندى وفرارهم من ميدان المعركة !!

* * *

إنـه لمـن المؤكـد أن الشـعب العربـى شـعب انفعـالى ، تـتحكّم فيـه العواطف أكثـر ما تتحكم فيه الاعتبارات العقلية والمنطقية .. واللغة العربية ، بوضعها القديم والراهن ، هى لغـة خطابيـة فى المقـام الأول ، وعلى نحـو لا تدانيـه فيـه أى مـن اللغـات الأخـرى . فهـى كالموسيقى تتّجه بالخطاب إلى العاطفة . واستجابة العربى لها هى كاستجابته للموسيقى ، إن لم تكن أشدّ قوّة . فهو يتأثّر بالكلمات أكثر مما يتأثّر بالأفكار ، وبالأفكار المطلقة ، أكـثر مما يتأثر بالحقـائق الواقعـة . وقد تهتـزّ نفس العربى لسـماع آيـات ، أو قصـائد لا يفهم معانيها ، أو يفهم القليل من معانيها ، فكل ما يهمّـه منها هو جرس الألفاظ والجزالة والوزن والقافية والموسيقى ، وهو ما يسميه بالسحر الحلال .

وهـذا العشـق للكلمـات والتعبيرات المدويّـة هو مـا جعـل العرب أكثـر تعلّقًـا بفنـى الشعر والخطابة منهم بالفنون الأخرى . فهم يرون فى القصائد الطنّانة والخطب البطوليـة ، التى لا غنـى فيها عن التهـويل والمبالغة بديلاً كافيًا للأفعـال . ومتـى مـا صـوّر الشـاعر أو الخطيب كلّ ما يتمنّاه وتتمنّاه قبيلته أو أمّته ، باعتباره أمرًا واقعًا قد تحقّق بالفعـل ، أو فى سبيله المؤكد إلى أن يتحقّق ، هدأت النفوس ، وارتاحت خواطر سامعيه ، وخفّت حدّة تـوتّرهم بما تحقّق لهم من تنفيس عن غضب أو غيره ، فيخفت بالتالى كـل حافز لديهم على العمل من أجل تحقيق مطمحهم ، وبلوغ أربهم .

وأغلب ظنى أن جمال اللغة العربية ، وما تتمتّع به من سحر خاص ، كانـا فـى واقع الأمر نقمة فى قالب نعمة ، وشرًا مستطيرًا على الناطقين بها . فجمال التعبير عن النوايا كثيرًا ما يوحى للمرء بأن العمل المعتزّم قد أُنجز ، وأن ما تحدّث عنه الشـاعر أو الأديـب أو الخطيب قد تحقّق . فإذا بالقارئ أو السامع ، وقد رأى الكفاية فى هذا التعبير عن نية العمل ، أو فى مجرد الخطوة الأولى من خطوات تنفيذ مشروع كان من المعتزم إنجازه .. إن قيل لـه إن المعركـة المقبلـة لا شـك فـى أنهـا سـتكون « أمّ المعارك » ، زال عنـه الشـكّ واطمأن ، ولم يرفع بعد ذلك إصبعًا من أجل المساهمـة فى جعلها أمّ المعـارك . وإن قيـل له إن الزعيم سيلقّن أعداءه درسًا لن ينسوه طيلة العمـر ، وصيغ له هذا القول فى عبـارة رصينة بليغة ، فالدرس قد تمّ تلقينه بالفعل ، سـواء انتصرت قواتـه بعد ذلـك ، أم مُنيت بهزيمة نكراء .

كذا حالنا فى حياتنا العامة والخاصة ، وكذا مسلكنا فى ميدان العلاقات الدولية ، أو فى الطرق والأزقّة . ولست فى حاجة إلى إشارة مسهبة إلى ما يتبادله المتشاجرون عندنا فى الشوارع من تهديدات كلامية عنيفة ، تشيب لها رءوس مُصدّقيها ، مثل : «والله لأُقطعنّك إربًا إربًا» ، أو « والله لأمسحنّ بك الأرض » أو « والله لأشربنّ من دمك» ، ثم لا ينجم عن هذه التهديدات سوى تخفيف حدّة الميل العدوانى ، وضعف العزم على الدخول فى عراك . وقد ينتهى الأمر سريعًا بأن يقبّل كلّ من الخصمين رأس خصمه.

لقد كان العرب فى اليمن يُطلقون على رئيسهم فى الجاهلية لفظ «القَيْل» (مفرد «أقيال») . والمعنى الأصلى للكلمة هو القائل والمتكلم. فهم بذلك يربطون بين الرئيس ، وبين القول والكلام ، لأن الشرط الأكبر للرئاسة عندهم هو الطلاقة الظاهرة فى الحديث والتمكّن من ناصية اللغة . كذلك لا يفوتنا أن نُذَكّر بالمثل العربى المعروف : «جمال الرجل فصاحةُ لسانه» .

* * *

كان العرب دومًا شديدى الاعتزاز بلغتهم ، يرونها أجمل لغات الدنيا طُرًّا ، وأحفلها بعنصر السِّحر .. « إن من البيان لسحرًا » . ولا أدلّ على ذلك من المكانة التى تتمتّع بها عندهم مقامات الحريرى ؛ قد اعتبروها منذ ظهورها ، وبسبب مؤهّلاتها اللغوية ، عملاً لا يُجارَى ، وقال عنها ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » : « حتى لو أنه – أى الحريرى – ادّعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره أو يردّ قوله » . وقد نالت المقامات لمدة تزيد على سبعة قرون تقديرًا يلى القرآن الكريم مباشرة ، وهو الكنز الرئيسى للّسان العربى . تبارى معاصرو الحريرى وأخلافهم فى الإشادة بها ، وتكالب علماء العربية من الأندلس إلى ضفاف نهر جيحون على شرحها وتقويم بلاغتها المذهلة ، وأصبح سبْر أغوارها وفهم تورياتها المتنوعة الغرض الأسمى للمشتغلين بالآداب ، ليس فقط بين الشعوب الناطقة بالعربية ، بل أيضًا حيثما دُرست اللغة العربية دراسة علمية .

نزع العرب منذ بداية دولتهم – وربما قبل ذلك – إلى الاعتقاد أنهم خير الأمم ، لا بفضل جمال لغتهم فحسب ، وإنما لخصال أخرى عديدة كالشجاعة والإقدام والصبر

والكرم والنّجدة إلى آخره ، ثم لأن الإسلام نشأ بينهم ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام من أنفسهم . وهم الناشرون لهذا الدين بين الأمم ، والداعون إليه . فكلّ من أسلم من العجم فى عُنُقه مِنّة من العرب لا تُقَدَّر ؛ هم الذين أنقذوه من الضلالة ، وأخرجوه من الشِّرْك إلى التوحيد ، وهم الذين اصطلوا نار الحروب لهدايته ، وقَتَلوا أنفسهم لحياته .

غير أنه ما مضى زمن طويل حتى تصدّى لهم الشّعوبيون من أبناء الأقطار المفتوحة ينكرون هذه المزاعم ويجنحون إلى الحطّ من شأن العرب وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم . وكانت حجّة هؤلاء الشعوبيين أن العرب ليست لهم أية ميزة غير لغتهم ، بينما يفخر الرومان بعظم سلطانهم وبقوانينهم ، والهنود بحكمتهم وطبّهم ، والصينيون بصناعاتهم وفنونهم ، وما إلى ذلك . ثم إنه ليس من حقّ أية أمة أن تدّعى أنها خير الأمم . فالناس كلهم من طينة واحدة ، وسلالة رجل واحد . وإنما يكون التفاضل بين الأفراد ، وبالأفعال والأخلاق ، لا بالآباء والأحساب . وفى الحديث الشريف : «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» . فإن فخر العرب بالمُلك ، أجبناهم : أين مُلك العرب من مُلك الفراعنة والأكاسرة والقياصرة ، أو من مُلك الإسكندر وسليمان . وإن فخروا بالصناعة والعلم ، فالعرب أضعف الأمم فى ذلك شأنًا ، وأعقمهم يدًا ، وأجدبهم عقلاً ، وإن فخروا بالنبوّة ، فجميع الأنبياء من غير العرب ما خلا أربعة : هودًا وصالحًا وإسماعيل ومحمدًا . أما إن فخروا بالإسلام فإنّا نجيبهم بأن الإسلام ليس دين العرب وحدهم ، بل هو دين الناس كافة ، والإسلام نفسه حارب نزعتكم فهدم العصبية الجاهلية ، وجعل مقياس الشرف التقوى . فالدين إذن بيننا وبينكم ، والدنيا نحن نحظى بها ، وأعرف بمزاياها ، وأكثر تفنّنًا فى شئونها . ثم لا ميزة لكم بعد كل هذا غير اللغة .

وباعتراف الغير للعرب بالتفوّق فى مجال اللغة بات تركيز العرب فى المقام الأول عليه . فاللغة العربية أرقى اللغات السامية ، كما يقرّر دارسو تلك اللغات ، فلا تعادلها اللغة الآرامية ولا العبرية ولا غيرهما . وهى كذلك من أرقى لغات العالم ؛ تمتاز حتى عن اللغات الآرية بمرونتها وسعة اشتقاقها . فإذا قيس ما يُشتقّ من كلمة عربية من صيغ متعدّدة ، لكلّ صيغة دلالة على معنى خاص ، بما يقابلها من كلمة إفرنجية وما يُشتقّ

منها ، كانت اللغة العربية فى ذلك أوفر وأغنى . فمثلاً اشتقوا من الضَّرْب : ضَرَبَ ويضرب ، واضرِبْ ، وضارب ، ومضروب . وسمّوا آلة الضَّرْب مِضْربًا ، وقالوا ضاربَه أى جالَدَه : واضطرب الشيءُ : تحرّك وماج . وحديث مضطرب ، وأمر مضطرب . والضريبة ما فرضْتَه بالقوة . وهناك المضاربة فى سوق المال . وضَرَبَ الدراهم والدنانير (أى صَكَّها) ، وضرب فى الأرض إذا سار فيها مسافرًا . وضرب فى سبيل الله : نهض . وضرب على يده : كفّه عن الشيء ومنعه. وأضْرب عن العمل : كفّ . والضُّرَباء : الأمثال والنظراء . وضَرَب الأمثال : ذكرها .. إلى آخره ، مما يدلّ على غنى العربية فى الاشتقاق والمجاز ، وهو غنى قلّ أن تجاريها فيه لغة أخرى .

قارن بين هذه الكلمات العربية وما يقابلها فى اللغة الإنجليزية مثلاً :

يكتب : write . كتاب : book . مكتوب : letter . مكتبة : library . مكتب : office- bureau . desk- مكاتبات : correspondence . اكتتاب : subscription . مُكاتِب : reporter . مكتوب : destiny- fated . كاتب : secretary- author . كتيبة : squadron . كتابى : scriptural . كُتّاب : elementary school . استكتابى : dictaphone .. إلخ .

ثم هناك ما هو أغرب من ذلك ، وهو امتداد جذور الكلمات العربية إلى الأصوات الطبيعية ، والعلاقة الوثيقة بين الصوت والمعنى . فصوت الغين يوحى بالغيبوبة والغياب ، كما فى غاص ، وغاض ، وغرُب ، وغَرَزَ ، وغَمَر ، وغشاوة ، وغَفْلة ، وتغرير . بل إن الحرفين إذا سبق أحدهما الآخر أوحى بمعنى ، وإن تبعه أوحى بمعنى آخر . فإن سبقت العين القاف أوحت الكلمة بالشلّ عن الحركة أو عن أداء الوظيفة ، كما فى عَقَر البعير ، والمرأة العقيم والعقاب الرادع ، والعقل الذى يكبح الشهوات ، والعُقدة فى الموضوع ، والعُقْلة فى اللسان ، إلى آخره . وإن سبقت القاف العين أوحت الكلمة بحركة إلى أسفل ، كما فى تقاعس عن العمل ، وتقاعد ، وقعد ، وقاع البئر وقعره إلى آخره . كل هذا ، وغيره كثير ، دفع رجلاً كابن جنّى ، وهو يونانى الأصل ، إلى القول فى كتابه الرائع عن اللغة العربية « الخصائص » :

« إننى إذا تأمّلتُ حال هذه اللغة الشريفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقّة ، والإرهاف والرقّة ، ما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يدْنو به من غاية السِّحر ، فقوى فى نفسى اعتقادُ كونها توفيقًا من الله سبحانه ، وأنها وحى » .

لهذا كان لفخر العرب بلغتهم ما يبرّره . وقد حفلت كتبهم وما أُثر عنهم من أقوال بما يشهد بهذا الاعتزاز ، ويُورد دواعيه . من ذلك :

« مَن أحبّ أن يزدرى الناس كلّهم فليتعلّم العربية » - « عِلْم العربية هو الدين بعينه » (أبو عمرو بن العلاء) - « اللّحْن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه (عبد الملك بن مروان) - سأل رجل حسن الهيئة المبرّد عن مسألة فَلَحَن . فقال له المبرد : يا هذا ! إما أن تَلْبَسَ على قدر كلامك ، وإما أن تتكلم على قدر لباسك ! دخل أعرابى السوق فسمعهم يلحنون ، فقال : العجب ! يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح ؟! - تكلّم الخليفة أبو جعفر المنصور فى مجلس فيه أعرابى فلحن . فصرّ الأعرابى أذنيه . فلما لحن مرة أخرى أعظم من الأولى قال الأعرابى : أُفٍّ لهذا ! ما هذا . ثم تكلّم المنصور فلحن الثالثة ، فقال الأعرابى : أشهدُ لقد وَلِيتَ الخلافة بقضاء وقدر! - « والله ما استوى رجلان دينُهما واحد ، ومروءتهما واحدة ، أحدهما يلحن والآخر لا يلحن . إن أفضلهما فى الدنيا والآخرى الذى لا يلحن » (عمر بن هُبَيْرَة) - « ما ضرّ أحدكم لو تعلّم من العربية ما يُصْلِحُ به لسانه ؟ أيَسُرُّ أحدَكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأَمَتِه ؟ » (هارون الرشيد) .

كل هذا صحيح لا ريب فيه . فهذه المرونة التامة فى اللغة العربية ، وهذه القدرة على الاشتقاق والمجاز والقلب والإبدال والنحت ، هما اللتان مكّنتا اللغة العربية من أن تكون لغة القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وما فيهما من معان رفيعة سامية ، وتعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية ، لم يكن للعرب بها عهد فى جاهليتهم ، كما استطاعت بعد ذلك أن تكون أداة لكل ما نُقل من علوم الفُرس والهند واليونان وغيرهم . ففى نحو ثمانين عامًا من بدء العصر العباسى ، كانت خلاصة كل هذه الثقافات مدوّنة باللغة العربية ، رغم أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئًا من مصطلحات الحساب والهندسة

والطبّ ، ولا شيئًا من منطق أرسطو وفلسفة أفلوطين، فإذا هم وقد أصبحوا يعبّرون بالعربية عن أدقّ نظريات إقليدس ، وحساب الجيب الهندي، وما وراء المادة لأرسطو ، ونظريات الهيئة لبطلميوس ، وطب جالينوس ، وحِكَم بُزُرْجِمِهْر ، وسياسة كسرى ، وما كانت تستطيع ذلك كله لولا ما بلسانهم من حياة ومرونة ورقى . وبذا خرجت العربية من هذا المأزق سليمة قوية واسعة ، هى لغة الدين ، ولغة العلم والفلسفة ، ولغة الأدب، واضمحلت بجانبها كلّ لغات البلاد المفتوحة. فاللغة السريانية التى ترجمت إليها الكتب اليونانية ، أخذت تتدهور بعد أن نُقل ما فيها إلى اللغة العربية . والفرس فى ذلك العصر أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هى اللغة العربية ، إن ألّفوا أو شَعَروا أو كتبوا فبالعربية . أما اللغة الفارسية فإنما كانت تُستخدم فى الحديث بين عامة الناس ، أو فى طقوس الديانة المجوسية . وكذلك اللغات الأخرى ، من يونانية فى الشام ، أو قبطية فى مصر . وكسبت اللغة العربية من ذلك أنها أصبحت فى تآليفها وأدبها وعلومها نتاج كلّ هذه الأمم ، تعبّر عن كلّ أفكارهم ، ويكسبون هم منها ما أفرزته من ثقافة دينية وأدبية .

* * *

ومع ذلك فثمة ما لا ينبغى لنا ، وما ليس بوسعنا ، أن ننساه ، وهو تأثير صحراء شبه الجزيرة العربية فى نفوس أهلها ، ثم تأثير طبيعة أهلها فى تكييف طبيعة لغتهم ، ثم تأثير لغتهم فى صوغ عقليتهم ونظرتهم إلى الكون وما فيه .. فالحياة فى الصحراء قليلة إذا قيست بحياة الحضر ، سواء فى ذلك حياة النبات أم الحيوان أم الإنسان . قد عُرّيت أرضها غالبًا من آثار البشر ، فلا أبنية ضخمة ، ولا مزروعات واسعة المساحة ، ولا أشجار باسقة غير النخيل . فابن الصحراء يقابل الطبيعة وجهًا لوجه ، لا شيء يحول دون التفاته إليها . تطلع الشمس فلا ظلّ ، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل . تبعث الشمس أشعّتها الحارقة فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطع القمر فيبهر لبّه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمّر كل ما فى طريقها . وقد حدّد هذا النوع من البيئة معيشة أهلها . فهم رُحّل يتطلّبون الكلأ ؛ وهم فقراء ، ثروتهم فى كثرة مواشيهم ، وهذه الثروة تحت رحمة الطبيعة ؛ فقد تنفُق الماشية ، وينضب ماء الآبار ، ويقلّ المطر فيقلّ المرعى ويسوء

العيش . كذلك حدّدت البيئة نوع أخلاقهم وعقليّتهم . فالبؤس جعل الكرم ، وإطعام الطعام ، وإيقاد النيران يهتدى بها من ضلّ طريقه فى الصحراء ، فى مقدمة الفضائل . والفقر هو الذى حبّب إليهم الإغارة ، فأشادوا بذكر حِمَى القبيلة ، وعيّروا من قصّر فى الدفاع عنها . وإذا كانت الحياة بين إغارة ، ودَفْع مُغير ، والسبل كلّها غير آمنة ، ولا حكومة تقتصّ من جانٍ أو تحمى طريقًا ، فلابدّ إذن من أن يعُدّوا الشجاعة والوفاء والعفو من كريم الشمائل . وهكذا فيما يتعلق بعقليتهم ونوع تفكيرهم : فالعدل والظلم، والخير والشر ، وما يُذَمّ وما يُمدح ، كلّه تابع لما تواضعوا عليه ، وما تواضعوا عليه نابع من طبيعة معيشتهم .

فإن أنت نظرت إلى اللغة العربية ، وإلى الأدب العربى قبل الفتوحات الإسلامية ، رأيتهما نتيجة طبيعية لتلك الحياة ، وصورة صادقة لتلك البيئة . فألفاظ اللغة فى منتهى السعة والدقّة إذا كان الشيء الموضوع له اللفظ من ضرورات الحياة فى المعيشة البدوية ، وهى قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك . فالإبل هى عماد الحياة البدوية ؛ هى خير مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم ، وبدونها تكاد تكون الحياة فى الصحراء مستحيلة . لهذا مُلئت اللغة العربية بذكر الإبل ؛ لم يترك العرب صغيرة ولا كبيرة مما يتعلّق بها إلا وضعوا لها اللفظ أو الألفاظ . فوضعوا الألفاظ لها ، ولحملها ونتاجها ، ولأعمارها وحَلْبها ، ورضاعها وفطامها ، ونعوتها فى طولها وقصرها ، وسِمنها وهزالها ، وأصواتها وأوبارها ، وعلفها واجترارها ، ورعيها وبروكها ، وأبوالها وحركة أذنابها ، ونوع سيرها ورياضتها ، وعيوبها وأمراضها وأدوائها . فإن أنت انتقلت من الجمل إلى السفينة، رأيت العربية فى غاية القصور . فهم لم يوفوها حقّها ، ولا وصفوا كل أجزائها ، ولا وضعوا الأسماء لكل أنواعها . ويكفينا فى هذا المقام أن نذكر كتاب «المخصّص» لابن سِيدَه أورد الكلام عن الإبل فى ١٧٦ صفحة كبيرة ، فى حين أن السفينة استغرقت منه أقل من سبع صفحات ، وأن كلام العرب مما يتعلّق بالإبل يشكّل جزءًا من سبعة عشر جزءًا من مجموع المفردات التى استخدمها الجاهليون فى شعرهم ونثرهم .

فإن كانت مفردات اللغة فى الأصل محدودة ، فإن خيال الناطقين بها هو أيضًا محدود وغير متنوع . فقلما يرسم لهم خيالهم عيشة خيرًا من عيشتهم ، وحياة خيرًا

من حياتهم يسعون وراءها . ولذلك لم يعرفوا « المثل الأعلى » لأنه وليد الخيال ، ولم يضعوا له فى لغتهم كلمة دالة عليه . ويكاد المستشرقون يجمعون على وصف الإنسان العربى بالمادية ، ووصف نظرته إلى الأشياء نظرة مادية ، فلا يقوّمها إلا على ضوء ما قد يتمخّض عنها من نفع . أما الشعوبيون فيذهبون إلى أن كل نتاج فكرى للعرب إنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك مكابدة أو معاناة ، ولا إطالة تأمّل أو إجالة فكر . فالعقل العربى لا ينظر إلى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس فى استطاعته ذلك ، ولا بمقدوره تحليل الأمور تحليلاً دقيقًا . فهو إن تأمّل شيئًا لا يستغرقه بفكره ، بل يقف على مواطن خاصة فيه تثير اهتمامه أو عجبه . إن كان أمام بستان لم يحط به ككلّ ، وإنما يكون كالنّحلة تطير من زهرة إلى زهرة فيرتشف من كلٍّ رشفة . وثمة ضعف فى المنطق ، وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقًا ، وقلة ارتباط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا . حتى لو أنك عمدت إلى القصيدة - خاصة فى الشعر الجاهلى - فحذفت منها جملة أبيات ، أو قدّمت متأخرًا ، أو أخّرت متقدّمًا ، لم يلحظ القارئ أو السامع ذلك .. وهذا النقص تلحظه فيما يُكتب فى الموضوعات الأدبية : فأنت إذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ ، أو أبو هلال العسكرى فى الخطابة أو الوصف ، وما يكتبه أرسطو فى ذلك لاحظت الاختلاف بين العقليتين . فأرسطو يحلّل الخطابة مثلاً ، ويبيّن منزلتها من البلاغة ، وأقسام الخطبة ومؤهلات الخطيب ، إلى آخره ، فى حين يقتصر العرب على كتابة جمل رشيقة ، ودُرَر منثورة لا يتكوّن منها شكل تام . كذلك فإن فى كتب الأدب (كالأغانى أو العقد الفريد أو البيان والتبيين) لا تجد موضوعًا واحدًا أُلقيت عليه نظرة عامة دفعة واحدة ، ثم وُضع فى مكان واحد . وإنّما هى لمحةٌ هنا ، ولمحة هناك ، وتدخل من باب فيُسْلِمك إلى باب آخر لأقل مناسبة ، حتى يَعْيا الباحث إذا أراد أن يقف على كل ما كتب فى موضوع معين ، مع الاعتراف بما فى ذلك التنقّل من لذّة وطلاوة . وهذا النوع من النظر هو الذى قَصَّر نَفَس الشاعر العربى ، فلم يستطع أن يأتى بالقصائد القصصية الوافية ، ولا أن يضع الملاحم الطويلة كالإلياذة والأوديسة .

كل هذا صحيح إلى حد كبير . نضيف إليه ظاهرة غريبة : وهى أنه فى المجالس والندوات التى تستخدم فيها العربية جنبًا إلى جنب مع لغة كالإنجليزية مثلاً ، نجد

المتحاورين ، وإن كانوا عربًا ، إذا تجادلوا بالإنجليزية فالحجّة تُقْرع بالحجة فى إيجاز ، وداخل إطار محدّد ، قلّ أن يكون هناك استطراد أو لعب بالألفاظ ، وقلّ أن يكون خروج عن الموضوع ، أو أن يكرّر المجادل نفسه فيما يقول . فهو إما أن يأتى بحجة جديدة وأفكار جديدة ، وإما أن يسكت . وما هى إلا هُنيهة حتى يؤخذ الرأى ويُفصل فى الأمر . أما إذا تجادلوا بالعربية فإن الجدل يطول ، والحديث يكثر ، وغالبًا ما تُقرع الحجة لا بأختها ، ولكن ببنت عمّها ، وكثيرًا ما يكون الاستطراد من موضوع إلى موضوع لأقلّ مناسبة ، أو بدون مناسبة . وبعد نقاش طويل يعود المتحاورون إلى ما بدءوا به ، وتثار مسائل كثيرة لا يُفْصَل فى واحدة منها ، ويكرّر المجادل ما قاله من قبل ، فيردّ عليه صاحبه بمثل ما ردّ من قبل ، وتتشعّب الآراء حتى يصعب حصرها ، وحتى يُنسى أخيرًا ما بدئ به أولاً . ثم يؤخذ الرأى وقد ملّ المتجادلون وودّوا أن يُفصل فى الأمر على أى شكل . وقد يكون الرأى الذى قرروه لا علاقة له بالموضوع الأصلى !

وتعليل ذلك قد يبدو غريبًا . فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عن المعانى ، وليست إلا مظهرًا من مظاهر العقلية . فإذا كان التفكير صحيحًا سليمًا كان التعبير عنه كذلك ، مادام صاحبه يجيد التعبير ويتقن اللغة ، وإذا كان التفكير فاسدًا كان التعبير عنه فاسدًا . ولكن يبدو أيضًا أن اللغة المنظمة تساعد على تنظيم الفكر ، والفكر المنظم يساعد على تنظيم اللغة ، وكذلك العكس ، وأن المتكلم إذا تحدّث باللغة الإنجليزية أو الفرنسية خضع لمنطقها وطرق تفكيرها ، كما يخضع لاختيار كلماتها وأساليبها وكيفية معالجة الموضوع ، فيؤثر ذلك كله فى تفكيره وجدله وحججه . وعلى الجملة فهو يحاول (إن كان عربيًا) أن يكون إنجليزيًا أو فرنسيًا فى تفكيره . وهو أمر يُدركه كلّ من أجاد منّا لغتين أو أكثر . فهو إن تكلّم بلغة أجنبية راقية شعر بأن ثمة غرضًا محددًا واضحًا يرمى إليه فى حديثه وحججه ، وأنه يضع للجدال خططًا ثابتة معينة تشبه خطط الحرب ، أو الخطوات التى يلتزم بها لاعب الشطرنج الماهر . أما إذا تكلم بالعربية ، فالقصد غير واضح ، والحجج تفتقر إلى الترتيب والتسلسل .

وقد يكون السبب أيضًا أن اللغات الأجنبية الراقية قد استكملت أدواتها من حيث الألفاظ الموضوعة لكل جديد مخترع ، وكل معنى مُستكشف كما استكملت أدواتها من حيث أساليب التفكير وصياغة المعانى ، فى حين أبطأت اللغة العربية فى تاريخها الحديث - عكس حالها فى القرون الأولى من الدولة الإسلامية - فلم تكمل النقص ولم تعالج الضعف . وقد يكون من أسباب ذلك أيضًا أن الأمم الأجنبية الراقية ، وقد مرنت طويلاً على المجالس النيابية والمناظرات المدرسية والجامعية ، تكوّنت لديها تقاليد أثّرت فى جدل أبنائها ومناظراتهم ومجالسهم ، كما أثّرت فى طرق تفكيرهم وفى لغتهم .. وهناك تلك العلاقة والارتباط بين اللغة والأخلاق . فالألمانى أو الإنجليزى إن قال «سأفعل» لم يدلّ قوله على نفس المعنى الذى يُفهم من قول المتكلم بالعربية «سأفعل» .. « سأفعل » بالعربية تدلّ على أن قائلها قد يفعل وقد لا يفعل ، وعلى السامع أن يفهم هذا المعنى، وأن يكرر الطلب والرجاء ، فيحتاج المتكلم أن يعيد القول، وأن يُقسم ، وأن يستعمل كل صيغ التأكيد ، ثم هو بعد كل ذلك قد يفعل وقد لا يفعل. بل إنه لو قال « سأفعل » بلغة أجنبية ، كان فى هذا دليل على نيته الالتزام بالوعد ! ولعل هذا هو السبب فى أن الإمام أحمد بن حنبل لم يجز استخدام عبارة « إن شاء الله » فى العقود خشية أن يتذرّع من لا يفى بالتزاماته بحجة أن الله لم يشأ !

* * *

فأما عمّا ذكرناه لتوّنا عن تباطؤ تطوّر اللغة العربية بعد عصرها الذهبى ، فقد كان المسئول عنه ذلك المعسكر الذى ظهر فى العصر العباسى يدعو إلى التشبّث بالقديم وعدم الحَيْدَة عنه ، والذى كُتب له الانتصار على المعسكر الداعى إلى التجديد والتطوير وعدم التقليد ، بفضل قوة اتصال الأول بالخلفاء ، وكثرة الأتباع والأشياع ، ولجوئه إلى المكر إذ صبغ دعوته صبغة دينية . وقد أثرت هذه الدعوة تأثيرًا ضارًا ، لا فى اللغة العربية فحسب ، بل وفى الأدب العربى كله ، وفى تكييف العقلية العربية . فقد ضُحِّى بصدق العاطفة ، وصدق الوصف وبحرية الأديب ، وبضرورة أن يكون الأدب سجلاً للحياة ، إذ يُطالب الشاعر الذى يركب الطائرة أن يتغزّل فى الناقة ، والذى يرى القصور

وناطحات السحاب حوله أن يتحدّث عن الأطلال ، والذى يعشق دولت أن يتغزّل فى ليلى أو هند ، وقد ظل الأدب العربى لقرون طويلة (ولايزال الكثير من الآثار باقيًا إلى اليوم) لا يعرف التجديد ، ولا يلائم روح العصر ، حبيسًا لقوالب تقليدية لا يتعدّاها ، حتى أصبح الناس يلوون عقولهم وأذواقهم من أجل أن يستحسنوا ذلك الأدب وأن يتذوّقوه . فمن ناحية الشكل ، قُيّد الشعر بقيود الوزن والقافية ، مع أن الأوزان ليست إلا موسيقى ، والموسيقى تختلف باختلاف العصور . والتقيّد بالقافية حرمنا من الملاحم الطويلة والقصص الطويلة ؛ لأن اللغة مهما غنيت بالمترادفات لا تستطيع أن تقدّم للشاعر مئات الكلمات على روى واحد وعلى حرف واحد . كذلك أدّى هذا القيد إلى تحكّم الألفاظ فى المعانى . فالشاعر فى أكثر الأحيان يبحث عن المعانى لقوافيه ، لا عن القوافى لمعانيه ! وهو قلب للأوضاع لا مفرّ من أن يُفسد الشعر .

ثم إنك تقرأ الشعر العربى فلا تعرف إن كان هذا الشعر لمصرى أو عراقى أو شامى إلا من ترجمة حياة الشاعر . فالقوالب واحدة ، والموضوعات واحدة (مديح أو رثاء أو هجاء أو غزل أو نحو ذلك) مما التزم به شعراء الجاهلية . والعجيب حقًا أن يفتح المسلمون أقطار الدنيا بعد ذلك فلا يقول الشعراء فى ذلك شيئًا يذكر ، وأن يكتسح المغول العالم الإسلامى فلا ينظمون فى ذلك شيئًا ذا قيمة ، وأن يفد الصليبيون على المنطقة وتستمر حروبهم مدة قرنين ، فلا نجد غير مدح للسلاطين الفاتحين أو المنتصرين ، ولا يقال إلا القليل فى معنى تلك الحروب المجرّد عن الأشخاص ، لمجرد أن العرب الأقدمين لم يقولوا شيئًا فى ذلك المعنى !

كان الأقدمون يفتتحون قصائدهم بالغزل إذا أرادوا مدحًا ، أو هجاء ، أو أى غرض من الأغراض . فما بال أحمد شوقى يستهل بالغزل قصيدة له فى مدح الرسول ؟ وقد حدث لأمرٍ ما أن قال امرؤ القيس «قِفا نَبْكِ» بصيغة التثنية ، فما بال حافظ إبراهيم يقول فى قصيدة فى مدح الشيخ محمد عبده :

بكّرا صاحبى يوم الإياب ... وقفا بى فى عَيْن شَمْسٍ قِفا بي!

وما بال شاعر اليوم الذى يتوجّه بسيارته من مكان إلى آخر ، يتحدّث عن ناقة يركبها ، أو بيداء يقطعها ؟ لقد كان العربي - كما ذكرنا - يعتمد على الإبل فى معيشته ، ويشتقّ منها الكثير من تعبيراته ، مثل : « ألقى الحبل على غاربه » ، و« أخذ الشيء برمّته » (الرمة : الحبل البالى فى عنق البعير) ، إلى آخره . فما بال الأدباء وعامة القوم عندنا ممن لم يخبروا العيش مع الإبل ، يستخدمون نفس هذه التعابير ولا يضيفون إليها تعابير مشتقة من حياتهم ، وتعبّر عن الواقع تعبيرًا أصدق ؟ ثم أيجوز لنا أن نصف المرأة اليوم بالظبى والغزال والمها والريم والجُؤذر ؟

توقّفت استعاراتنا وتشبيهاتنا عن التطور والنموّ . فلازلنا نَصِف الكرمَ بالحاتمى . ولايزال « خُفّا حُنَين » مضرب المثل عندنا فى الخيبة . والخطبة الحماسية لاتزال عنترية . ولانزال نستخدم أمثالاً من قبيل «الصيفَ ضيَّعتِ اللبن» ، و« لا يعرف من أين يؤكل الكتف » و«بيدى لا بيد عمرو» ، والغالب أن نكون قد نسينا الوقائع المرتبطة بها .

كان الشاعر فى الجاهلية شاعر القبيلة لا شاعر نفسه ؛ السلطة للقبيلة ولا يشعر الشاعر لنفسه بوجود مستقلّ عنها . لذلك قلّ التعبير فى الشعر الجاهلى بأنَا وكثر التعبير بإنّا . فلما انتقلت السلطة من القبيلة إلى الخلفاء والملوك والأمراء والسلاطين ، وقف الشاعر العربى منهم موقف أسلافه من القبيلة ، فكان لا ينبغ النابغ من الشعراء إلا فى قصور الملوك والأمراء ، وقلّ أن نرى شاعرًا نبغ فى غير هذه البيئة . لذلك كثر شعر المديح والهجاء وما إلى ذلك ، لأن الشاعر ليس يعبّر فيه عن نفسه ، ولا هو مستقل بنفسه ، إنما هو معبّر عن أغراض من يخدمهم ويسعى إلى استرضائهم . ومن حُرِم الحُظْوة عند هؤلاء ظل دهره شاكيًا باكيًا يذمّ الزمان ويلعن تصاريف الدهر ، شأن ابن الرومى وأبى العلاء . فما بال الكثيرين من أدباء العرب اليوم يقفون نفس الموقف الذليل من حكّامهم فى عصر ينشد الناس فيه الديموقراطية والحرية وكرامة الفرد ؟

قد اهتمّت لغة العرب - بسبب نشأتها الصحراوية - بالمحسوسات أكثر مما اهتمت بالمعنويات ، وبالواقع أكثر مما اهتمّت بالخيال . ثم جاء الأدب العربى ، فالعقلية العربية ، فالنظرة إلى الحياة وما فيها على نفس المنوال .. الشاعر يشبّه الناقة بالنعامة ،

والفرس بجلمود صخر حطّه السَّيْلُ من علٍ ، والنجوم بالمصابيح ، وسيدّ القوم بفحل الإبل ، والنساء ببيض النعام . وقد كان العرب دائمًا ، منذ فجر تاريخهم وإلى يومنا هذا ، لا يلفت نظرهم فى المرأة إلا جسدها ، دون جمال روحها أو أخلاقها . فوصفهم لها خاص بقدّها الممشوق ، وعيونها الدُّعج ، ووجهها الوردى ، وخصرها النحيل ، وردفها الثقيل . لا يعرفون منها غير ما تَعِدُ به من متع حِسّية ، ولهو ولذّة كاللّذَيْن يجدونهما فى احتساء الكأس أو ركوب الفرس .. استمع واعجب لشاعر العامية المصرية فى القرن العشرين يتغزّل فى امرأة فيقول :

أبيع هدومى عشان بوسة   من خدّك القشطة يا ملبن
يا طِعمة زى البسبوسة   يا مهلّبية كمان واحسن!!

أهو غزل يختلف كثيرًا عن غزل امرئ القيس ، أو بشار بن برد ، أو أبى نُواس ، أو حتى شعراء بنى عذرة ؟

ثم ننظر فإذا الذين نقلوا إلى اللغة العربية فلسفة اليونان وطبّهم وجغرافيتهم ورياضتهم وهندستهم ، لم يعنوا بأن ينقلوا أدبهم ولا شعرهم ولا قصصهم ولا مسرحياتهم .. سمحوا للعقل أن يتغذى بصنوف من الغذاء ، ولم يسمحوا للعاطفة أن تتغذّى بالفنون . والغريب أنهم سمحوا بنقل نظريات فلسفية تتعارض فى صميمها مع الدين الإسلامى ، ولم يسمحوا بنقل ضروب من الشعر والأدب اليونانيين لا تتعارض مع الإسلام فى شيء ! قد يكون السبب فى ذلك أن حملة لواء الأدب فى العصر العباسى لم يكونوا عربًا خُلصًا يسمحون لأنفسهم بالاطلاع على الآداب الأخرى وأن يأخذوا منها ما تستسيغه أذواقهم ، وتجيزه مداركهم ، وإنما كان أكثرهم أعاجم استعربوا . والأعجمى إذا استعرب كان قصارى همّه وغايته أن يصل فى فنّه إلى العربى الأصيل ، ولا تحدّثه نفسه أن يبتكر فى القديم ، أو يجدّد فى الشيء الأصيل . فكان أن أُغلق باب التجديد باعتباره مستنكرًا ، وأغلق باب الاجتهاد باعتباره بدعة .

* * *

لقد حان الوقت فى اعتقادى ، وقد دلفنا إلى القرن الحادى والعشرين ، كى ننظر ونتأمل ونحاول تحرير العقلية العربية من بعض آثار اللغة العربية والأدب العربى القديم ، ومن القيود التى تثقلها وتكبّلها وتحول بينها وبين حرية الحركة والتطور . نريد أن نقتصر فى الأخذ عن الماضى على خير ما فيه ، وما يناسب حاضرنا ويبعث على تحقيق تطلّعاتنا ، وأن نكفّ عن وصف تراثنا كله بأنه كامل ليس فيه نقص ، قوى لا يشوبه ضعف ، مكتمل لا يحتاج إلى مزيد ، متين لا يحتاج إلى دعامة .

نريد لغة عربية متطوّرة بوسعها أن تعكس الواقع المتغيّر .. وأدبًا عربيًا يلذّه الطفل فى مدرسته، والبالغ فى غذائه العقلى والروحى .. وشعرًا نجعل بدل العمود الحجرى فيه شجرة تنبض بالحياة.. وكتبًا علمية ترفض العرض المبعثر وتلتزم بالمنهج التحليلى .. وفكرًا يلتزم بالتعمّق والجدّية .. وفوق كل شيء ، نريد أن نزن كل شيء بموازينه الصحيحة من غير عصبية ، ونصرّح بالنقص فى غير خجل ، ونبنى الجديد فى غير هوادة أو وَجَل ، وأن نكسر قيود القديم فى غير رفق . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

- ٢ -

عن نسبة بعض المؤلفات
والأقوال البليغة فى التراث العربى إلى غير أصحابها

حكى أبو حيان التوحيدى فى كتابه « البصائر والذخائر » عن رجل رآه أبو طاهر بن حمزة ممسكًا بكتاب يحوى مجموعة من أقوال الحكيم الفارسى بزرجمهر ، وهو يضع أمام حِكَمه أسانيد أهل البيت . فلما سأله أبو طاهر عما يصنع أجاب :

- أُلْحِقُ الحكمةَ بأهلها !

والواقع أنى منذ أقبلت فى صباى على القراءة فى التراث العربى ، أدركتُ أنه - فيما عدا شعر دواوين الشعراء ونثر مؤلفى كتب تحمل أسماءهم - من الصعب فى كثير من الأحيان أن نثق كل الثقة فى صحة نسبة قولٍ ما إلى من زُعم أنه قاله . فى كتب مثل «العقد الفريد» لابن عبد ربه، أو « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، أو « اللُّمَع » للسرّاج الطوسى ، إلى آخره .. فكثيرًا ما كنت أجد نفس القول منسوبًا فى أحد الكتب إلى شخص ، وفى غير ذلك الكتاب إلى غير ذلك الشخص. وقد نجد فى كتاب ، ككتاب « شرح نهج البلاغة » لابن أبى الحديد قولاً حكيمًا عُزى إلى على بن أبى طالب ، ثم نعثر عليه فى كتاب « الأدب الكبير » أو « الأدب الصغير » لابن المقفّع . وقد لا يكون القول صدر عن على أو ابن المقفع ، بل ولا عن غيرهما من العرب وعلماء المسلمين ، وإنما هو لحكيم يونانى أو فارسى قديم ، ثم نُسب عن عمد أو عن غير عمد ، ولسبب أو لآخر ، إلى خليفة أو حكيم عربى ، أو إلى عالم مسلم ، على نحو ما ذكره أبو حيان التوحيدى فى حكايته .

وكتّاب العربية من القدماء على أية حال لم يكونوا شديدى الاكتراث بدقّة نسبة الأقوال الحكيمة من نثر أو شعر ، والتحقّق المدقّق من قائليها ، وإن كان الكثيرون منهم أبدوا فى ميدانى الحديث والتاريخ من الحرص على التثبّت والتيقّن من صحة الروايات

ما يندر أن نصادف مثيلاً له لدى خيرة مؤرخى غيرهم من الشعوب . فالحكمة عندهم مقصودة لذاتها ، لا يهمّ كثيرًا مَنْ طَلَبَها للاستفادة منها ، (وهى إنما قيلت أو كُتبت للإفادة) ، ما إذا كان قائلها سقراط أو معاوية أو بزرجمهر أو بيديا . وفى الحديث : «الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها حيث وجدها ، ولا يبالى من أى وعاء خرجت » . وهو ما يفسّر لنا تساهل المحدّثين فى إسناد أحاديث الفضائل والأعمال ، أى تلك الأحاديث المنسوبة إلى الرسول وتحثّ على مكارم الأخلاق أو تنهى عن شر ، مثل « المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده » ، أو « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » إلى آخره . فالمعيار هنا ليس صدق نسبتها إلى رسول الله أو كذبها ، وإنما هو مدى اتفاق مضمونها مع تعاليم الدين ، وما إذا كان من شأنها تعزيز الفضائل والإيمان . أو على حدّ قول أحمد بن حنبل : « إذا روينا عن رسول الله فى الحرام والحلال والسنن والأحكام شدّدنا فى الإسناد ، وإذا روينا عن رسول الله فى الفضائل والأعمال تَساهلنا فى الإسناد » .

ثم إن الحكم غير العربية أو غير الإسلامية إن هى نُسبت إلى عربى أو مسلم ، لا تُنسب جُزافًا وعلى نحو عشوائى ، وإنما تُعزَى إلى من يوافق القول ما عُرف عن شخصيته وآرائه ، ويتفق مع أقوال له أخرى . فلا بأس من أن تُعزَى أقوال قيلت فى الزهد إلى الحسن البصرى ، وأخرى فى حزم سياسة الرعية إلى الحجاج بن يوسف أو زياد بن أبيه ، وأخرى فى العدل إلى عمر بن عبد العزيز ، وفى الحلم إلى معاوية ... غير أننا نلاحظ أن جانبًا كبيرًا من أقوال الحكمة فى كافة الموضوعات ، ما يتّصل منها بالحلم أو الحزم أو العدل أو حتى الجماع والعشق ، قد نُسب إلى على بن أبى طالب بالذات ، رغبة من المتشيّعين له فى تصويره على أنه منهل كل علم . وصاحب كل حكمة ، وهو ما يشبه ما صنعه المؤرخون من الشيعة ، إذ عزوا إليه الفضل الأول فى عدد كبير من انتصارات جيش النبى ، وكانوا إذا ذكروا مصرع مشرك خطير من مشركى قريش فى وقعة من الوقعات ، نسبوا قتله فى حالات عديدة إلى على .

* * *

غير أن الأغْرب من هذا وذاك ، أن يكون القول لعربى ، ثم ينسبه قائله هذا العربى إلى عربى آخر ، أو حتى إلى حكيم أو ملك من مشاهير حكماء أو ملوك الفرس ، كبزرجمهر نفسه أو أردشير !! فإن كنا قد ابتُلينا فى زمننا هذا بكثرة من يأخذ من كُتابنا العرب عن غيره ويدّعى ما أخذه لنفسه ، تطلّعًا إلى شرف كاذب ، أو رغبة فى وسيلة سهلة سريعة إلى المال أو الشهرة ، فقد ابتُلى الأقدمون بحالات هى على النقيض من ذلك تمامًا . فهناك من الشعراء الأفذاذ ، كخلف الأحمر وحمّاد الراوية ، من كان ينظم القصيدة الرائعة تلو الأخرى ، ثم ينسبها إلى امرئ القيس أو زهير بن أبى سلمى ، طمعًا فيما عُرِض من مكافآت سخية لرواة المجهول من شعر الجاهليين حين أُريد جمعه للاستعانة به على تفسير مفردات القرآن .. وهناك من وضع الأحاديث ونسبها إلى النبى أو إلى أحد الصحابة أو التابعين ، إما ليشتهر بأنه محدّث ، أو رغبة منه فى الانتصار لهذه القضية السياسية أو الفقهية أو تلك .. وهناك من فضّل من المغمورين المال على الشهرة ، فوضع الكتب ونسبها إلى الجاحظ أو الواقدى أو ابن قتيبة أو غيرهم من أئمة البيان والتاريخ ، كى يضمن إقبال الناس على شرائها .. وبالمكتبة العربية الكثير من مثل هذه الكتب مجهولة المؤلفين ، مما ثبت يقينًا أنها ليست من تأليف من نُسبت إليه ، والتى لاتزال المطابع عندنا رغم هذا تُخرجها للناس على أنها من تأليف الجاحظ أو ابن قتيبة أو الغزالى أو ابن عربى أو غيرهم ، ضمانًا لرواجها وحُسن تسويقها .

فإن شئنا مثالاً طريفًا لذلك ، أشرنا إلى كتاب « تهذيب الأخلاق » الذى نشره عام ١٩٢٤ فى دمشق العلامة محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى على أنه من تأليف الجاحظ ، وقال فى مقدمة تحقيقه :

« أسعدنى الحظ مؤخرًا بالعثور فى جملة المخطوطات التى دخلت خزانة المجمع العلمى العربى فى دمشق على كتاب « تهذيب الأخلاق » للجاحظ ، وهو الذى اغتبط اليوم بنشره . وقد حوى الكتاب من ضروب التعليم والإرشاد ما لا يستغنى عنه أرباب الطبقات المختلفة فى المجتمع الإنسانى على وجه الأيام ، وتجلت فيه روح البيان الفائق . وأسلوب الجاحظ خير أسلوب يُحتذى فى أئمة البلغاء . وأنت إذا تلوته وأطلت مراجعته

لا ترى فيه قضية تخالف ما قرره علماء الأخلاق فى دهرنا على بُعد ما بيننا وبين عصر المؤلف . فكأن الجاحظ بسفره هذا عالم من أكبر الأخصائيين فى علم النفس والأخلاق فى الغرب . ولا عجب فكتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً ، والأدب ثانيًا ، والناس كلهم عيال عليه فى البلاغة والفصاحة .. أسأل الله أن ينفع قراء العربية بما خطّته يراعة الجاحظ ، ويوفّق الباحثين أن يُخرجوا لهم ما ظلّ مطويًّا من آثار قريحته » .

ثم حدث بعد طبع الكتاب أن بعث بطريرك الروم الأورثوذكس فى دمشق « غريغوريس حدّاد » برسالة إلى كرد على ، يخبره فيها أن فى خزانته كتابًا باسم « تهذيب الأخلاق » منسوبًا ليحيى بن عدى ، وأنه مطابق لفظًا ومعنى للكتاب الذى نسبه كرد على إلى الجاحظ .. ثم ظهر بعد ذلك أن نفس الكتاب كان قد طبع فى القاهرة أربع مرات ، قبل نشر كرد على للمخطوطة ، نُسب فى المرتين الأوليين إلى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي ، وفى المرتين الأخريين إلى يحيى بن عدي ، وأن هذه الطبعات الأربع لا يختلف أحدها عن الآخر إلا بقدر ما تختلف نسخة من كتاب واحد عن أختها لناسخ آخر !

وقد اضطر كرد على بعد هذا إلى الاعتذار وإلى أن يكتب :

« نحن نرجح أن الرسالة ليحيى بن عدى لبعض عبارات لا يقول مثلها الجاحظ شيخ المعتزلة ، ولا ابن عربى شيخ المتصوفة .. ولا جرم أن من الكتب ما نُسب إلى مؤلّفين هم براء مما فيها ، ومن القصائد ما ادّعاه جُملة من الشعراء . فليس بعجيب إذا نُسبت رسالة الأخلاق على نمطها العالى فى الأدب إلى بضعة من مشهورى البلغاء .. على أن الخلاف فى مؤلف كتاب « تهذيب الأخلاق » لا يقدح فى الكتاب نفسه ، بل ربما زاده رفعة » !!

* * *

- ٣ -

الإيضاح والتفسير
لظاهرة تناول الكتب بالحذف والتغيير

مع الكتب التى كان الناس يتداولونها من قرن إلى قرن قبل اختراع الطباعة ، كان الشائع أن يتناول النُّسّاخ نصّها بالتغيير على ضوء تغيّر أذواق العصر ، خاصة إن كانت تلك الأذواق قد طرأ عليها – بفضل التمدّن والتحضّر – تطوّر إلى أحسن ، فمسّها التهذيب . فملاحم الشمال الأوروبى مثلاً طرأت عليها التعديلات عقب اعتناق شعوب ذلك الشمال للمسيحية . كذلك فإن كتب العبرانيين الأوائل التى صنّفوها وقت عبادتهم لآلهة شتى ، تغيّر الكثير من نصوصها بعد أن أصبح (يَهْوَه) هو ربّهم الأحد .. وها نحن ودواوين الشعر الجاهلى بين أيدينا نجدها خالية من الإشارات إلى الأوثان والمعتقدات الدينية لأهل ذلك الزمان ، خلوّها من القصائد التى نظمها فى هجاء الرسول عليه السلام شعراء أوردت كتبُ السيرة أسماءهم .. بل وحتى بعد اختراع الطباعة واندثار صنْعة النُّسّاخ واحتمال تدخّلهم فى النص بالتغيير أو الحذف ، نجد الفِرَق التمثيلية التى كانت تقدّم مسرحيات شكسبير فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تُقْدم على إدخال التغيير على النص وتتناول بعض عباراته بالحذف ، حتى لا تصدم قيمُ القرنين السادس عشر والسابع عشر قيمّ معاصريهم وحساسيّاتهم .

فإن نحن نظرنا إلى مَلْحمتَى هوميروس «الإلياذة» و«الأوديسة» ، نجد أفلاطون يذكر فى جمهوريته أن ثمة فى الملحمتين فقرات هنا وهناك تصدم الحسّ الأخلاقى لدى معاصريه (أى معاصرى أفلاطون) ، وأن « علينا أن نناشد هوميروس ألاّ يغضب من قيامنا بحذف تلك الفقرات» . وقد ذكرت الكتب أن ناقدين كبيرين ، هما : زينودوتوس ، وأريستارخوس نهضا بهذه المهمة بعد زمن أفلاطون ، والمؤكد أن غيرهما من النقاد والشعراء أقدموا على هذا الحذف من الملحمتين قبل أفلاطون ، فأغفلوا منهما كلَّ

مـا يخدش الحيـاء ، وبـذئ السـباب ، ونسـبة الخـوف إلى الآلهـة والأبطـال ، أو البواعـث الدنيئة إلى أخيل ، أو أجا ممنون ، أو ذكر قائمة بغراميات زيوس ، وما شابه ذلك .

كـذلك امتـدت يـد الحـذف مـن الإلياذة إلى رذائـل بدائيـة معيّنـة - كـاللواط - كانت منتشرة فى معظم أنحاء اليونان ، وحوّل الناسخون الزواج فى « الأوديسـة » بين أخ وأخته ، إلى زواج بين عمّ وابنة أخيه . وإذ استفظع القوم بعد زمـن هـوميروس حديثه عن تعذيب هكتور قبل موته ، فقد غيّروه فأصبح تمثيلاً بجثته بعد مصرعه . وكـان ثمة اتجاه بوجه عام ، إما إلى حذف ذكر تقطيع الأوصال والتعذيب وفصل الرأس عن الجسد وكشـف عورة القتيـل ، أو إلى تخفيـف صراحة التعبير عند الحديث عن هـذه الأمـور .. كـذلك فـإن اسـتنكار الـرأى العـام فـى القـرون التاليـة لاسـتخدام السـهام المسـمومة فـى الحروب، أو لتقديم القرابين البشرية إلى الآلهة ، دفع النُسّـاخ إلى حـذف الفقـرات الخاصة بهما من نصّ هـوميروس ، رغم عدم اسـتنكاره هـو نفسـه لهما ، وهـو حـذفٌ دافـع عنـه باوسانيوس بقوله : « إن إغفال ذكر مثل تلك الأفعال القاسية غير المشروعة هو إغفال مشروع » . ومع ذلك فثمة حديث فى الإلياذة لم يُحذف عن اثنى عشـر نبيلاً مـن نـبلاء طروادة قتلهم أخيل ، وقدّمهم قرابين إلى الآلهة ، انتقامًا لمصرع خليله باتروكليس . فقد كانت القصة من الـذيوع والانتشـار بحيث لم يجرؤ النّسّاخ على حذفها ، وهـم مع ذلـك اختصروها فاقتصرت روايتها على بيت ونصف بيت بقيا فى النص على استحياء .

فـإن كـان القليلـون مـن المثقفين فى زمننـا هـذا يعلمـون قصـة الحـذف مـن ملحمتَـى هوميروس ، فغالبيتهم بلا شك تعرف قصة الدكتور توماس بـودلر (١٧٥٤ - ١٨٢٥)، وأخته هنريتا (١٧٥٤ - ١٨٣٠) مع مسـرحيات شكسـبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) . ذلـك أنـه فـى العـام ١٨٠٧ نشـرت هنريتـا (وهـى كاتبـة ذائعـة الصيت للمـواعظ والقصـائد والمقـالات الدينيـة) عشـرين مـن تلـك المسـرحيات تحت عنـوان «مسـرحيات شكسـبير للعائلات» ، دون أن تذكر اسمها على الغلاف ، قامت فيهـا « بـتطهير » المسـرحيات مـن كل ما عساه أن يخدش الحياء ويمجّه الحس الأخلاقى لدى قراء القرن التاسع عشـر .. وفـى العـام ١٨١٨ نهـض أخوهـا تومـاس « بـتطهير » المسـرحيات السـبع عشـرة الباقيـة ، ونُشرت المسـرحيات كاملة فى عشـرة مجلّدات ، والتـزم بـودلر فى تحريـره لها بالمبدأ

التالى : وهو أنه « إذا وردت أية كلمة أو عبارة من شأنها أن تثير انطباعًا بالفُحْش ، فإنه من الواجب ألاّ تتناولها الألسنة باللفظ ، وألا تكتب أو تُطبع ، فإن طُبعت وجب طَمْسُها ومَحْوُها » .

وقد نُشر كتاب « مسرحيات شكسبير للعائلات » وعلى غلافه العبارة التالية : «مسرحياتٌ لم تُضَف كلمةٌ واحدة إلى نصّها الأصلى ، بيد أنه حُذف منها تلك الكلمات والتعابير التى لا يمكن التفوّه بها عند تلاوتها جَهْرًا فى محيط الأسرة دون خدش للحياء» .. كذلك قام توماس بودلر بنشر تاريخ إدوارد جيبون الشهير « تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » ، ذاكرًا فى مقدمته أنه « أعدّ الكتاب لاستخدام العائلات والشباب ، معتمدًا على النص الأصلى ، مع الإقدام بعناية شديدة على إسقاط كافة الفقرات التى تنطوى على ميل إلى إلحاد ، أو منافاة للأخلاق » .

كان توماس بودلر (الذى صيغ من اسمه فِعْلٌ ، تُورده المعاجمُ الآن بمعنى « تناول النصوص بالحذف والتغيير لأغراض دينية أو أخلاقية أو تربوية ») ، شديد الإعجاب بشكسبير والحب له . غير أنه كان يعتقد أنه « ليس ثمة أى مبرر أو عذر مقبول لما أورده فى مسرحياته من عبارات تنطوى على تجديف أو فُحش . فلو أننا حذفنا كافة تلك العبارات لبدت شمسُ عبقرية شكسبير ساطعة دون كَلَف» .. فأما التجديف فلم يشكّل لدى بودلر صعوبة ضخمة ، ولا هو أغفل من النص غير فقرات قليلة رآها تنطوى عليه ، مستخدمًا كلمة «السماء» بدلاً من « الله » فى التعابير الحشوية . غير أنه يعترف بأنه جَابَهَ مشقّة كبيرة إزاء تعابير الفحش الوافرة المنتشرة فى كافة المسرحيات . وكانت وسيلته - كما سبق القول - هى الاستئصال ، لا استبدال التعابير المهذّبة بالمحذوف ، ودون أن يضيف من عنده غير حروف الجرّ أو العطف . غير أن القَدْر الذى حذفه من النصّ كان رهيبًا : فمن حديث جولييت عن شوقها إلى روميو حذف بودلر خمسة عشر بيتًا من ثلاثين ، فى حين أغفل معظم تعليقات مربّيتها على ذلك الحديث . ومن أحد أحاديث الملك لير بعد أن فقد عقله حذف خمسة عشر بيتًا من اثنين وعشرين .. أما مسرحية « هنرى الرابع » بجزْئيها فوجدها بودلر أقل مسرحيات شكسبير مناسبة لأن

تُتْلى فى محيط الأسرة . ورغم أنه أقدم على حذف شخصية « دُول تيرشيت » حذفًا كاملاً ، وإغفال عشرات وعشرات من الأبيات ، فهو يعتذر للقارئ ، إذ أنه «رغم كثرة ما تجاهله من البذاءات والفحش ، لم يتمكّن من تنقية تلك المسرحية من كافة الشوائب التى تسيئ إلى رفاهة الحسّ الأخلاقي» . أما مسرحية « دَقّة بدقّة » ، فوجدها من الامتلاء بالفحش بحيث صدّرها بكلمة تحذير ، وهو ما فعله أيضًا مع مسرحية « عطيل » التى « لا تصلح للأسف لأن تُقرأ فى محيط العائلة ، ولذا أُوصى بنقلها من رفّ الكتب فى غرفة الجلوس إلى صوانٍ مفتاحه مع ربّ الدار » !

يقول أحمد أمين فى سيرته الذاتية « حياتى » :

« كان لنا جدّة – هى أم أمنا – طيبة القلب ، شديدة التدين ، تزورنا من حين لآخر ، وتبيت عندنا ، فنفرح بلقائها وحسن حديثها . وكانت تعرف من القصص الشعبية الشيء الكثير الذى لا يفرغ ، فنتحلّق حولها ونسمع حكاياتها حتى يغلبنا النوم .. وأحيانًا كان أخي الكبير يقرأ لنا فى « ألف ليلة وليلة » ، فإذا أتى إلى جمل ماجنة متهتّكة تلعثم فيها وخجل واضطرب وحاول أن يتخطّاها ، وأحيانًا يزلّ لسانه فيقرؤها ، فيضحك بعضُ من حضر ، وتخجل أمي وجدّتي فيهرب أخي من هذا الموقف المربك ، وتتقف القراءة » .

فكتاب « ألف ليلة وليلة » – رغم أنه ليس أكثر كتب التراث العربى احتواء على العبارات الجنسية الصريحة – هو أشهر ما امتدّت إليه من كتب ذلك التراث أيدى التهذيب والتنقيح والحذف ، بدءًا بالشيخ محمد قطّة العَدَوِى الذى كُلّف بإعداد الطبعة الثانية (١٨٦٣) من طبعة بولاق الأولى (١٨٣٥) ، ومرورًا بطبعة مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت (١٨٨١ – ١٨٨٣) التى «هذّبت عبارات الكتاب» (أو بالأحرى ، خَصَتْه) ، وأحالها محرّرها خليل سركيس إلى كتاب مسيحى خالٍ حتى من عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » التى تتصدّر الأصل ، وانتهاء بعشرات الطبعات العربية فى القرن العشرين مما لم يكن من الممكن أن تتسبّب جملةٌ واحدة فيها فى إثارة ارتباك شقيق أحمدِ أمين ، أو خجل أمه وجدّته !

غير أن الجنس ، على أى الأحوال - لم يكن الشاغل الأول لنُسَّاخ كتب التراث العربى ، شأنه مع توماس بودلر وأخته ، وهما بصدد شكسبير . فقد كان العرب دائمًا ، حتى مطلع العصر الحديث ، أكثر صراحة فى الحديث عن العلاقات الجنسية من الأوروبيين ، بحيث كنا نجد أنطوان جالان الفرنسى فى أوائل القرن الثامن عشر ، وإدوارد لين البريطانى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يغفلان كافة التعابير الجنسية من ترجمتها لألف ليلة وليلة. ولو أن الفن السينمائى كان معروفًا لدى العرب فى العصور الوسطى لاحتوت أفلامهم من المشاهد الجنسية ما هو كفيل بإزعاج الأوروبيين حتى فى يومنا هذا ، ولاستخدموا حيالها مقصّ ، الرقيب الذى يفرط العربُ اليوم فى استخدامه حيال الأفلام الأجنبية .

أما ما كانت أيدى النسّاخ العرب تمتدّ إليه بالحذف أو التغيير أو الاختصار فهى ، بصفة رئيسية ، ثلاثة أمور :

الأول : الزندقة والإلحاد : ونضرب مثالاً على ذلك كتب ابن الرَّوَنْدى «التاج» ، و«التعديل والتجوير» ، و«الزمرّد» ، و«الإمامة» ، وغير ذلك من كتبه التى اندثر أثرها فلم تصل إلى أيدينا ، ولم يتبق منها غير حفنة من الجمل والفقرات ، أوردتها كتب الذين تولّوا الردّ عليه ، كالخيّاط المعتزلى فى « كتاب الانتصار والردّ على ابن الرّوندى الملحد وما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » . وقد وصف الخياط المعتزلى ابن الروندى هذا فى مقدّمته بأنه «ماجن سفيه، حَنِقٌ على أهل الدين ، شديد الغيظ على المسلمين ، يحكى عنهم ما ليس من قولهم ، ويرميهم بما ليس من مذهبهم ، جُرأة منه على الكذب والبُهتان ، وتهاونًا بركوب الإثم والعدوان .. وقد ألّف عدّة كتب فى تثبيت الإلحاد ، وإبطال التوحيد ، وجَحْد الرسالة ، وشَتْم النبيين عليهم السلام والأئمة الهادين . وزعم أن العالم قديم لا صانع له ولا مدبّر ، وأن من أمْرض عبيده وأسْقَمهم وأفقرهم وابتلاهم فليس برحيم بهم ، وأنه ليس بحكيم مَن أمر بطاعته مَنْ يعلم أنه لا يطيعه ، وأنه مَن خَلّد مَن كفَر به وعصاه فى النار طول الأبد غير حكيم ، ولا عالم بمقادير العقاب على الذنوب .. وطَعَن فى آيات الأنبياء وزعم أنها مخاريق ، وأن الذين جاءوا بها سَحَرة ، وأن بالقرآن تناقضًا وخطأً وكلامًا يستحيل ... » إلى آخره .

والثانى : ما كُتب من ثناء على خلفاء أو ولاة أو سلاطين أو دول أو مفكرين أو أعلام صوفية ممّن استقرّ الرأى بعد زمنهم على شَجْبهم، أو إنكار حقّهم فى تولّى مقاليد الحكم ، أو الطعن فى دينهم ، أو استنكار سياساتهم ، أو استفظاع أقوال لهم ، كخلفاء بنى أمية (عدا عمر بن عبد العزيز) فى زمن العباسيين ، والخليفة الأمين فى عهد المأمون ، وزياد بن أبيه ويزيد بن معاوية فى معظم العصور ، والحلاّج بعد صلبه ، والفاطميين فى دولة بنى أيوب ، وصلاح الدين الأيوبى فى أقطار الأتابكة . فإن شئنا أقرب مثال إلى الذهن ذكرنا الحجّاج بن يوسف الثقفى ، الذى يعتبره المؤرخون من غير المسلمين من بين أعظم عشرة إداريين فى تاريخ البشرية .. ظهر فى عصر شاعت فيه الفوضى السياسية وتلاحقت الفتن ، بحيث لم يكن بوسع أى حاكم ، أو والٍ حازم يتصدّى لعلاج تلك الأوضاع إلا أن يمزج حَزْمه بشيء من القسوة ، وسياسته بقدر من العنف لا هوادة فيه ، حتى يتمّ استئصال شأفة العصاة الثائرين المهدّدين لوحدة الدولة وسلامتها وأمنها . وكان إلى جانب هذا نقى السيرة ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم . فما أخمد الفتن حتى كان همّه الأول أن يُضمّد الجراح التى أصابت الأقطار ورخاءها من جرّاء حروب دامت عشرين عامًا ، فإذا هو وقد بات شغله الشاغل بناء المدن ، والنهوض بالزراعة ، وحفر القنوات الجديدة ، وتطهير القنوات القديمة ، وتعديل نظام الضرائب والنقد والمقاييس ، واستحداث النظم الإدارية الكفيلة بإرساء دعائم العدل والاستقرار .. ومع هذا وغيره تبنّى المؤرخون والمؤلفون العرب منه موقفًا ساذجًا مُفعمًا بالاستهجان والكراهية ، ورسموا له صورة حاكم ظالم سفاك للدماء ، ثقيل الوطأة على رعاياه لمجرد أن كافة الكتب التاريخية الإسلامية التى وصلت إلينا ، إنما كُتبت بعد انهيار الدولة الأموية ، وفى ظل أعدائها ، وأن روايات أهل الشام المناصرين للأمويين والمعجبين بالحجاج أُغفل معظمها من تلك الكتب ، بحيث كانت الكلمة الأخيرة والحكم النهائى فيها لأعدائهم الذين طمسوا معالم الصورة الحقيقية عن عمد وسوء نية ، مضخّمين لنقائص دولتهم ورجالها ، ومقلّلين من شأن إنجازاتها ، بحيث أضحى من الصعب الوصول إلى حقيقة الحجّاج ، إلا من خلال النزر القليل الذى بقى لنا من الروايات الشامية ، وكتب التاريخ

النصرانية ، خاصة كتاب الصِّلة لتاريخ إيزيدور ، التى احتفظت بالمأثور من تلك الروايات ، وروايات قليلة فى بعض كتب المؤرخين الأكثر إنصافًا ، كتاريخ الإسلام للذَّهبى الذى وصف الحجاج بأنه «كان أرحم الناس بأهل البلاد الوادعين» ، وغيره ممن اعترف بأنه كثيرًا ما كان الإقرار بالذنب فى حضرته ، أو حتى الردّ البليغ ، أو الشجاعة، أو المُلْحة الطريفة ، كافيًا لتهدئة سَوْرة غضبه ، ولعفوه عن الجناة المارقين .

والثالث : التصوير الواقعى الموضوعى لأبطال الإسلام وللشخصيات الحبيبة القريبة إلى قلوب أهله ، مما قد لا يستسيغه المعجبون فى كل زمان ، أو أذواق أهل عصور لاحقة تغيّرت فيها القيم والمفاهيم .

فنحن نعلم مثلاً أن السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق (وهى أقدم السِّير الجامعة وأصحّها) قد ضاعت ، ولم يبق منها غير المختصر الذى أعدّه لها عبد الملك بن هشام ، والذى فضّله الناس فيما بعد على أصل ابن إسحاق فأهملوه .. غير أننا نجد ابن هشام فى مقدّمة مختصره هذا يقول إنه « تارك بعض ما يذكره ابن إسحاق مما ليس لرسول الله فيه ذكر ، ولا نَزَل فيه من القرآن شيء ، وأشياء بعضُها يَشْنُعُ الحديث به ، وبعضها يسوء بعض الناس ذكرُه ، وبعضٌ لم يُقرّ لنا البكّائى بروايته » .

كذلك صرنا نجد كُتّاب السيرة النبوية فى عصرنا هذا - وعلى رأسهم محمد حسين هيكل - يُغفلون دون أى مبرر معقول (غير تغيّر الأذواق فى زمنهم) ، ما أوردته كتب ككتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد من صفة الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، مثل : أنه « كان يعمل عمل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة » (الطبقات - طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، المجلد الأول ص٣٦٦) ، وأنه كان بعد الأكل «يلعق أصابعه الثلاث التى يأكل بها قبل أن يمسحها (ص ٣٨١) ، «وإذا أتى الغائط لم يرفع ثيابه حتى يدنو من المكان الذى يريد» (ص٣٨٤) ، «فإذا مشى تكفّأ كأنما يمشى فى صُعُد» (ص٤١١) ، وأنه بعد أن امتلأ جسمه فى السنوات الأخيرة من حياته صار يقول لأصحابه : « إنى قد بَدَنْتُ فلا تُبادرونى بالقيام فى الصلاة والركوع والسجود » (ص٤٢٠) ، وأنه كان يضفر شعر رأسه أربع ضفائر (ص٤٢٩) ، ويخضبه بالحنّاء فإذا

هـو أحمر اللون (ص ٤٣٧) ، أما لحيته فكان يصفّرها (ص ٤٣٨) ، وكان ينهى عن خضاب السواد (ص٤٤١)، وأنه كانت له مكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثًا فى كل عين (ص ٤٨٤) » .

أما عن الواقدى صاحب كتاب « المغازى » ، فنحن نعلم أن وصف البعض له بأنه كان يتشيّع قد يرجع إلى ما أورده أثناء حديثه عن عمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان من عبارات رأى السنيّون أنها لا تَضَعُهما فى مكانتهما المرموقة . ففى إحدى مخطوطات كتابه قائمة بأسماء من فرّ عن النبى صلّى الله عليه وسلم يوم أُحُد تبدأ بهذه الكلمات : «وكان ممن ولّى فلان ، والحارث بن حاطب ، وسواد بن غزية ، وخارجة بن عامر » ، بينما نجد النص فى «شرح نهج البلاغة» لابن أبى الحديد : «عمر وعثمان» بدلاً من « فلان» ، وفى «أنساب الأشراف» للبلاذرى : « عثمان » دون ذكر لعمر . ومن هذا يبدو أن النص فى تلك المخطوطة كان يذكر عثمان وعمر ، أو عمر وحده ، أو عثمان وحده ، ممن ولّوا الأدبار يوم أُحُد ، لكن النسّاخ لم يقبلوا هذا فى حق عمر أو عثمان ، فأبدلوا اسميها أو اسم أحدهما بقولهم «فلان» . والغالب أن نصّ الواقدى الأصلى هو أساس الاعتقاد بأنه كان شيعيًا .

كان المؤرخون المسلمون الأوائل يلتزمون إلى حدّ كبير بالمعايير العلمية الدقيقة ، ومنهج البحث التاريخى وسبله . غير أنه بمضى القرون أفلح الفقهاء فى فرض رقابتهم ووجهة نظرهم بشأن أحداث الماضى وشخصياته ، فأضحى الهدف من الكتابات التاريخية والسِّير والتراجم هو غرس القيم الدينية ، والمبادئ الأخلاقية الرفيعة ، والمثل العليا ، لا تسجيل الحقائق بأكبر قدر مستطاع من الدقّة بعد تمحيص ما تجمّع منها لدى المؤرخ . ومن هنا بدأت تتكوّن نظرة المسلمين الرومانسية إلى ماضيهم ، وامتدّت أيدى نُسّاخ الكتب القديمة بالحذف والطمس والتغيير ، بل وبالإضافة ، ووجد القرّاء فى الصور المثالية ما يُرضى حاستهم الجمالية إرضاء لا توفّره فوضى الواقعية .. كانوا فى حاجة ماسّة إلى أن يعثروا فى تاريخهم على أيام تليدة مجيدة سبقت التدهور الذى يعانون منه ، وعلى شخصيات تاريخية تحيطها هالة ساطعة من البطولة والقدسية والصلاح سبقت

الخَلَف الصالح الذى يُعايشهم . فأصبح المؤرخون ، وأصبح كُتاب التراجم ، وأصبح النّساخ ، وأصبح القُرّاء ، كمن يدخل مغارة مظلمة وفى يده بطارية جيب ، يُسلّطها على هذا الركن من المغارة أو ذاك ، وهذه الحيطان أو تلك ، متجاهلاً ما عداها عامدًا متعمدًا ، ظانًا أنه بوصفه لبنية المغارة بعد خروجه قد أسقط إلى الأبد نواحيها التى أغفلها واختار ألاّ يسلّط الضوء عليها . غير أن هذه النواحى ، للأسف ، تظل قائمة رغمًا عنه ، وعدم إنارتها لا يعنى إزالتها .

* * *

- ٤ -

التراث :
ماذا نقبل وماذا نرفض منه ؟

ما من شكّ فى أننا نشهد فى زمننا هذا أزمةً فى تعاملنا مع التراث ، وفى تحديد موقفنا من المعاصرة . وقد كانت بداية الأزمة حين تبنَّى محمد على نظامين متباينين للتعليم : نظام تقليدى قديم ، تُرِك على حاله دون إصلاح ، يبدأ بالكُتّاب فى القرية ، وينتهى بالأزهر فى القاهرة ، ونظام جديدُ له مدارسه ، التى تؤهّل خرّيجيها لتولّى المناصب المرموقة فى الدولة ، والتى أُنشئت ووُضعت مناهجها على غرار معاهد العلم الأوروبية ، فكانت لا تُولى الدين وعلومه ، والتراث وثمراته ، العناية الواجبة . وهنا بدأت تظهر فى مصر تلك الهوّة الهائلة بين التعليم الدينى والتعليم المدنى ، وذلك الاختلاف الواضح بين المشايخ وسواد الناس (سواء فى الزّى ، أو نمط المعيشة ، أو العادات الاجتماعية ، أو أوجه التسلية ، أو حتى لغة الحديث) ، وبدأت المدارس الجديدة تخرّج جيلاً بعد جيل ممّن قد فُرِّغوا تفريغًا من كل ما يصلهم بماضيهم ودينهم وتقاليدهم وتراثهم الفكرى .

أمّتــان :

وبمضى السنين ازدادت المشكلة تعقّدًا والوضع تأزّمًا . فقد نمت الازدواجية وفُصام الشخصية لدى أبناء مجتمعنا نموًّا بات ينذر بأن تضحى أمتنا أمّتين على نحو وصف بنيامين دزرائيلى للمجتمع الإنجليزى فى زمنه . وهى أزمة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتزعزع الثقة بالنفس إزاء التفوّق المادى والحضارى للفرنجة . وبالتالى فإنه كلما ظهرت فى مجتمعنا من الأسباب والدواعى ما يعيد إلى أبنائه بعض هذه الثقة المفقودة ، ويردّ إليهم قدرًا من الإيمان بالمستقبل ، خفّت حدّة الإشكالية . وهو بالضبط ما حدث ويحدث فى فترات المدّ فى الحركة الوطنية .

وتتمثل هذه الازدواجية التى أتحدّث عنها فى عجز المتفرنجين منا عن استساغة التراث ووصْل ما بينهم وبين ماضيهم ، وعجز السلفيين عن المعاصرة والاستفادة من حضارات الغير ، وعجز هؤلاء وأولئك عن تمثّل مختلف الاتجاهات ، والخروج منها بناتج جديد متجانس ، له ما لتلك الاتجاهات من الاستقلال . وقديمًا قال أبو حيان التوحيدى : « إذا سمعت الرجل يتلو (ما عند الله خيرٌ وأبقَى) ، فاعلم أن فى جواره وليمة لم يُدْعَ إليها ! » . فالعنب إذن هو فى العادة حُصْرُم . ثم إذا بهذا العجز من أولئك وهؤلاء يتبلور فى عداء كلٍّ لموقف الطرف الآخر ، دون أن يحقّق أى منهما الانسجام المنشود .

ولا أحسب أن مجتمعات كثيرة غيرنا تعرف مثل هذه المشكلة العقيمة . فالغَرْبى مثلاً إن قرأ فإنما يقرأ توما الأكوينى اليوم ، وبرتراند راسل غدًا ، ثم أفلاطون بعد غد ، كتبهم جميعًا ضمن سلسلة واحدة ، على رفّ واحد ، فى مكتبة واحدة ، لا يقال عنه إنه تراثى إن فَضَّل إسخيلوس ، أو أنه عصرى إن هو آثر جنتر جراس . ويدخل كل هذا فى تكوينه ليجعل منه الإنسان الذى هو عليه ؛ لا مشكلة ولا حيرة ولا إحساس بالتمزّق . أما العربى المعاصر فمشكلته كمشكلة امرئ يحاول تدارك صعوبة حمل العديد من صحون الطعام فى يدين اثنتين ، بينما الغَرْبى أشبه بمن أكل منها جميعًا ، وتمثّلها ، فَسَرت فى بُنيانه ، وصارت إلى هيئة جَدّ مخالفة .

أين المَخْرَج ؟

وعندى أنه فى مقدورنا تحقيق مثل هذا الانسجام متى اتّخذنا من تراثنا ومن حضارات الغير موقفين مغايرين لموقفنا الآن :

من تراثنا : بحيث لا يكون الهدف من الإقبال عليه الهروب من حاضر ثقيل الوطأة ، أو الترويح عن النفس ، أو التفرّج على أطلال العصور الخوالى ، وإنما هو الاستفادة من حكمة الأقدمين ، وتجارب الأسلاف ، فى أن نجعل من عالمنا المعاصر عالمًا أفضل ، وأن نهيّئ لأنفسنا وأبنائنا مستقبلاً أزهى ؛ لا نحترم الماضى لمجرد أنه ماض ، ولا السلف لأنهم سلف ، ولا نقصر الحق فى التفكير على الأموات . ومن حضارات الغير : بحيث لا يحكم موقفنا إحساس بالنقص مهين ، أو استكبار مُشين ، أو فقدان الثقة بالنفس

والتقاليد والدين ، مع الإقرار بأن الاستفادة من معاصرة غيرنا ممكنة على نحو استفادة أوروبا من معاصرة العرب إبّان العصر الوسيط فى تجاوزها لواقعها إلى عصر النهضة ، فعصر الإصلاح الدينى .

وتنبع الحيرة والمشكلة عندنا فى رأيى من أمور ثلاثة لا مناص من أن تتصدّى لها نظم التربية والتعليم والإعلام فى أقطارنا إن هى أرادت - أو أُريد لها - المساهمة فى إيجاد الحلول :

الأول : الفهم الخاطئ لدى جميع الأطراف لماهية التراث والمعاصرة ؛ والثانى : تخريج صنف من الناس (يتزايد عددهم يومًا بعد يوم بانحطاط مستوى التعليم والإعلام) لا يملكون ناصية لغات أجنبية ، ولا ملكة تذوّق ثمار حضارات أسلافهم ؛ والثالث : تخريج صنف آخر من المتفرنجين ، بالغوا فى النظرة إلى الغربيين وكأنهم أنصاف آلهة ، وبالغوا فى التحقير من شأن تراث أمتهم الذى حسبوه خطأ المسئول عن التخلّف الذى صرنا إليه ، قد حرمهم فساد منهج تعليم اللغة العربية فى مدارسنا من القدرة على النظر فى كتب الأقدمين (وهى التى باتوا يسمّونها ساخرين بالكتب الصفراء) ، فإن نظروا فيها كان ذلك من قبيل الرغبة فى التندّر على سخافة نظرة الأسلاف .

عن التراث والمعاصرة :

فأما عن التراث فإنه يمكن الحديث عنه بأحد معنيين : أنه مجموع ما خلّفته قرائح الأقدميين وصفوة الأسلاف من فكر وعلم وفن ونمط عيش وفنون حضارة مما يمكن لجيلنا الحالى الإفادة منه ، والاستعانة به على حلّ ما يواجهه من المشكلات والتحدّيات ؛ أو تعريفه بأنه كل ما أفرزه الماضى من إفرازات ، ضارة ونافعة ، سامّة وسليمة ، لايزال لها أثرها الفعّال فى مسلكنا ومعتقداتنا وأسلوب معيشتنا ونظرتنا إلى الحياة ، منها ما يجدر بنا التمسّك به وتنميته ، ومنها ما ينبغى علينا محاولة استئصاله ؛ أو الحدّ قدر الإمكان من نطاق سلبيّاته .

وأما عن المعاصرة فتفترض موقفًا إيجابيًا نشطًا من جانب مثقفين يستهدفون الإدراك الواعى لحقائق الزمن الذى يعيشون فيه ، وعناصره ، وموقعه من مجرى التاريخ ،

وعلاقته بالمستقبل المرئى ، ومحاولة التغلّب على الاتجاهات التى تسير ضد تيارات التاريخ ، وتقوم حتميّته ، وتعرقل وصوله إلى هدفه كما يفهمه هؤلاء المثقفون .

واستنادًا إلى هذه المفاهيم أمضى فأقول : إن ماضى وتراثى وسلفى ، وماضى الحضارات الأخرى وتراثها وأسلافها ، لا يعنينى منها إلاّ الجانب الذى ثبت لدى أنه حيّ، وأن بوسعه أن يُثرى حياتي وحاضري، ويزيد من قدرتى على مواجهة تحدّيات مستقبلي، ومن قُدرة أمتى على مواجهة تحدّيات مستقبلها .

كذلك فإن بوسعنا من نفس المنطلق أن نتخيّل تغيّر تقييم أهل كل زمن لأعلام تراثهم وثماره عن تقييم أهل الزمان الذى سبقه ، وأنه من حقّ كل جيل ، ومن واجبه ، أن يُعيد تقييم عناصر تراث أمته للتمييز بين ما يمكن استخدامه منها فيُبقى عليه ، وبين ما لا يمكن استخدامه فيُغضى عنه . فنحن إنما نعيش فى زماننا نحن لا زمان الأقدمين . وما لا يساعدنا من تراث الأسلاف على حلّ مشكلات زماننا هو ميّت إلى حين اكتشاف جيل تالٍ لجيلنا أن فيه حلاً لمشاكله فيُحييه ، أما ما نجد فيه العون فهو حى إلى حين اكتشاف جيل تال عدم جدواه فيهجره .

نقاط البداية :

ونقاط البداية عندى تتلخص فيما يلى :

١ - تشخيص الأدواء التى تعانى أمتنا منها ، والتعرّف على حقيقة موقعنا من الخريطة الحضارية للعالم .

٢ - التعمّق فى دراسة تراثنا للنظر فيما يمكن أن يقدّمه من حلول لهذه الأدواء .

٣ - دراسة تاريخ تطوّر أمتنا ، وتاريخ تطوّر غيرها من الأمم ، بغرض الاستدلال منهما على ملامح المستقبل .

٤ - الاستفادة من تجارب الحضارات الأخرى والنظر فيما ، إذا كان لديها أو فى تراثها ما يمكنه مساعدتنا على مواجهة تحديات المستقبل ، دون أن تُخلّ هذه الاستفادة بتفرّد شخصيتنا الحضارية .

وأقولها صراحة أنني لست كبير التفاؤل بصدد بعض هذه النقاط . فحصيلة شباب أمتنا من اللغة العربية في تضاؤل مستمر رهيب ، ونفورهم من النظر في أمّهات كتب تراثهم الإسلامي في ازدياد ، واتّجاههم يقوى يومًا بعد يوم إلى تبنّي قيم الغرب ، وتقليد أهله في أساليب عيشتهم ، خاصة وقد ضاعت ثقتهم في أمة لا يُبدي أبناؤها الحماس إلا في إشباع الشهوات أو اللهث وراء المال ، ولا يعرف ساداتها سبيلاً إلى الرضا ، إلا بضمان عدم المساس بسلطاتهم المطلقة، واستئصال شأفة كل فكر حر .

فإن اتفقنا بعد هذا على أن من أهم الأهداف التي يجب أن تتوخّاها أية محاولة لإصلاح نظم التربية والتعليم عندنا هو أن يستردّ شباب أمتنا احترامهم لتراثهم الفكري، والرغبة في الاستزادة منه ، والقدرة على النظر فيه ، فالأجدى أن نبدأ بالاعتراف بأن الحصيلة التي يخرج بها أبناؤنا من اللغة العربية بعد انقضاء سني دراستهم لا توفّر القدرة على فهم ما كتبه الأقدمون . والنماذج التي تدرَّس لهم في المدارس لأدب هؤلاء ، كهجاء الفرزدق لجرير ، وفخر المتنبّي بنفسه ، ومدح الأعشى لوالي الحيرة ، في كتب رديئة الورق ، سيئة الطباعة ، قبيحة الصور ، لا يمكن أن ينجم عنها احترامٌ حقيقي لتراث العرب ، كذلك الاحترام الذي ينجم لديه لآداب الفرنجة حين يدرس في حصص أخرى مسرحية لشكسبير، أو قصائد هيجو ، في كتب أنيقة الطباعة ، بهيّة الصور والإخراج .

فإن كان عالمنا العربي قد نُشر فيه بالفعل عشرات الآلاف من كتب التراث ، فإن شبابنا يضلّون في متاهاتها ، معظمهم عاجزون عن اقتناء ولو اليسير منها ، والقادرون مفتقرون إلى من يهديهم إلى القمم الشامخة فيها، ويُثنيه عن النظر في تافه الشأن منها . وقد انتهج الغرب ، وأعوانه من أبناء أمتنا بعد انتهاء حقبة الاستعمار ، أذكى الحيل من أجل تفريغنا من مضموننا، وتجريدنا من سلاحنا الحضاري، دون أن نشعر بهذا التفريغ، أو نتنبّه إلى ذلك التجريد . وسيأتي الوقت الذي نقصد فيه المخبأ الذي كنا نظن كنزنا مستقرّ فيه سالمًا ، فإذا بقضبان الذهب وقد استبدل اللص بها قوالب الطوب ، وإن كان قد ترك الصندوق والأقفال على حالها حتى لا يثير شبهة تدعونا إلى المعاينة للاطمئنان .. حرصوا على أن تكون دروس العربية في المدارس في آخر اليوم الدراسي

حين تكون الأذهان قد كلّت ، والنفوس قد ملّت ، وخصّصوا دروس الصباح الأولى لتعليم اللغات الأجنبية . وقد كان الغالب أن يكون مدرس العربية زرى الهيئة والمسلك ، محدود الأفق والثقافة ، بالمقارنة بغيره من المدرسين . كذلك حرصت الأفلام السينمائية والعروض المسرحية والتليفزيونية على إثارة سخرية الناس باللغة العربية ورجالها ، فكانت تقدم عيّنات بغيضة متحذلقة منهم ، يتكلّمون الفصحى بطريقة منفّرة ومضحكة فى آن واحد ، حتى ارتبطت العربية فى أذهان أطفالنا الغضّة بالقبح مدى الحياة .

أذكر يومًا من أيام صباى سألتُ فيه توفيق الحكيم ، وكان صديقًا لأبى ، عما ينصحنى أن أقرأه من كتب التراث العربى ، فأجاب ضاحكًا : « سأجيبك شرط ألا تذكر إجابتى هذه لأبيك حتى لا يغضب .. ما من كتاب فى التراث العربى كله هو أهل لأن تضيّع الوقت فى قراءته فى زماننا هذا ، اللهم إلا إن أردت إتقان العربية ، فلا بأس من النظر من حين لآخر فى كتاب « الأغانى » مثلاً ، أو «العقد الفريد» !

وقد قُدّر لهذا الموقف من تراثنا أن يشيع وينمو بمرور الأيام ، حتى أصبح من المألوف أن تسمع المثقف العربى يقول : « ماذا أقرأ من الكتب العربية القديمة حتى أتمكّن من اللغة دون أن يكون نظرى فيها مضيعة للوقت ؟ لقد كان أمام فلوبير مثلاً ، وهو صبى كنوز من الروائع فى الأدب الفرنسى . كانت أمامه مؤلفات راسين وكورنى وفولتير وروسو وبلزاك وستندال وهيجو وعشرات غيرهم ممن كان يمكنه أن يقرأ لهم فيستمتع بالمعانى ويستفيد من الأفكار فى نفس الوقت الذى يستفيد فيه من اللغة .. ثم انظر إلىّ : أتحسبنى أقبل الآن وقد قرأت مؤلفات دوستويفسكى وتولستوي ، ومونتنى ومونتسيكو ، وبايرون وهاينى ، أن أضيّع وقتى فى قراءة الصفدى والنويرى ، أو حتى الجاحظ والمتنبى ، لمجرد أن أُتقن رفع الفاعل ونصب المفعول ؟ أتظننى أرضى بأن أترك أشعار كيتس وشيلى إلى شعر عربى رُبْعُه فى مدح الولاة ، ورُبعه فى الهجاء ، ورُبعه فى الفخر بالنفس ، وربعه الباقى فى رثاء لا يمسّ القلب ، أو وصف لا هو بالمقنع ولا بالممتع ، وحديث عن الناقة لا أتجاوب معه ؟ أتراني أستطيع اليوم أن أرى فلسفة فى قول الشاعر :

حيـاةٌ ثم موتٌ ثم بعـثٌ   حديثُ خرافة يا أمّ عمرو

أو حِكمة فى قول زهير :

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواء من تُصب تُمِتْه ، ومن تُخطئ يُعمّر فيهرم ؟

أى مثقف يمكنه اليوم أن ينفعل بمثل هذا التراث الغث ؟ .

الوجه الآخر

فى مقابل هؤلاء المثقفين المتفرنجين نجد فريق المثقفين ممّن لا يملكون ناصية لغات أجنبية ؛ أناس قد ارتبط الماضى فى أذهانهم بالبساطة والراحة والإحساس بالأمن والحياة الطبيعية السهلة ، مما يخالف وطأة الحاضر وتعقّده . وقد انغمس هؤلاء - من أجل الهروب من الحاضر الواقع - فى النهل من التراث العربى ، سمينه وهزيله ، رفيعه وغثّه ، يرون فيه سمت الأمن والاطمئنان ، عكس الحاضر مجهول العواقب ، متميّع المعالم ، لا نكاد نفرّق إزاء تعدّد جوانبه واستغراقنا فيه بين ما له قيمة دائمة ، وما هو عرضى زائل .

لقد أدّى تزايد معدّل سرعة التغيرات فى عصرنا ، وضخامة هذه التغيرات ، وما يحدث من ثورات كبرى تنقل مجتمعاتنا فى زمن قصير من وضع إلى وضع مُغاير تمامًا ، إلى تغذية مشاعر الحنين إلى الماضى لدى الكثيرين ، وتغذية الرغبة لدى عدد كبير من المثقفين فى الاحتماء بالتراث ، خاصة إن كانوا عاجزين عن تبوّء مكانة يرضون بها فى إطار النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى القائم . وكثيرًا ما يدفعهم استغراقهم فى التراث إلى تمجيد الماضى وتزييف أحداثه ، وعبادة الأسلاف ، وهو ما يفلح - وقت المحن والأزمات - فى تخفيف حدّة الضغط العصبى ، (كما يخفّف إخفاء النعامة لرأسها فى الرمال من حدة توترها) ، ويُلهى (كما تُلهى المخدرات متعاطيها) عن الواقع ، ويريح ولو لساعات من التفكير فى حاضر دائب التغيير ولا شكل له ، وفى مستقبل لا نطمئن إلى الصورة التى سيكون عليها . ويتمثّل الخطر الأعظم فى كل هذا الاستغراق الكامل فى التراث والحنين المفرط إلى الماضى فى أنهما يشلاّن من قدرتنا على مواجهة الحياة المعاصرة ، والتصدّى لمشكلاتها بمحاولة جادّة نشطة لإيجاد الحلول ، والإعداد للمستقبل ، ويعطّل من إمكانية الخلق والإبداع .

إن الحاضر هو الزمن الوحيد الذى نملك أن نعيش فيه . ولابدّ للواقع من أن يفرض نفسه في وقت ما على من شاء مواجهته ومن لم يشأ . وإنما تتحقّق المأساة وتقع الصدمة حين يتبدّد الوهم ، ويزول تأثير المخدّر بالإفاقة . كذلك فإن لن يكون بوسعنا إصلاح الواقع إلا متى أدركنا زيف تقديس الماضى الميّت ومُثله ، ومتى فهمنا أن تقديس الماضى لمجرد أنه ماض ينطوى على جهل ، وأنه أشبه بالسراب الذى لا يعكس غير أوهامنا وأحلام يقظتنا ، ومتى تصدّى المفكرون منا لبيان الجوانب الإيجابية فى الحاضر والعصر الحديث مما لم يكن القدماء ليحلموا ببلوغه وتحقيقه .

وفى اعتقادى أن أولئك الذين يتشدّقون بروعة حياة الأسلاف ، لن ترضى غير قلة قليلة منهم بالعيش فى ظلّها لو كان بوسعها ذلك ، ولو أنها كانت على دراية كاملة بالأحوال وقتها . وحسبنا أن نذكر أنها أزمنة عرفت الرق وعبودية المرأة ، وتكرر وقوع الأوبئة والطواعين، وانتشار المجاعات ، وغلبة الفقر والأمية ، ومآسى تعدّد الزوجات ، ووهن الصلة العاطفية بين الأزواج ، وبين الآباء والأبناء ، والسلطة المطلقة للحاكم ، وضعف تأثير الرأى العام ، وقسوة العقوبات ، ولا إنسانية معاملة المجانين والسجناء ، وسوء الأحوال الصحية والجهل بسبل الوقاية من الأمراض ، وسذاجة نظم التعليم ، وجلد الشعراء وقطع الرءوس لمجرد نزوة من الحاكم ، وإحراق المبتدعين من المفكرين وتقطيع أوصالهم ، وسوء حال المسنّين والعجزة ، وقلّة وسائل الراحة والترويح عن النفس ... وقد كان تشارلس ديكنز على دراية بخُرافة عظمة الماضى ، إذ جعل على رفٍّ بحجرة مكتبه ورقًا مقوّى فى صورة سبعة كتب يحمل جميعها عنوان « حكمة الأقدمين » ، ثم عنوانًا فرعيًا لكل منها . والعناوين السبعة هى :

الجهل - الخرافة - المقصلة - المشنقة - التعذيب - القذارة - المرض !

ماذا نقبل وماذا نرفض ؟

خلاصة القول : إن الوقت المتاح لنا للإطلاع على الثمار الفكرية لحضارتنا وحضارات غيرنا محدود ، ولا ينبغى أن نسمح لأنفسنا بأن نهدره فى التسكّع بين الهزيل ضئيل الشأن من هذه الثمرات . وقد سبق لى أن نشرت فى مجلة « العربى »

الكويتية (عدد أول أكتوبر ١٩٩٧) اقتراحًا أوجزه فيما يلى : وهو أن الغربيين أقدموا منذ بضع سنوات ، من أجل تعزيز إلمام شباب الغرب بتراثه والجذور الفكرية لحضارته ، على إخراج مجموعة من الكتب تضم أربعة وخمسين مجلدًا أصدرتها دائرة المعارف البريطانية وتحمل اسم « أعظم كتب العالم الغربى » ، من هوميروس إلى فرويد . هذه المجموعة باتت تشكّل جزءًا من أثاث معظم العائلات المثقفة القادرة على اقتنائها فى أوروبا وأمريكا الشمالية .

فلو أن حكومة عربية مستنيرة تبنّت مشروعًا كهذا ، وشكّلت لجنة من عشرة أو عشرين من العلماء المتبحّرين فى التراث العربى ، المدركين مع ذلك لطبيعة ذوق شباب أمتنا المعاصر ، ولاحتياجاتهم الحضارية فى زمننا هذا ، فانتقت بعد النقاش والفرز وتمحيص الآراء المختلفة أعظم مائة كتاب فى تراثنا منذ امرئ القيس إلى الجبرتى ، واستبعدت من هذه الكتب المائة الغثّ الكثير الذى تحفل به كتبٌ عظيمة كأغانى أبى الفرج ، أو السلوك للمقريزى ، وأبقت على بعضها الآخر بصورته الكاملة ، كمقدمة ابن خلدون ، وحى بن يقظان لابن طفيل ، وفَصْل المقال لابن رشد ، ونشرتها فى خمسين أو ستين مجلدًا أنيقًا بسعر فى متناول العائلة متوسطة الحال ، بحيث تصبح جزءًا من أثاث دارها ، وفى متناول أبنائها وتحت نظرهم فى كل يوم ، لأسدت بهذا الصنع خدمة جليلة لأبناء جيلنا والأجيال التالية ، إذ تصل بينهم وبين ماضيهم .

وياحبّذا لو تبع ذلك ترجمة كاملة لمجلّدات مجموعة « أعظم كتب العالم الغربى » فيجمع شبابنا بين الحُسنَيَيْن . وأذكر هنا أن اللجنة التى نهضت بالمشروع الغربى كانت تعتزم فى البداية أن تضمّ المجموعة أعظم كتب العالم ، ثم عدلت عن ذلك واكتفت بكتب العالم الغربى ، على أساس أن أبناء الحضارات الأخرى أقدر على تقييم كتب حضاراتهم من غيرهم ، ووعدت فى مقدّمة المجموعة بأنه متى أخرجت الأمم الأخرى مجموعات مماثلة ، فقد تضمّها جميعًا فى مجموعة ضخمة واحدة ، هى تراث الإنسانية، لا شك أن من شأنها أن تُسهم إسهامًا عظيمًا فى إقامة الجسور الفكرية بين الحضارات .

ولم أر بأسًا فى ختام المقال المشار إليه من أن أدلى بدلوى فى هذا المجال ، فأوردتُ قائمةً مبدئية بأسماء ما أعتبرها أهم مائة كتاب فى التراث العربى القديم . وهو اختيار شخصى كان ثمرة أكثر من خمسين عامًا قضيتُها بين كتب ذلك التراث . وما من شك فى أن غيرى قد يعترض على إيراد بعض المؤلفات فى هذه القائمة ، أو على إغفال بعض المؤلفات منها . غير أن الأمر لا يعدو - كما قلت - مجرد إدلاء بدلو ، وفتح باب المناقشة ، وقد يكون بمثابة أول خطوة فى سبيل تدشين المشروع .

هذه الكتب هى :

١ - المعلّقات السبع (شرح الزَّوْزَني)
٢ - كليلة ودمنة لابن المقفع
٣ - السيرة النبوية لابن إسحاق
٤ - ديوان بشار بن برد
٥ - كتاب سيبويه
٦ - ديوان أبى نواس
٧ - الرسالة للشافعي
٨ - المغازى للواقدي
٩ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام
١٠ - الطبقات الكبرى لابن سعد
١١ - ديوان الحماسة لأبى تمام
١٢ - ديوان أبى تمام
١٣ - الجبر والمقابلة للخوارزمي
١٤ - الحيوان للجاحظ
١٥ - رسائل الجاحظ
١٦ - صحيح البخاري
١٧ - عيون الأخبار لابن قتيبة
١٨ - فتوح البلدان للبلاذري
١٩ - الأخبار الطّوال للدينوري
٢٠ - ديوان ابن الرومي
٢١ - ديوان البحتري
٢٢ - الكامل للمبرّد
٢٣ - تفسير الطبري
٢٤ - تاريخ الطبري
٢٥ - الحاوى لأبى بكر الرازي
٢٦ - الزِّيج للبَتَّاني
٢٧ - مقالات الإسلاميين للأشعري
٢٨ - العقد الفريد لابن عبد ربه
٢٩ - مروج الذهب للمسعودي
٣٠ - ديوان المتنبي
٣١ - المواقف للنِّفَّري
٣٢ - كتاب الأغانى لأبى الفرج

٣٣ - الأمالى للقالي
٣٤ - ديوان أبى فراس الحمداني
٣٥ - رسائل إخوان الصفا
٣٦ - نشوار المحاضرة للتنوخي
٣٧ - الفهرست لابن النديم
٣٨ - أعمال الهندسة للبوزجاني
٣٩ - أحسن التقاسيم للمقدسي
٤٠ - الخصائص لابن جنِّي
٤١ - الامتاع والمؤانسة للتوحيدي
٤٢ - المقابسات للتوحيدي
٤٣ - الهوامل والشوامل للتوحيدى ومسكويه
٤٤ - تجارب الأمم لمسكويه
٤٥ - القانون فى الطب لابن سينا
٤٦ - الإشارات والتنبيهات لابن سينا
٤٧ - كتاب المناظر لابن الهيثم
٤٨ - تحقيق ما للهند للبيروني
٤٩ - اللزوميات لأبى العلاء
٥٠ - الأحكام السلطانية للماوردي
٥١ - طوق الحمامة لابن حزم
٥٢ - الفُصَل فى الملل والنحل لابن حزم
٥٣ - المُحَلَّى لابن حزم
٥٤ - الرسالة للقشيري
٥٥ - أسباب نزول القرآن للواحدي
٥٦ - أنباء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي
٥٧ - أسرار البلاغة للجرجاني
٥٨ - سيرة المؤيّد فى الدين بقلمه
٥٩ - شرح كتاب السِّيَر للسَّرَخْسي
٦٠ - إحياء علوم الدين للغزالي
٦١ - المنقذ من الضلال للغزالي
٦٢ - تهافت الفلاسفة للغزالي
٦٣ - مقامات الحريري
٦٤ - أمثال الميداني
٦٥ - الكشّاف للزمخشري
٦٦ - الملل والنِّحل للشهرستاني
٦٧ - نزهة المشتاق للإدريسي
٦٨ - حى بن يقظان لابن طفيل
٦٩ - كتاب الاعتبار لابن منقذ
٧٠ - فصل المقال لابن رشد
٧١ - تهافت التهافت لابن رشد
٧٢ - المنتظم لابن الجوزي
٧٣ - رحلة ابن جبير

٧٤ - معجم البلدان لياقوت
٧٥ - معجم الأدباء لياقوت
٧٦ - الكامل فى التاريخ لابن الأثير
٧٧ - الفتوحات المكية لابن عربي
٧٨ - مقدمة ابن الصلاح
٧٩ - شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
٨٠ - طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة
٨١ - تفسير القرطبي
٨٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان
٨٣ - تنقيح الأبحاث لابن كمّونة
٨٤ - شـرح تشـريح القـانون لابـن النَّفيس
٨٥ - الحكم العطائية لابن عطاء الله
٨٦ - لسان العرب لابن منظور
٨٧ - جامع الرسائل لابن تيمية
٨٨ - نهاية الأرب للنُّويري
٨٩ - رحلة ابن بطوطة
٩٠ - الإحاطة لابن الخطيب
٩١ - مقدمة ابن خلدون
٩٢ - صبح الأعشى للقلقشندي
٩٣ - السلوك للمقريزي
٩٤ - الخطط المقريزية
٩٥ - بدائع السِّلك لابن الأزرق
٩٦ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي
٩٧ - المُزْهِر للسيوطي
٩٨ - نفح الطيب للمقّرى التلمساني
٩٩ - ألف ليلة وليلة
١٠٠ - عجائب الآثار للجبرتي

* * *

- ٥ -

أشهر مترجم فى التاريخ

حُنَيْن بن إسحاق

هو أشهر وأعظم مترجم عرفه التاريخ ، وأبرز من أسهمت ترجماته فى إثراء الحضارة الإنسانية . لا لأنه ترجم مائتين وستين كتابًا فى الطب والفلسفة والرياضة ، وإنّما لكونه أهمّ مَن نقل علوم الإغريق إلى العربية ؛ ولأن ترجمته الدقيقة الواضحة الفذّة لكتب بقراط وجالينوس فى الطب كان لها الفضل فى أن يصبح الأطباء العرب فى العصر الوسيط خير وريث لطبّ اليونان ، وذوى أعمق تأثير فى الطب الأوروبى حتى القرن الثامن عشر ؛ ولأنه أرسى دعائم صنعة الترجمة ووضع الشروط اللازم توافرها فى النقل السليم عن اللغات الأجنبية ، بحيث يمكن القول بأن أسلوب تعامله مع اللغة فى ترجماته لا يختلف فى قليل أو كثير عن الأسلوب المتّبع فى العصر الحديث ؛ ولأنه أشار إلى طُرق التحقّق من صحة أو زيف نسبة الكتب إلى من زُعم أنهم مؤلفوها ؛ ولأنه اعتمد فى ترجمته للعهد القديم من الكتاب المقدس إلى العربية على أصول يونانية هى أقدم بعدّة قرون من تلك التى كانت فى حوزة الأوروبيين ، فساعدت ترجمتُه تلك مترجمى العهد القديم فى أوروبا على التثبّت من النصّ وتصحيح الترجمات المتداولة لذلك الكتاب على ضوئها ؛ ولأن بعض ما ترجمه إلى العربية والسِّريانية من كتب الإغريق قد ضاعت أصوله اليونانية ، فأصبح اعتماد الأوروبيين اعتمادًا كليًا على ترجمات حُنَين لهذه الكتب فى نقلهم إيّاها إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية الحديثة ؛ ثم لأن أسلوب حياته ، وسموّ أخلاقه ، وجهده الدءوب فى الإنتاج والعمل ، وحرصه الدائم على الارتقاء بمستوى اللغات التى درسها ، والمؤلفات التى وضعها ، والترجمات التى اضطلع بها هو وابنه إسحاق وابن أخته وسائر تلامذته ، هى خير ما يمكن للمؤلفين والمترجمين وسائر الناس أن يقتدوا به .

نشأته :

ولد حُنَيْن بن إسحاق العِبادى (بكسر العين وتخفيف الباء) عام ٨٠٨م (١٩٢هـ) قبل عام واحد من وفاة هارون الرشيد . وكان مولده بمدينة الحيرة فى العراق ، وهى مدينة عريقة القدم (بُنيت قرب بابل فى القرن السادس قبل الميلاد) ، وتقع جنوبى بغداد ، لا يفصلها عن الكوفة غير مساحة صحراوية ضيّقة . وكثيرًا ما ورد ذكر الحيرة فى قصائد الشعراء وكتب المؤرخين العرب . فقد كانت مدينة غنية، ومركزًا تجاريًا هامًا ، وعاصمة للأمراء اللَّخْميين الموالين للفُرس ، كما كانت قبيل ظهور الإسلام بؤرة سياسية للمناطق الواقعة غربى وجنوبى نهر الفرات ، ومقرًّا لأسقف النساطرة الذى كان يُلقّب بأسقف العرب .

فأما أهلها فمسيحيون على مذهب فرقة النساطرة ، ظلوا بعد ظهور الإسلام وانتشاره مخلصين لعقيدتهم وكنيستهم ، رافضين الدخول فى الدين الجديد ، غالبيتهم من قبائل تنوخ ، وطيئ ، وتغلب، وعدد من القبائل الصغيرة الأخرى .. وبفضل بَذَخ الأمراء اللَّخميّين ، واهتمام رجال الكنيسة النسطورية بنشر التعليم اشتهر أهل الحيرة عند العرب بأنهم أهل شعر وعلم وفنون وصنائع . كما كان سكانها المسيحيون أقدم مجتمع مسيحى عربى خالص ، يُلَقَّبون بالعِباد ، ومنها نسبة العِبادى فى اسم حُنين . ورغم اختلاف الانتماء القَبَلى لهؤلاء السكان ، فقد اختفت بينهم بمرور الزمن النزاعات والعداوات ، وأضحوا (عكس القبائل العربية الأخرى) جماعةً متماسكة مترابطة بفضل المذهب الدينى المشترك الذى حلّ لديهم محلّ مشاعر العصبية القبلية التقليدية .. كذلك اشتهر أهل الحيرة بالتجارة، وكان تجّارها - ومنهم من كان يمتلك بها دورًا وقصورًا فاخرة - كثيرى السفر ، حسنى السمعة بين كافة العرب ، بل وكان العرب يرونهم خير وسيط بين المدن وبين عالم الصحراء . وقد وَسَّعت كثرة الرحلات والصلات من مدارك أهل الحيرة وآفاقهم العقلية ، ورفعت من مستوى الثقافة فيها .

فأما عن لغتهم فقد كانوا يستخدمون العربية فى الحديث ، والسريانية فى الكتابة. وكانت السريانية هى اللغة التى يتلقى بها التلاميذ تعليمهم فى المدارس التى ترعاها

الكنائس والأديرة . ومع ذلك فقد كان للصفوة فى الحيرة فضل تدوين أقدم تراث أدبى باللغة العربية ، ولشعرائها فضل نظم القصائد شديدة الاختلاف فى معانيها وأغراضها عن الشعر البدوى ، وكان أبرزهم الشاعر الجاهلى عدى بن زيد .

كان والد حُنين صيدليًا ميسورًا عُنى بأن يُتقن ولدُه اللغتين العربية والسريانية فى صباه إتقانًا تامًا ، ثم أضاف إليهما حنين فى شبابه لغتين أخريين ، هما اليونانية والفارسية . ويلاحظ أن حُنينًا ، بعدما استقر به المقام فى بغداد واشتغل بالترجمة ، كانت ترجماته من اليونانية إلى السريانية أكثر منها إلى العربية . وذلك لسببين: الأول، أن عنايته اتّجهت فى المقام الأول إلى ترجمة المؤلفات الإغريقية فى الطب والفلك والرياضة ، فوجد أن اللغة العربية فى زمنه فقيرة إلى المصطلحات العلمية المتعارف عليها ، واللازمة لترجمة مثل تلك الكتب ، وأن السريانية والفارسية ، ناهيك عن اليونانية ، أغنى من العربية بكثير بتلك المصطلحات . وقد كان سبيل حنين وتلامذته إلى الخروج من هذا المأزق فيما بعد هو أن يتجنّبوا قدر الإمكان حرفية ترجمة المصطلحات ، وبذل الجهد من أجل صياغة مصطلحات علمية جديدة باللغة العربية .

وأما السبب الثانى فهو أن حنينًا كان يهتدى فى نشاطه برغبات المتعاملين معه ، وكان المسيحيون النساطرة فى ذلك العصر أحرص الناس على ترجمة التراث اليونانى إلى السريانية ، لغة كنيستهم ، وذلك لدواع لابدّ من ذكرها فيما يلى :

فالمعروف أن النساطرة هم أتباع نسطور الذى نُصب بطريقًا فى القسطنطينية عام ٤٢٨م ، ثم أُطيح به فى مجمع إفسوس عام ٤٣١ بسبب الخلاف الذى دبّ بين المسيحيين حول طبيعة المسيح ، فطُرد من حظيرة الكنيسة وحُكم عليه بالنفى . وقد كان أن اتّجه مناصروه شرقًا ، خاصة إلى فارس المعادية للروم ، ثم أضحت النسطورية المذهب الرسمى للكنيسة فى الإمبراطورية الفارسية ، كما انتشرت فى المناطق الشمالية للشام والعراق وشرقى تركيا ، ثم بين القبائل العربية حتى اليمن وحضرموت ، ففى الهند والصين ، حتى باتت كنيستها أعظم الكنائس الشرقية نفوذًا ، وحتى اعترف الخلفاء العباسيون ببطريقها رئيسًا لكافة نصارى المشرق على اختلاف مذاهبهم .

وقد حرص علماء النساطرة ورجال الدين منهم منذ البداية على أن يكون لمذهبهم لاهوت وفلسفة مختلفان أشد الاختلاف عن لاهوت الكنيسة البيزنطية وفلسفتها . فكان أن أقبلوا إقبالاً عظيمًا على ترجمة كتب أرسطو وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة إلى السريانية ، ونسخها والتعليق عليها وتفسيرها ، ونشرها بين المؤمنين على نطاق واسع ، حتى تصبح مادتها من المنطق والميتافيزيقا أساسًا للاهوت كنيستهم . ثم كان أن اتسع بعد ذلك نطاق اهتماماتهم حتى شمل إلى جانب المنطق والميتافيزيقا مختلف علوم الإغريق ، خاصة الطب . ومن حسن حظّهم أن وافق نشاطُهم هذا فى ذروته بدءَ اهتمام خلفاء العصر العباسى الأول بتنشيط الحركة الثقافية فى دولتهم ، وإقدامهم على تكليف من يثقون فى كفاءتهم بنقل علوم اليونان إلى العربية ، وتأسيس « بيت الحكمة » فى بغداد عام ٧٣٢ ليكون البؤرة الرئيسية لذلك النشاط الذى ظل علماءُ المسيحيين النساطرة على مدى أربعة قرون أبرز القائمين عليه .

مع يوحنا بن ماسَوَيه

كان حُنين بن إسحاق فى الرابعة والعشرين وقت تأسيس الخليفة المأمون لبيت الحكمة . وكان قد سعى قبل ذلك إلى إتقان قواعد اللغة العربية التى قيل إنه قصد البصرة لدراستها ، جالبًا منها معه كتاب العَيْن للخليل بن أحمد . أما ما زعمه ابن جُلْجُل وآخرون من أن حنينًا التقى بالخليل ، فزعم غير مقبول على ضوء تاريخَى ميلاد ووفاة كلٌ من الخليل وحنين . وعلى أيّة حال فقد شهد كلّ من كتبوا سيرة حنين من المؤلفين العرب القدماء أنه ترك البصرة إلى بغداد « فصيحًا لَسِنًا ينظم الشعر بالعربية » .

فأما عن كيف أتقن حُنين اليونانية ذلك الإتقان المذهل ، فيذكره شاهد عيان هو يوسف بن إبراهيم فى رواية جديرة بالتصديق . فهو يروى أن حنينًا بدأ دراسة الطب فى بغداد على يد يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ - ٨٥٧م) الذى ترجم بعض كتب الطب اليونانية لهارون الرشيد ، ثم كان بعد ذلك طبيبًا خاصًا لكل من المأمون والمعتصم ، ومديرًا لبيت الحكمة ، ولأهم مدرسة ببغداد لتعليم صناعة الطب .. ورغم أنه كان أيضًا

من المسيحيين النساطرة ، فقد ضاق بعد مدة بحُنين لكثرة أسئلته العويصة أثناء الدرس مما كان ابن ماسويه يعجز عن الإجابة عنه ، كما كان يستنكر أن يدخل فى صناعة الطب أبناء التجارة من أمثال حنين . وكثيرًا ما كان يعبّر عن غيظه بقوله له : « ما لأهل الحيرة وأبناء التّجار والطبّ ! اقعد على الطريق مع بضاعة تبيعها فإن ذلك أنفع لك من صناعتنا ! » . وقد وصل الأمر فى النهاية إلى حدّ فصله إيّاه ، فخرج حُنين من مدرسته باكيًا مكروبًا .. وهنا اختفى حُنين عن العاصمة لعدة سنوات ، تذكر المصادر أنه أقام خلالها بالإسكندرية بمصر ، ثم فى عدد من مدن الدولة البيزنطية . فلما عاد بعد ذلك إلى بغداد كان قد أتقن اللغة اليونانية تمامًا ، لدرجة أنه كان يحفظ بها أجزاء طويلة من ملحمتَى هوميروس ، بالإضافة إلى ما اقتناه من مخطوطات يونانية فى كل من مصر والشام وفلسطين .

يقول يوسف بن إبراهيم : « دخلتُ يومًا فى زمن المأمون على الطبيب جبرائيل بن بختيشوع ، فوجدتُ عنده حُنينًا ، وقد ترجم له أقسامًا من كتابٍ لجالينوس فى التشريح ، وجبرائيل يخاطبه بالتَّبجيل ويناديه بربَّن حنين (ربَّن أى المعلّم) . وإذ تبيّن جبرائيل فى وجهى الدهشة لهذا التبجيل ، قال لى : لا تستكثرنّ ما ترى من تبجيلى هذا الفتى . فوالله لئن امتدّ به العمر ليفضحنّ غيره من المترجمين .. فلما خرجتُ إذا بحنين فى انتظارى بالباب ، فناولنى نسخة مما ترجم وقال : ادفع بهذه النسخة إلى يوحنا بن ماسويه ولا تُخبره بمن ترجمها .. ففعلتُ ذلك من يومى . فلما قرأ ابن ماسويه تلك الفصول كَثُر تعجُّبه وقال : أتُرى المسيح أوْحى فى دهرنا هذا إلى أحد ؟! قلت : ما أوحى إلى أحد ، ولا كان المسيح إلاّ أحد مَنْ يُوحَى إليهم . فقال : دعنى من هذا القول ! ليس هذا إلا إخراجٌ مؤيَّد بروح القدس . قلت : هذا إخراج حنين بن إسحاق الذى طردتَه من مجلسك وأمرته أن يقعد على الطريق ببضاعة يبيعها ! فحلف ابن ماسويه أن ما قلتُ له محال ، ثم صدّق القول بعد ذلك ، واستقبل حنينًا فاعتذر وأحسن إليه ، وأعاده إلى مدرسته ، ولم يزل مبجَّلاً له بعد ذلك » .

نشاطه فى ميدانى الترجمة والتأليف

عكف حنين، إلى جانب دراسة الطب، على الترجمة لابن ماسويه فترجم له كتبًا كثيرة، خاصة من مؤلفات جالينوس، بعضها إلى السريانية وبعضها إلى العربية. ثم كان أن سمع به الخليفة المأمون، فاستدعاه مكلّفًا إياه بأن ينقل كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية، وبذل له من الأموال والعطايا شيئًا كثيرًا. وكان المأمون قد طلب من الإمبراطور البيزنطى أن يوافيه بمجموعة ضخمة من الكتب القديمة المخزونة فى بلاده، فأجابه إلى طلبه بعد تردّد. فلما وصلت الكتب أَمَرَ المأمون حنينًا بأن يترجم ما يقدر عليه منها، وأن يصحّح ما ينقله غيره. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما يترجمه من الكتب.. كما كانت ثمة وقتها جماعة من ثلاثة إخوة، هم بنو موسى بن شاكر، تشرف على حركة مستقلة للترجمة وجَلْب المخطوطات من آسيا الصغرى إلى بغداد، وتخصّص للمترجم خمسمائة دينار فى الشهر الواحد مقابل عمله. وكان من بين المترجمين لهم حنين بن إسحاق. وقد ذكر حنين أن الجماعة كلّفته بالسفر إلى بلاد كثيرة، وأنه وصل إلى أقصى بلاد الروم فى طلب الكتب التى يهمّه ترجمتها.

لم يذكر أحد من الذين كتبوا سيرته أنه عمل ببيت الحكمة. ويبدو لنا أن نشاطه كله كان بمثابة مشروع خاص، يعمل فيه معه ولده إسحاق. وابن أخته حُبيش، وتلميذ له هو عيسى بن يحيى. وحيث أن حُبيشًا وعيسى لم يكونا على دراية كافية باليونانية، فقد كانا يعدّان ترجمات سريانية لما ينقله حنين من اليونانية إلى العربية، أو ترجمات عربية لما ينقله إلى السريانية، ثم يراجع حُنين أو ابنه إسحاق ترجماتهما على الأصول اليونانية ويصحّحانها.

نهض حنين وصحبه بترجمة عدد هائل من الكتب فى عهود تسعة من الخلفاء العباسيين (من المأمون إلى المعتمد). وقد كان من أهم ما ترجمه حنين - كما ذكرنا - العهد القديم من الكتاب المقدس، وهى ترجمة وصفها المسعودى فى كتابه « التنبيه والإشراف » بأنها «أصحّ نسخ التوراة عند كثير من الناس». وبين أيدينا رسالة كتبها حنين بعنوان «رسالة إلى على بن يحيى فى ذكر ما تُرجم من كتب جالينوس وبعض ما لم

يُترجم» ، ذكر فيها الترجمات المختلفة لمؤلفات جالينوس التى كانت معروفة فى زمنه . وقد أورد حنين قائمة بعناوين مائة وتسعة وعشرين كتابًا لجالينوس ، ترجم هو منها نحو مائة ، إما إلى السريانية أو العربية أو اللغتين معًا . فإن كان أبو بكر الرازى ألّف فيما بعد رسالة بعنوان «فى استدراك ما بقى من كتب جالينوس ممّا لم يذكره حُنين ولا جالينوس فى فِهْرِسْته» ، فإنه يجدر بنا أن نذكر أن حُنينًا كتب رسالته بعد أن صادر الخليفة المتوكل مكتبته (كما سيجئ) ، وهو ما ذكره فى الرسالة .. وقد عبّر حنين عن اعتقاده أن عددًا من الكتابات المنسوبة إلى جالينوس ليست من تأليفه ، وإنما نُسبت إليه كَذِبًا . وهو اعتقاد تقرّه نتائج تحرّيات العلماء فى العصر الحديث .

أورد حنين فى رسالته عددًا من الملاحظات حول منهجه فى الترجمة . فقد كان من دأبه أن يجمع كل ما يستطيع جمعه من مخطوطات يونانية للكتاب الواحد ، ويقارن بينها من أجل الوصول إلى نصّ كامل موثوق به قبل أن يشرع فى ترجمته . غير أن ثمة مأخذًا واحدًا يمكن للبعض أن يأخذه عليه ، وهو أنه - شأنه فى ذلك شأن المترجمين المسيحيين فى عصره - كان يرى من واجبه استئصال كل أثر للوثنية من كتب الإغريق ، كما فى حالة استعاضته عن ذكر آلهة الوثنيين بذكر الله أو الملائكة . غير أن هذا الحذف لم ينتقص من القيمة العلمية لترجماته .

غير أن نشاط حنين لم يقتصر على الترجمة . فقد نهض بتأليف مائة وخمسة عشر كتابًا ، خاصة فى الطب ، وأيضًا فى الفلسفة ، وعلم طبيعة الأرض ، والظواهر الجوية ، وعلوم الحيوان واللغة والدين . كذلك فإن له كتابًا فى تاريخ العالم من آدم إلى عصر المتوكل . أما كتبه فى الطب فكثير منها فى صورة أسئلة وأجوبة ، وأهمها كتاب «المسائل فى الطب» الذى تُرجم فيما بعد إلى العبرية واللاتينية . كما أن ثمة ترجمتين إلى اللاتينية لكتابه « العشر مقالات فى العين » . وله أيضًا «فى الضوء وحقيقته» ، و«نوادر الفلاسفة » الذى يحوى مجموعة من القصص والرسائل والأقوال الحكيمة المنسوبة إلى فلاسفة الإغريق ، مع تعليق حنين عليها ، وكتاب « فى كيفية إدراك حقيقة الديانة » ، ويتضمّن ردودًا ذكيّة حذرة على فقهاء المسلمين .

عاداته وأخلاقه

كان شديد الورع والتمسك بتعاليم دينه ، يلبس زنّاره فى كافة المجالس التى يحضرها . ويقول ابن أبى أُصَيْبِعَة فى كتابه «طبقات الأطباء» إن حنينًا كان إذا فرغ من عمله اليومى « عاد إلى داره ، فدخل الحمام فيُصبّ الماء عليه ، حتى إذا ما انتهى من الاستحمام التفّ برداءٍ من قطيفة ، وقد أُعدّ له وعاء من فضّة فيه رطل شراب يشربه مع كعكة مفتوتة . ثم يقوم فيتبخّر ، ويُقدَّم له طعامه ، وهو فروج كبير ورغيف ومَرَق ، ويشرب شرابًا عتيقًا . ولم يذق غير هذا طول عمره . فإن اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامى والرمّان والسفرجل » .

وكان لطيف المعشر والشمائل ، دمث الخلق .. يقول عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع فى كتابه « مناقب الأطباء » إن حنينًا لمّا قوى أمره وانتشر ذكره بين الأطباء ، أمر الخليفة بإحضاره ، (لم يذكر عبيد الله ولا غيره ممّن أوردوا هذه القصة فى حديثهم عن حنين اسم هذا الخليفة) . ودفع إليه خمسين ألف درهم ، فشكره حنين . قال الخليفة : أريدك أن تصف لى دواءً يقتل عدوًّا نريد قتله سرًّا . فقال حنين : يا أمير المؤمنين ، لم أتعلّم إلا صناعة الأدوية النافعة ، وما ظننتُ أن أمير المؤمنين سيطلب منى غيرها . فأمر الخليفة بحبسه ، فمكث فى الحبس مدّة يترجم ويفسر ويصنّف ، وهو غير مكترث بما هو فيه . فلما مرّت المدّة استدعاه الخليفة وقال : لابدّ مما قلتُه لك . فإن أنت فعلتَ فقد فُزت بهذا المال أمامك ، وإن امتنعت قتلتُك شرّ قتلة . قال حنين : قد قلتُ لأمير المؤمنين إنى لا أحسن إلا الشيء النافع ، ولم أتعلّم غيره . فإن اختار أميرُ المؤمنين أن يظلم نفسه فليقتلْنى » . قال الخليفة : ما يمنعك ؟ أجاب حنين : الدّين وصناعة الطب ؛ الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا ، فكيف مع غير أعدائنا؟ وصناعة الطب تمنعنا من الإضرار بالناس لأن الغرض منها نفعهم . وفى رقاب الأطباء عهدٌ مؤكّد بأيمان مغلّظة ألا يعطوا دواء قتّالاً ولا ما يؤذى . فأمر الخليفة بالخلع فخلعت عليه ، وخرج حنين من عنده وهو أحسن الناس حالاً وجاهًا .

محنته فى عهد المتوكل

وسواء صحّت هذه القصة أم لم تصحّ فإنه من المؤكد أن حنينًا عانى الأمرّين من نزوات الخليفة المتوكل الذى كان كبيرًا لأطبائه ، وأنه وقع فى عهده ضحية دسيسة حاكها له زملاء مسيحيون ، إمّا حسدًا منهم له ، أو لرفضه عبادة الأيقونات والتماثيل الدينية .. وقد ألّف حنين فى أواخر أيامه « رسالة فيما أصابنى من المحن والشدائد من الذين ناصبونى العداوة من أشرار أطباء زمانى المشهورين » ، جاء فيها :

« لحقنى من أعدائى الجاحدين لحقّى ، الظالمين لى ، من المحن والمصائب ما منعنى من النوم ، وأشغلنى عن مهمّاتى . وكلّ ذلك من الحسد لى على علمى ، وما وهبه الله لى من علو المرتبة على أهل زمانى . وأكثر هؤلاء هم ممن علّمتُهم وأحسنتُ إليهم : كافئونى عوض المحاسن مساوئ بحسب ما أوجبتْه طباعُهم ، حتى ساءت بى الظنون ، وحتى كان يُحصى على ألفاظى ويكثر اتهامى ، وحتى أوقعوا بُغْضى فى نفوس سائر أهل الملل ، فضلاً عن أهل مذهبىَ ، وحتى آلت القضية إلى أن بقيتُ محبوسًا مدة من الزمان ، لا تصل يدى إلى شيء من ذهب ولا فضة ولا كتاب ولا ورقة أنظر فيها .

« وكيف لا أُبْغَض ويكثر حاسديّ، ويكثر ثلبى فى مجالس ذوى المراتب ، وتُبذل الأموال من أجل قَتْلى ، ويعزّ من شتمنى ، ويُهان مَن أكرمنى ، وهم الذين رأونى فوقهم، عاليًا عليهم بالعلم والعمل ، أنقل إليهم العلوم الفاخرة من لغات لا يُحسنونها ولا يعرفون شيئًا منها ، فى عبارة حسنة فصيحة ، لا استغلاق فيها ولا لحن . يسمعها من ليس صناعته الطب ، ولا دراية له بالفلسفة ، فيستحسنها ويعرف قدرها ، ويفضّل نقلى على نقل من قبلى . فإن كان سائر أهل الأدب ، وإن اختلفتْ مللُهم ، محبّين مكرمين لى ، فإن هؤلاء الأطباء النصارى يرومون سفك دمى . فمرة يقولون : من هو حنين ؟ إنما حنين ناقل لهذه الكتب ليأخذ على نقله الأجرة ، كما يأخذ الصنّاع الأجرة على صناعتهم ، ولا فرق عندنا بينه وبينهم .. ثم ما له والكلام فى صناعة الطبّ ، وما حرصه هذا على

أن يقال عنه حنين الطبيب ، لا حنين الناقل ؟ الأجود له لو أنه لزم صناعته وأمسك عن ذكر صناعتنا ! فكنتُ كلما سمعت شيئًا من هذا ضاق به صدرى ، وهممتُ أن أقتل نفسى من الغيظ . لكنى كنت أكتمه فى صدرى ، علمًا منى بأن الحسد هو دافعهم ، ولم يزل الحسد بن الناس قائمًا منذ قتل قابيل أخاه هابيل ، لأن الله لم يقبل قُربانه وقَبل قربان أخيه .

« ومن العجب أن أكثر هؤلاء إذا دَهَمهم مرض صعب قصدونى وطلبوا منى صفة الدواء ! .. ومع ذلك فإنى لا أشكو منهم إلى أحد . فإن قيل لى إنهم يسبّونك وينتقصون منك فى مجالسهم ، أنفى ذلك وأُظهر أنى غير مصدّق لما يقال لى ، لأنى وهؤلاء تجمعنا ديانة واحدة ، وبلدة واحدة ، وصناعة واحدة » .

ثم يمضى حنين بن إسحاق فى رسالته فيروى « قصة المحنة الأخيرة القريبة » . وخلاصتها أن طبيبًا نصرانيًا للمتوكّل حمل إلى الخليفة أيقونة بصورة مريم وفى حجرها المسيح الطفل وحولهما الملائكة . فأُعجب المتوكل بها ، بينما أقبل الطبيب على الأيقونة يقبّلها مرات عديدة فى خشوع . سأله المتوكل : لِمَ تقبّلها ؟ فقال : يا مولانا ، إذا لم أقبّل صورة سيّدة العالمين فمن أقبّل ؟ قال الخليفة : أكُلُّ النصارى يفعلون هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إلا رجل زنديق فى خدمتك ، يكذّب بالرسل ، هو حنين بن إسحاق . فأمر الخليفة بإحضار حنين . فلما دخل رأى الأيقونة بين يديه . قال له المتوكل : ما تقول فيها ؟ فأجاب : صورة جميلة . قال : أليس هذا ربّكم وأمّه ؟ فقال حنين : معاذ الله يا أمير المؤمنين ، وهل لله صورة أو يمكن تصويره ؟! ما هذه إلا صورة كغيرها مما نجده فى سائر المواضع . قال الخليفة : فهى لا تنفع ولا تضرّ ؟ أجاب حنين : لا تنفع ولا تضرّ . قال المتوكل : فيجوز للناس إذن أن يطأوها بأقدامهم وأن يبصقوا عليها ؟ قال : نعم . عندئذ صرخ الطبيب النصرانى قائلاً : يبصقون على مريم أمّ سيّدنا ، وعلى سيّدنا المسيح ؟!! لو قال هذا الكلام مسلم لم أَلُمْه لأنه لا يعرف مقدار الصورة . غير أن حُنينًا

هذا نصرانى جاهل وزنديق ، لو أراحنا أميرُ المؤمنين منه لأراح الدنيا وكشف عن الدين محنة عظيمة . قال المتوكّل : فما يسرّ النصارى أن أفعل به ؟ قال الطبيب : تُريح العالم منه . فأمر الخليفة بإحضار السوط والحبال ، فجُرِّد حنين من ملابسه وضُرب مائة سوط ، ثم أمر بحبسه والتضييق عليه ، وبمصادرة ما فى داره من أثاث وكتب وأموال .. يقول حنين :

« فأقمتُ معتقلاً فى قصره ستة أشهر فى أسوء ما يكون من الحال ، حتى صرتُ رحمةً لمن رآنى . وكان يوجّه إلىّ كل بضعة أيام مَن يضربنى ويجدّد لى العذاب . فلم أزل على ما ذكرتُه حتى مرض أمير المؤمنين مرضًا خطيرًا أقعده عن الحركة ، فيئس الأطباء منه ، ويئس هو أيضًا من نفسه . ثم إذا بخادم للخليفة يأتينى يومًا فى سجنى فيمضى بى إلى الحمام ، ويأمر بغسلى وتنظيفى ، ثم ألبسنى ثيابًا فاخرة وأدخلنى على الخليفة وهو راقد فى سريره . فلما رآنى قال : أشِرْ على بما ترى فقد طالت علّتى . فأشرتُ عليه بأدوية زالت علّته بتناوله إياها . فلما صلُح حالُه استدعانى وقال لى : أبشر يا حنين بكل ما تحب . فقد عظمت مرتبتُك عندى ، وسأعوّضك أضعاف ما كان لك ، وأرفعك على سائر أهل صناعتك . ثم إنه أمر بأن يُحمَل إلى دارى ما كنت محتاجًا إليه من الأوانى والفرش ، وردّ على كتبى ، وأمر لى فى كل شهر بخمسة عشر ألف درهم ، وأطلق لى الفائت من رزقى فى وقت حبسى ، وصرتُ المقدَّم على سائر الأطباء عنده » .

ثم يختم حنين رسالته بقوله :

« وكان أعدائى الذين أوقعوا بى يأتوننى بعد ذلك فى دارى إن كانت لهم حاجة عند أمير المؤمنين ، أو يستشيروننى فى أمراض ألمّت بهم وحاروا فيها ، فكنت أسارع فى قضاء حوائجهم ، وأخلص لهم المودّة ، ولم أكافئهم على شيء مما صنعوه بى ، فكان الناس يعجبون لما يرون منى .. وإنما ذكرتُ سائر ما تقدّم ذكرُه ليعلم العاقل أن المحن قد تنزل بالعاقل والجاهل ، والقوى والضعيف ، والكبير والصغير ، فما سبيل العاقل

أن ييأس مِن تفضّل الله عليه بالخلاص مما ابتلى به ، بل أن يثق بخالقه ، ويزيد في تعظيمه وتمجيده ... فالحمد لله حمدًا دائمًا إذ مَنَّ على بتجديد الحياة ، وأظهرنى على الظالمين لى » .

وقد ظل حنين بن إسحاق فى منصب كبير الأطباء للخلفاء الخمسة الذين حكموا بعد المتوكل، إلى أن توفى عام ٨٧٣ (٢٦٠هـ) فى خلافة المعتمد عن خمسة وستين عامًا . وكان ابنه إسحاق من بعده خير خلف لخير سلف .

* * *

- ٦ -

بعض مشكلات ترجمة شكسبير إلى العربية

يمكنني الآن - بعد انتهائى من ترجمة أربع من مسرحيات شكسبير إلى العربية (يوليوس قيصر - مكبث - حلم ليلة فى منتصف الصيف - تاجر البندقية) ، أن أتحدّث عن بعض المشكلات التى لابدّ أنها تواجه كل من وجد فى نفسه الجرأة على الإقدام على هذا العمل ، خاصة وقد راجعت قبل شروعى فى الترجمة ، ترجمات الكثيرين ممّن سبقونى فى هذا المضمار ، كمطران وجبرا وباكثير وعبد القادر القط ولويس عوض ومحمد عوض محمد وعزيز أباظة ومحمد عنانى وفاطمة موسى إلى آخره ، لأدرس مواطن القوة والضعف فيما قدّموه .

أولى هذه المشكلات بكل تأكيد تتعلّق بروعة لغته وشعره التى هى من المقوّمات الرئيسية لعظمته ، والتى يضيع جلّ تأثيرها فى الترجمة . وقد رُوِى عن المخرج البريطانى الشهير بيتر بروك أنه حين زار باريس منذ بضع سنوات لحضور حفل افتتاح مسرحية « ملهاة الأخطاء » ، وسأله أحد الصحفيين عن انطباعه إذ يشاهد عملاً لشكسبير مترجمًا إلى الفرنسية ، أجاب بروك بقوله : هو كشعورى حين أدلف إلى أحد المستشفيات لعيادة صديق حميم لى مصاب بالسرطان ، فلا أكاد أتعرّف عليه بسبب ما أصاب جسمه من نحول ، ووجهه من هزال ، وملامحه من تغيير ! » .

فالواقع الذى لا مراء فيه هو أن خير ترجمة لشكسبير تفقد أكثر من ثلاثة أرباع روعة الأصل ، ما لم ينهض بها شاعر عظيم ، مثل بوريس باسترناك مترجم كل مسرحيات شكسبير إلى الروسية ، وأوْجوسْت فيلهلم فون شليجيل مترجم سبع عشرة مسرحية له إلى الألمانية ، وعزيز أباظة مترجم «يوليوس قيصر» إلى العربية . ولا أذكر هنا خليل مطران الذى كان يترجم عن الفرنسية ، والذى كان كثيرًا ما يتصرّف فيبتعد عن الأصل ابتعادًا لا مبرّر له .. ولهذا يمكننا القول بكل ثقة إنه ما من شخص قادر على

قراءة أعمال شكسبير فى أصلها الإنجليزى تُقرّه على انصرافه عن الأصل إلى الترجمة من قبيل الاستسهال .

المشكلة الثانية هى فى كثرة استخدام شكسبير للتورية والجناس، وولعه المفرط - بل والمعيب - بهما . وهو ما لابدّ معه من البحث المضنى عن مقابل لهما فى اللغة التى يُترجم النصُّ إليها ، مع ما يعنيه ذلك من التضحية بالدقة والحرفية التامّتين من أجل الحفاظ على روح النص وقصد المؤلف . ومن أمثلة ما صادفتُه فى هذا الصدد أثناء ترجمتى لمسرحية « يوليوس قيصر » تكرّر استخدام الإسكافى للتورية والجناس فى حديثه مع فلافيوس ومارولوس فى المشهد الأول من الفصل الأول . من ذلك :

Cobbler: Nay, I beseech you, sir, be not out with me: yet, if you be out, I can mend you.

Marullus: What meanest thou by that? Mend me, thou saucy fellow?

Cobbler: Why, sir, cobble you.

Flavius: Thou art a cobbler, art thou?

وهو ما اضطررت إلى ترجمته على النحو التالى :

الإسكافى : أناشدك يا سيدى ألاّ تخرج عن طورك معى . ومع ذلك فإنك إن خرجت يا سيدى فبوسعى إدخالك وإصلاحك .

ماورلوس : ماذا تعنى بقولك هذا ؟ تُصلحنى أيها الوقح ؟

الإسكافى : نعم ، فأنا إسكافٌ فى هذه الأمور .

فلافيوس : أنت إسكافى إذن ، أليس كذلك ؟

(وذلك بعد أن راجعت مادة « إسكاف » فى « لسان العرب » فوجدت أنه الحاذق فى أى أمر من الأمور) .

المشكلة الثالثة : هى أنه فى حين يرى قارئ مسرحيات شكسبير عقبة فى كثرة ما يجهله من كلمات مستخدمة فيها قد اندثرت الآن أو كادت (مثل : wot بمعنى يَعْلَم ، أو firk بمعنى يَضْرب) ، فإن مشكلة المترجم الحقيقية هى فى الكلمات التى يحسب أنه يفهمها بينما هى قد تغيّر معناها تغيّرًا كبيرًا أو جذريًا منذ استخدام شكسبير لها .

فكلمة policy عند شكسبير لا تعنى السياسة دائمًا ، وإنما قد تعنى الحيلة والدهاء واستخدام الأساليب الملتوية لتحقيق المطلوب ، تمامًا على نحو استخدام العامة عندنا لكلمة « بوليتيكا » . كذلك فإن كلمة «will» عند شكسبير كثيرًا جدًا ما تعنى الشهوة والرغبة الجنسية ، ولا صلة لها بالإرادة .

وتتعلق المشكلة الرابعة بما يرد أحيانًا فى المسرحيات من إشارات إلى أحداث أو شخصيات معاصرة قد تكون أو لا تكون معروفة لنا . فقد أفسد علينا لذّة مطالعة أو مشاهدة « خاب مَسْعَى العشاق » جهلُنا بالملابسات التى دفعت شكسبير إلى كتابتها ، وبالأشخاص الذين يومئ إليهم . ولابدّ للمترجم أن يبحث طويلاً حتى يورد فى هوامشه شروحًا لمثل إشارة شكسبير فى « تاجر البندقية » إلى سفينة تُدعى « أندرو » (وهى سفينة أسبانية ضخمة استولى عليها الإنجليز أثناء هجوم مفاجئ لهم على ميناء قادس عام ١٥٩٦ ، أى نفس العام التى كتب فيه شكسبير مسرحيته) . بل وثمة مشهد فى «مكبث» (هو المشهد الثالث من الفصل الرابع) لن يكون بوسع أى قارئ أن يستسيغه، أو حتى أن يفهمه، ما لم يشرح المترجم له إقبال شكسبير على تملّق الملك جيمس الأول فى أكثر من موضع فى « مكبث » ، حتى كان هذا التملّق نقطة ضعف حقيقية فى المسرحية (تمامًا كما فعل فى خاتمة « هنرى الثامن » سعيًا إلى تمجيد الملكة إليزابيث) .

وتتصل المشكلة الخامسة بمهمة الترجمة بوجه عام . . لقد كان من دأب الدكتور أ. ف. ريو E.V. Rieu (محرر سلسلة المؤلفات الكلاسيكية التى تصدرها دار بنجوين Penguin الإنجليزية للنشر) أن ينصح مترجمى هذه المؤلفات بقوله : «write English» . ومعنى هذا أنه من المهم جدًا فى الترجمة أن يبدو المؤلف وكأنّه ألّف كتابه فى الأصل باللغة التى يُترجَم إليها . وعلى هذا الأساس ذاته يقوم وصف المستشرق البريطانى سير هاملتون جيب لترجمة مصطفى لطفى المنفلوطى لعدد من روائع الأدب العالمى بأنها مثال يُحتَذى بفضل رصانة اللغة العربية فيها .

ومترجم شكسبير لابدّ أن يتوقّف طويلاً حتى يقرّر ما إذا كان المطلوب هو الترجمة ؛ وكأنما كتب شكسبير المسرحية أصلاً باللغة العربية ، فيستمتع بها القارئ أو

المشاهد العربى استمتاع القارئ أو المشاهد الإنجليزى بالأصل ، أم هو نقل النص إلى العربية فى حرفية صارمة حتى تتوفر لدى دارسى المسرحية (خاصة طلاّب المدارس والجامعات) ترجمة دقيقة أمينة لما كتبه شكسبير بالفعل .

وفى رأيى أن المترجم إنما يكشف عن مدى صلاحيته للنهوض بما تصدّى له على قدر نجاحه فى أن يشقّ طريقًا وسطًا بين الرأيين ، حتى لا يكون الالتزام بأحدهما على حساب الآخر .

* * *

- ٧ -

زنوبيا : أعظم ملكات التاريخ
بين إعجاب الرومان واستخفاف العرب

لا أحسب أني واجهتُ خلال قراءاتي التاريخية معضلةً أعصى على الحلّ من تلك الخاصة بزنوبيا ملكة تدمر ، والاختلاف العميق لا بين تقييم كلّ من الفرنجة والعرب لها فحسب ، بل وفي المعالم الرئيسية لقصّتها عند الطرفين .. وإنه لأمر يدعو إلى الدهشة حقًا أن نلمس من المؤرخين العرب مثل ذلك الاستخفاف المُشين بتلك الملكة العربية العظيمة ، وذلك الإجلال والتوقير لها من جانب أعدائها الرومان ممن حاربتهم وجاهدتهم لسنوات عديدة ، جهادًا دفع المؤرخ البريطاني الشهير إدوارد جيبون إلى القول في كتابه « تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » بأنه « رغم وفرة الملكات العظيمات في التاريخ الأوروبي ، قديمه وحديثه ، فإنه يقرّ بأن زنوبيا ملكة تدمر في القرن الثالث الميلادي ، ربما كانت أعظم ملكات التاريخ كله » .

وسأعرض في مقالي هذا معالم الاختلاف بين الروايتين ، ووجهتي النظر المتباينتين ، محاولاً من جانبي أن أقدّم في ختامه تفسيرًا شخصيًا لهذا التفاوت المزعج عسير الفهم ، وهو تفاوت دفع البعض إلى القول في يأس . بأن حديث الجانبين لابدّ أنه كان عن امرأتين مختلفتين !

في كتابات مؤرّخي الرومان

بعد الهزيمة النكراء التي أوقعها عام ٢٦٠م . ملك فارس سابور ابن أردشير ، المعروف بذي الأكتاف ، بالإمبراطور الروماني فاليريان قرب أسوار مدينة الرُّها ، ووقوع فاليريان نفسه في أسر الفرس (وهو الإمبراطور الروماني الوحيد الذي أسره أعداؤه) ، وحين كان الشرق بأسره يرتعد لذكر سابور ، تلقّى العاهل الفارسي في طريق

عودته إلى عاصمته هدية عظيمة تليق بأعظم ملوك الأرض ، هى عبارة عن قافلة من الإبل تحمل من التحف أندرها ، ومن السلع أفخرها .. كانت الهدية من أُذَيْنَة أحد وجهاء تدمر وأكثرهم ثروة وبذخًا . ومع ذلك فقد ضايق سابور أن يُرفق أذينة مع هديته رسالة ، هى وإن كانت مهذّبة تنمّ عن احترام وتوقير ، خالية من كل ما يُوحى بالذلّ والاستكانة .. صاح سابور قائلاً : « ومَن أُذينة هذا حتى يتجرأ على الكتابة إلى سيّده؟! إن كان يطمع فى تخفيف عقوبته ، فليأت ليسجد أمام عتبة عرشنا ويداه موثقتان خلف ظهره . فإن أبَى أو تردّد صببنا نقمتنا على رأسه وبلدته ، ورءوس أبناء جلدته » . ثم أمر بالهدية أن تُلقى فى نهر الفرات.. وكان أن أثار ردُّه هذا غضب أُذينة وحميّته، وهرع إلى لقاء سابور ، لا ليسجد أمام عرشه ، وإنما ليتحرّش بجيشه ، بعد أن جمع فى جيشه الصغير رجالاً من قُرى الشام، وخيام الصحراء، تسبّبوا لجنود الفرس فى متاعب جمة، ومضايقات شديدة ، وسلبوهم بعض غنائمهم من الروم ، بل وعدّة من حريم الملك نفسه، حتى اضطر الملك إلى الإسراع بعبور الفرات وقد ساد صفوف قواته الاضطراب والفوضى، وحتى قيل إن هيبة روما وسمعتها اللتين عبث بهما الفرس، حماهما عرب تدمر ، وحتى وصف المؤرخان بروكوبيوس ومالالا أُذينة بأنه أمير العرب ..

فأما مدينة تدمر نفسها (وهى بالميرا فى الإغريقية واللاتينية) فتقع فى الشمال الشرقى من دمشق على بعد مائتى ميل من ساحل البحر المتوسط، وهو ما جعل منها نقطة اتصال ممتازة تمرّ بها القوافل التجارية بين العراق والشام . وتروى التوراة أن سليمان هو الذى بناها، كما يروى ابن الأثير فى « الكامل » أن الملكة بلقيس زارته فيها، وأنه دفنت هناك . وقد راجت تجارة تدمر رواجًا كبيرًا بانضمامها إلى الإمبراطورية الرومانية ، خاصة بعد أن صارت بضائع الهند تجتازها فى طريقها إلى أوروبا ، فعاش أهلها فى رغد وبذخ ، وامتلأت المدينة بالمعابد والقصور والأبنية على الطراز الإغريقى ذى المستوى الرفيع ، وبات سكانها يتطلّعون إلى توسيع رقعة بلادهم ، مغتنمين فرصة تواصل الحروب بين الفرس والرومان . وقد آثر أُذينة فى بادئ الأمر - كما ذكرنا - أن ينحاز إلى سابور بعد هزيمة الإمبراطور الرومانى . غير أن ازورار سابور عنه ،

وازدراءه له ، دفعاه إلى تغيير رأيه ، فشرع فى مهاجمة جيش الفرس ، ملحقًا بـه الهزيمة المنكرة تلو الأخرى .

تولّى جاليينوس عرش روما ، فبادر وسط تهليل الشعب وبمباركة مجلس الشيوخ إلى الاعتراف بجميل أذينة ، والإشادة بشجاعته وانتصاراته ، وإلى خلع لقب « أغسطس Augustus » عليه ، وإسناد حكم المشرق كله إليه . وما كان أذينة فى واقع الأمر فى حاجة إلى اعتراف من روما بولايته على الشرق . فهو مع ما ساد الدولة الرومانية وقتها من ضعف ، وأباطرتها من خمول الهمة ، كان يتمتع بالاستقلال ، أو ما يشبه الاستقلال عن روما ، بدليل أنه لم ير حاجة إلى موافقة مسبقة منها حين أوصى قبيل موته بأن يؤول عرشُه إلى أرملته ذائعة الصيت زينب ، المعروفة فى الغرب باسم زنوبيا ، وعند العرب باسم الزَّبّاء .

عرف العالم من قبل ومن بعد ملكاتٍ عديدات استطعن فى كفاءة فذّة أن ينهضن بأعباء الحكم ويحمين مجد بلادهن . غير أنه لم يعرف فى تاريخه مثيلاً فى النساء لعبقرية الزبّاء .. يقول تريبيليوس بوليو مؤرخ عهدَى أذينة وزنوبيا إنها كانت تزعم أن أمها من سلالة بطالمة مصر ، وأنها من نسل كليوباترا . فإن كانت تضاهى كليوباترا فى الحسن وسعة الثقافة والإلمام بعدة لغات ، فهى تفوقها فى البسالة والإقدام ، وتختلف عنها اختلافًا عظيمًا فيما يتّصل بالعفّة الجنسية ، حتى لقد قيل إنها ما كانت لتسمح لزوجها أذينة بأن يضاجعها إلا من أجل إنجاب أطفال ، فإن خابت توقّعاتها عادت فى الشهر التالى إلى خوض التجربة .

رآها الكافة أجمل وأشجع بنات جنسها . وهى سمراء البشرة ، ذات أسنان بيضاء كاللؤلؤ ، وصوت قوى شجيّ ، فى عينيها السوداوين الواسعتين بريق كبريق النار ، فى حين تفيض أخلاقها رقة ودماثة تحبّبانها إلى قلوب الرعية . وأما عقلها فكعقل أحكم الرجال ، قد هذّبته وصقلته بالدراسة والقراءة والبحث ؛ فهى تجيد اللغات العربية واللاتينية واليونانية والسريانية والمصرية ، قد أعدّت بنفسها ولنفسها مختصرًا لتاريخ شعوب الشرق . وكان أستاذها ومستشارها هو الفيلسوف الأثينى الشهير كاسيوس

لونجينـوس الـذى اسـتدعته زنوبيـا ليـدرّس لهـا الأدب الإغريقـى ويقـرأ معهـا ملحمتـى هوميروس ومحاورات أفلاطون والذى نصحها فيما بعد ، حين انفـردت بـالحكم ، بـإعلان استقلالها عن الدولة الرومانية فأعدمه الإمبراطور أوريليان عام ٢٧٣م .

تزوجت زنوبيا من أُذينة الذى رفع نفسـه من وضعه كمـواطن عـادى فـى تـدمر إلى مرتبة حاكم للمشرق بأسره . وسرعان ما أصبحت صديقةً لزوجها ورفيقـة لـه فى كافـة أوجه نشاطه . ففى فترات السلم كان أُذينة يجد لذّته فى ممارسة صيد الحيوانات المفترسة فى الصحراء ، من أسود وفهود . فكانت زنوبيا تشاركه فى هذه المتعة الخطـرة ، ولا يقـلّ أداؤها كفـاءة عن أدائـه .. وقد عوّدت بـدنها احتمـال المشـاق حتـى لا تشـعر بالتعب ، وازدرت اسـتخدام العربـات المغطـاة مستعيضـة عنهـا بركـوب الخيـل فـى بـزّة عسـكرية ، وتمشى مع زوجها على الأقدام أحيانًا لعدة أميال على رأس جيشـهما . لذا فقد عزا الـبعض جُلّ نجاح أذينة إلى قوة احتمال زوجته وحيطتها وحكمة مشورتها . وكانت انتصاراتهما الباهرة على ملك فارس الذى طارداه مرتين إلى أسوار عاصمته المدائن ، سـببًا فـى تعزيـز شـهرتهما معًا ، وسلطانهما معًا . أمـا جيوشـهما والأقـاليم التـى حرّراهـا فـى الشـرق فمـا كانـت لـتعترف بسـيد لهـا ، أو تـدين بالطاعـة ، لغيـر هـذين القائـدين الفـذّين : أذينـة وزنوبيا .

بعـد انتصـار أُذينـة علـى الغوطيين المتسـللين إلى أقاليمـه الآسـيوية ، عـاد إلى تـدمر ليلقى مصرعه على يد ابن أخ له يُدعى مايونيوس . ذلـك أنهمـا أثنـاء رحلـة صيـد ، تجـرّأ مايونيوس فسبق عمّه فى قذف الطريدة برمحه ، ثم عاد ، رغم توبيخـه علـى مسـلكه ، فكرّر زلّته ، مما دفع أذينة إلى تجريده من فرسه وإلى حبسـه لفترة وجيزة . فإن كان أذينـة سرعان مـا نسـى جريـرة الشـاب ، فإن الشـاب لم ينـس عقابـه ، فقـام هـو وبعض رفاقـه باغتيال عمه أثناء وليمة صاخبة ، فأمرت زنوبيا بإعدامه .

اعتلاء زنوبيا عرش تدمر

خلفـت زنوبيـا زوجهـا علـى العـرش ، فحكمـت دولتهـا لأكثـر مـن خمـس سـنوات حكمًـا اتسم بالعـدل والكفـاءة . وقـد كـان المفروض بعـد مـوت أذينـة أن يتـولى مجلـس

الشيوخ فى روما تعيين خلف لهذا الحاكم الذى نصبه على الشرق اعترافًا بفضله وفضائله. غير أن أرملته لم تنتظر قرار بتعيينها من قِبَل الإمبراطور أو مجلس الشيوخ ، فأطلقت على نفسها لقب « ملكة الشرق » ، وألزمت رعاياها فى تعاملهم معها بنفس الطقوس التى ألزم بها قورش رعاياه الفرس ، وخلعت على أبنائها الثلاثة ، تيمولاوس ، وهيرينيانوس ، ووهب اللات ، نفس الزى الأرجوانى الذى كان من حقّ أباطرة روما وحدهم أن يتّخذوه ، وبدر منها ما أوحى بعزمها على إعلان استقلال مملكتها عن روما ، خاصة بعد فتحها للشام كله عام ٢٦٨ ، واستيلائها على مصر عام ٢٦٩ ، ثم على آسيا الصغرى عام ٢٧٠ . وقد سالمها الإمبراطور كلوديوس وقَبِل إقرارها على مُلكها طوال انشغاله بالحرب مع أعدائه الغوطيين ، حتى يحفظ على الإمبراطورية الرومانية هيبتها فى الشرق ، وحتى لا يضطر إلى القتال فى جبهتين فى آن واحد .. وقد انتهجت زنوبيا فى حكمها أحكم التدابير : إن اقتضت مصلحتُها الغفران أخمدت فى نفسها النّقمة ، وإن اقتضت مصلحتُها الانتقام اجتثّت من قلبها الرحمة . وكانت غالبًا ما تميل إلى الاقتصاد فى النفقة حتى وُصمت بالبخل ، غير أنها كانت فى الأحوال المواتية سخيّة إلى حدّ اتهامها بالتبذير . وكانت الأمم المجاورة لمملكتها ، كالعرب والأرمن والفرس ، تخشى عداوتها وتخطب ودّها ، وتتدافع للتحالف معها ، خاصة بعد اقتطاعها شمالى العراق من دولة فارس ، وبعد أن قضت قضاء مبرمًا على جيش صغير أوفده الإمبراطور الرومانى الجديد أورليان لإعادتها إلى الطاعة ، واضطرت قائده إلى العودة مدحورًا إلى روما .

عندئذ قرر أورليان أن يسير بنفسه للقاء زنوبيا على رأس جيش عظيم لا قِبَل لها به . وقد انتهج الإمبراطور فى مسيرته سياسة كانت كفيلةً بضمان انتصاره ، إذ عامل الأمم التى مرّ بها معاملة كريمة ليّنة ، مُصدرًا عفوًا عامًا عن كل من اضطره الخوف إلى الاعتراف بزنوبيا ملكة عليه ، أو إلى الخدمة فى صفوف جيشها ، مما سهّل على الكثيرين خلع طاعتها والانضمام إلى عدوّها . وقد خاض الجيشان معركتين رهيبتين حسمتا مصير الشرق : الأولى قرب أنطاكية ، والثانية قرب حمص ، شاركت زنوبيا فى كليهما لتشجيع جنودها ، وإن كانت قد أسندت القيادة فيهما إلى زابداس فاتح مصر . غير أن

النصر كـان حليف أوريليـان فـى المعـركتين ، أرسـل بعـدهما بروبـوس ، أعظـم قـواده ، لاسترداد مصر ، فى حين تعذّر على زنوبيا حشد جيش ثالث ، فانسحبت إلى تـدمر تقـوّى مـن أسـوار عاصمتها ودفاعاتهـا استعدادًا لمقاومـة قويـة ، ومعلنـةً أن آخـر أيـام حكمها سيكون آخر أيام حياتها .

تـابع أوريليـان مـسـيرته إلى تـدمر عبر الصحراء القاحلـة ، تطـارده جماعـات مـن العـرب المـوالين لزنوبيـا ، يكـرّون على جيشـه دون وَجَـل ، ويفـرّون منـه دون خجـل ، ويتحيّنون أية غفلة من الرومان للهجوم عليهم ونهب ما معهم .. وإذ وصل إلى تدمر بدأ حصـارًا طـويلاً شـاقًا جُرح أثنـاءه مـن جرّاء سـهم أصابه ، وكـتـب فـى رسـالـة لـه يقـول : «يتحدّث الشعب الرومانى سـاخرًا بهذه الحرب ضد امرأة . غـير أنـه يجهـل طبيعـة هـذه المرأة ومدى قوتهـا . ومـن العسـير تعداد كـل مـا هيّأتـه مـن اسـتعدادات للمقاومـة ، مـن حجارة وأسلحة ومـن مختلف أنـواع القـذائف. وقـد أمدّها الخـوف مـن العقـاب بشـجاعة اليائسين . غير أنى لاأزال أومن برعاية آلهة روما لى ، وهى التى كانت دائمًـا تكلّـل كافـة خططى بالنجاح » .

ومع ذلك فإن خشية أوريليـان مـن أن يفشـل حصـاره لتدمر ، دفعتـه إلى أن يعـرض على الملكة عرضًا سخيًا مقابل استسـلامها . فقـد وعـد زنوبيـا بـأن يهيّـئ لهـا فـى منفاهـا مـأوى فـاخرًا ، ووعد المـواطنين بالإبقـاء على امتيـازاتهم القديمـة . غـير أن عرضـه قوبـل بالرفض العنيد المصحوب بالإهانات له ، على أمل أن يحين الوقت الذى يضطر الجوع فيه جيش الرومان إلى أن يعود أدراجه إلى الشام ، أو أن يهرع حكـام الشـرق ، خاصـة ملـك فارس ، إلى نجدة حليفتهم وعدوّة عدوّهم . بيد أن مثابرة أوريليان وحظّه أزالا مـن أمامـه كـلّ عقبـة . فقـد مـات سـابور فـى تلـك الأثنـاء مخلّفًـا مملكتـه فـى حـال مـن الاضـطراب والتذبذب. وكانت تأتيه من كل مكان فى الشام قوافل تحمل إلى جيشه الأطعمـة وسـائر المؤن ، كما عاد إليه بروبـوس بقواتـه بعد أن أتمّت فتح مصر .. عندئـذ قـررت زنوبيـا الفرار ، فاعتلت صَهْوة أسرع جَمَلٍ لها أوصلها إلى شاطئ نهر الفرات على بعد نحو ستين

ميلاً من تدمر . وهناك لحق بها المطاردون الرومان ، فأمسكوا بها ، وأعادوها أسيرة إلى أوريليان .

استسلمت تدمر ، فعومل أهلها معاملة بالغة اللّين ، وإن كان الفاتح قد صادر الأسلحة والخيول والجمال وكنوز الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأنسجة الحريرية ، وخلّف في العاصمة حامية قوامها ستمائة من الرماة . وبعد أن أعاد أوريليان إلى روما طاعة الأقاليم التى انفصلت عنها منذ وقوع الإمبراطور فاليريان فى أسر سابور ، رجع إلى عاصمة دولته وفى صحبته زنوبيا التى اقتيدت فى موكب نصره مزيَّنةً بالجواهر الثمينة ، وقد قُيّدت يداها وقدماها بأغلال من ذهب ، وعُلّقت فى جيدها سلسلة من ذهب . غير أنها فيما عدا ذلك عوملت معاملة كريمة ، إذ أهداها الإمبراطور قصرًا أنيقًا فى تيفولى على بعد عشرين ميلاً من روما ، وزوّجها من أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، وزوّج بناتها من أبناء عائلات رومانية عريقة ، ونصب ابنها وهب اللات ملكًا على أحد الأقاليم الصغيرة فى أرمينيا . وقد ظلت سلالتها قائمة إلى القرن الخامس الميلادى ، وكان زينوبيوس أسقف فلورنسا أحد أفراد هذه السلالة . أما تاريخ وفاة زنوبيا نفسها فلا نجده فى المصادر بين أيدينا .

فى كتابات المؤرخين العرب

تلك خلاصة ما ذكرته كتب مؤرّخى الرومان المعاصرين للأحداث ، أو التالين لهم بزمن قصير . وهى قصة يمكن الوثوق بمعالمها الرئيسية بسبب موضوعيتها الواضحة ، وتعاطفها إلى حدّ كبير مع زنوبيا رغم تهديدها لوحدة الدولة الرومانية ، بالإضافة إلى قرب عهد المؤرخين بفترة حكمها .. غير أن الدهشة العظيمة تعترينا متى انتقلنا من تلك الروايات الرومانية للقصة إلى الروايات العربية لها ، وهى التى حفظناها فى المدارس ، وعدنا نقرؤها فى كتب المؤرخين والأدباء العرب ، وكتب الأمثال العربية ، والتى تختلف أعظم الاختلاف عن الرواية الرومانية . وتزداد دهشتنا ليس فقط لأن صورة المرأة فيها صورة غير كريمة ، وإنما أيضًا لأنها لا تكاد تذكر حروبها مع الرومان ، أو تورد اسم

قاهرها وآسرها الإمبراطور أوريليان ، وتورد بدلاً من ذلك عن نهايتها قصة غريبة لا أساس لها من التاريخ .

ولسنا فى حاجة إلى ذكر قصة الزبّاء فى كتب العرب تفصيلاً وهى ما يعرفه كل تلميذ عربى . غير أننا نلمّ مع ذلك فى عجالة مختصرة بمعالمها استكمالاً للموضوع :

فهى الزبّاء بنت عمرو بن الظرب بن حسّان بن أُذينة بن السميدع ، صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة . وهى ملكة رومية تتكلم العربية ، أمها يونانية من ذرية كليوباترا ملكة مصر .. وَلِيَتْ تدمر بعد مقتل أبيها على يد جَذيمة الأبرش أول من استجمع له المُلْك بأرض العراق وضمّ إليه العرب . وقررت الزباء أن تطلب بثأر أبيها فتغزو جذيمة . غير أن أختها ربيبة أقنعتها بأن تلجأ إلى الحيلة بدلاً من الحرب ، فتكتب إلى جذيمة تدعوه إلى الزواج منها فيضم مُلكها إلى ملكه ، لأنها « لم تجد مُلْكَ النساء إلا قُبحًا فى السماع ، وضعفًا فى السلطان ، ولم تجد لمُلكها ولا لنفسها كفوا غيره » .. فلما ورد على جذيمة كتابُها استشار أصحابه ، فنصحوه بأن يسير إليها ويضمّ إليه مُلكها . غير أن رجلاً منهم يدعى قصير بن سعد خالفهم فيما أشاروا به ، ونصح جذيمة بأن يكتب إلى الزبّاء ، « فإن كانت صادقة فلتأت إليك ، وإلا لم تمكّنها من نفسك وقد وَتَرْتَها وقتلتَ أباها » . فلما لم يوافق جذيمة على هذا الرأى قال قصير : « لا يُطاع لقصير رأى » ، فذهبت مثلاً .. واستخلف جذيمة ابن أخته عمرو بن عدى على مُلكه ، وسار فى وجوه أصحابه ، فاستقبلتهم رسل الزبّاء بالهدايا والألطاف ، وأحاطت بهم الخيول ، حتى دخل على الزبّاء فأجلسته على نطع وأمرت بطست من ذهب ، وسقته الخمر حتى أخذت منه مأخذها ، ثم أمرت خَدَمَها بقطع عِرقين فى باطن ذراعيه فقُطعا فمات .

ووصل الخبر إلى ابن أخته عمرو بن عدى فخلفه فى المُلك ، ونصحه قصير بن سعد أن يتهيّأ لغزو تدمر فلا يطل دم خاله . قال عمرو : « وكيف لى بها وهى أمنع من عُقاب الجو ؟ » فقال قصير : «اجدع أنفى ، واضرب ظهرى ، ودعنى وإيّاها » . فلما أبى ، جدع قصيرٌ أنفه وجلد ظهره ، وخرج إلى الزبّاء وكأنه هارب من عمرو الذى فعل به ذلك

ظنًا منه أنه غَدَرَ بخاله . فأكرمته الزبّاء ووثقت به . فلما اطمأن إلى ذلك قال لها : « إن لى بالعراق أموالاً كثيرة ، ولى بها طرائف وعطر . فابعثينى لأحمل مالى وأحمل إليك من طرائفها وصنوف ما يكون بها من التجارات » . فَسَرَّحَتْه ، فسار حتى قدم العراق ، وأتى عمرو بن عدى متخفيًا وأخبره الخبر ، وقال : « اجمع لى ثقاتِ أصحابك وجُندك ، وهيّئ لهم الغرائر ، واحمل كلّ رجلين على بعير فى غرارتين . فإذا دخلتُ مدينة الزباء خرجت الرجال من الغرائر فمن قاتلهم قاتلوه . واعلم أنها قد حفرت تحت عرشها سردابًا سريًّا حتى تهرب عبره عند الخطر فتخرج من تحت الفرات . وسأُقيمك على باب سِردابها الذى أطلعتْنى على مكانه بعد أن وثقت بى ، فإن هى أقبلتْ تريده تصدّيت أنت لها وقتلتها » . ففعل عمرو ما نصحه قصير به . ودخلت الإبل تدمر وكأنها تحمل أموال قصير وهداياه ، فلما تَوَسَّطَتْها خرج الرجال من الغرائر ، ودلّ قصير عمرًا على باب السرداب . فلما أرادت الزباء الهرب عبره أبصرت عمرًا قائمًا على بابه ، فمصّت سُمًّا كان فى خاتمها وقالت : «بيدى لا بيد عمرو !» .

محاولة تفسير الاختلاف فى الروايتين

كيف وقع إذن هذا الاختلاف العظيم فى الروايتين ؟ قلنا فى بداية المقال إن بعض الكتّاب العرب ممن اطلعوا على الرواية الرومانية واقتنعوا بصحتها ، ذهبوا إلى ترجيح أن تكون الروايتان خاصتين بامرأتين مختلفتين : الأولى اسمها نائلة ولقبها الزبّاء ، وهى التى قتل جذيمة الأبرش أباها وقتلت نفسها بالسم ، والثانية زينب المسماة عند الرومان زنوبيا ، وهى التى قهرها الرومان وأسروها .. غير أننا لا نجد فى كتب التاريخ الموثّقة ذكر للأولى ، ولا فى كتب المؤرخين العرب ذكرًا للثانية . ثم إن المصادر الأرامية لحياة الثانية تشير إلى أن اسمها هو الزبّاء Zabbai ، فهو إذن ليس باللقب القاصر على من سمّوها نائلة . ونستطرد فنتساءل : لماذا كل هذا الحديث الطويل فى الكتب العربية عن جذيمة الأبرش الذى تحقّقت جمهرةٌ من المستشرقين من أنه شخصية أسطورية ، ولماذا كل هذا الاهتمام من جانبهم بالزبّاء الأولى (نائلة) التى لم يذكر أحدٌ لها عملاً جليلاً واحدًا قامت به ، ولا راعنا منها غير فُحْشٍ فى السلوك ، وبذاءةٍ فى الألفاظ ، فى حين

أغفلوا تمامًا إنجازات الزبّاء الثانية وانتصاراتها وفتوحاتها ، وكأنما لم يكن لها أصل في التاريخ . أمّا كان تدوينُها للفرس والرومان معًا ، واستيلاؤها على شمالي العراق ، والشام ، وآسيا الصغرى ، ومصر ، مدعاةً لفخر الكتّاب العرب تفوق مبرّرات فخرهم بانتصارٍ عربي محدودٍ على الفرس عام ٦١٠م في موقعة ذي قار ؟ ولماذا وصفوا الأولى بأنها « ملكةٌ رومية تتكلم العربية » ، وهي التي أسموها نائلة بنت عمرو ابن الظرب بن حسان بن أذينة ، وأورد أبو الفرج في أغانيه أبياتًا من الشعر العربي قالتها ؟

سأحاول هنا – وعلى استحياء – أن أورد حلاً لكل هذه المتناقضات والاختلافات في الروايتين ، أو جُلّها . وهو حلٌّ مفتاحه في رأيي عبارةٌ اشترك في إيرادها كلٌّ من مؤرّخي الرومان ومؤرّخي العرب، وهي : « أن زنوبيا (أو الزبّاء) كانت تزعم أن أمّها من نسل كليوباترا ، ملكة مصر » . غير أني أبدأ بمقدمة لابدّ منها :

لقد كان للقُصّاص في الجاهلية ، وربما أيضًا في القرن الأول بعد الهجرة ، مقامٌ مهم لا يقل كثيرًا عن مقام الشاعر في سمر الليل ، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة ، وفي مجالس أهل القرى والحضر .. كانوا يستمدّون قصصهم تارة من الأساطير والخرافات السائرة المتناقلة بين الأمم ، وتارة أخرى من الأخبار والأحاديث التاريخية المأثورة عن العرب أنفسهم وعمن جاورهم . وكانت أحبّ القصص إلى نفوس السامعين أخبار أيام العرب (أي حروبهم) . ولم تكن ثمة في ذلك العصر بطبيعة الحال كتب ، أو أوراق قد سُجّلت فيها تلك القصص ، فيقرأ القصاص منها . وإنما هي قصص قديمة يتناقلها الرواة شفاهةً جيلاً بعد جيل ، كلٌّ يغيّر منها ومن أحداثها وشخصياتها بالحذف أو الإضافة ، محتفلاً بعنصر التشويق والإثارة أكثر من احتفاله بالدقّة التاريخية وصدق الرواية .

فإن نحن أخذنا بعين الاعتبار أن أكثر من خمسمائة عام مرّت قبل أن يُعنى المؤرخون والأدباء العرب بتدوين قصة الزبّاء كتابة ، أمكننا أن نتخيّل كيف تحوّلت الروايات الشفهية بمرور الوقت إلى أساطير الأولين ، وكيف صرنا إزاء وضع أشبه ما يكون بلُعبة «التليفون المكسور» telephone cassé التي يبدأ فيها اللاعب الأول بأن

يهمس فى سرعة شديدة بخبرٍ فى أذن جاره ، فينقل الجار همسًا وبنفس السرعة فى أذن ثالث ما وعاه من الخبر ، وهكذا دواليك حتى يعود الخبر فى النهاية ، وبعد تنقّله بين عشرات اللاعبين ، إلى اللاعب الأول صاحب الخبر ، فإذا هو وقد أصابه ما أصابه من تحريف نضحك له ، وتغيير رهيب فى مضمون الخبر نعجب منه !

ثمة ملاحظة مهمة أخرى أضيفها : فقد عرف العصر الجاهلى على مدى طويل مئاتٍ ومئاتٍ من الأمثال السائرة المشهورة ، كثيرًا ما تشير إلى أحداثٍ ووقائع معينة تنتمى إلى زمن سحيق ، ولكنها انطوت فى زوايا النسيان . بيد أن الأدباء العرب الذين عنوا بجمع تلك الأمثال لم يترددوا أبدًا ، ولا هم توقّفوا زمنًا ، من أجل التحقّق من أصلها التاريخى ، بل بادروا فى جرأة عظيمة وثبات جأش ينسجون قصصًا من وحى خيالهم تُفسّر الأمثال وملابساتها . وقد كان مسلكهم هذا تجاه الأمثال من جنس مسلكهم حيال أخبار العُشّاق وأشعارهم . ذلك أن الناس أقبلوا فى صدر الإسلام إقبالاً عظيمًا على سماع الغناء ، دفع المغنّين إلى اصطناع ضروب من الشعر العذرى والإباحى يغنّون فيها ، وكان ثمة شعراء ينظمون لهم مثل هذا الشعر فى الغزل ، ثم ينسبونه إلى أهل البادية حينًا ، وحينًا إلى أهل الحاضرة . ثم كان أن نشأ القصص الغرامى كأثر من آثار هذا الغزل، إذ احتاج الناس إلى تفسير للقصائد ، وإلى وصل بعضها ببعض ، فاختُرعت القصص الغرامية من أجل إرضاء هذه الحاجة . وهو عكس ما يعتقده البعضُ من أن هذه القصص أُنشئت بادئ بدءٍ لتسلية الناس ، ثم نَحَل القُصّاصُ الشعر الغرامى على اختلاف ألوانه تحليةً لقصصهم .. يقول طه حسين فى كتابه « حديث الأربعاء » :

« لسنا نُنكر وجود جميل (بن معمر) ، بل ولسنا ننكر أنه أحبّ بثينة . ولسنا ننكر وجود قيس بن ذريح ، بل ولسنا ننكر أنه تغزّل فى لُبنى . ولكننا نزعم أن هذه الأخبار التى تُروى عن حب جميل وقيس لبثينة ولُبنى مصنوعة متكلّفة فى أكثر الأحيان ، وأن تكلّفها أحدث إلى جانب هذين الفنّين الشعريين اللذين ذكرناهما فنًّا نثريًا جديدًا ، هو فن القصص الغرامى » .

قلبَطرَة

ثم أدلف فى النهاية إلى دعواى الرئيسية فى هذا المقال . وهى فى إيجاز : « أن سيرة الزبّاء فى كتب العرب هى الصيغة أو الرواية العربية لقصة كليوباترا بعد تنقّلها وتداولها شفاهة على مدى قرون طويلة ، وأن الأصل فى هذا الخلط بين المرأتين كان دعوى زنوبيا أن أمها هى من نسل الملكة المصرية » .

ولكن لنقرأ أولاً ما كتبه المسعودى فى تاريخه « مروج الذهب » عن كليوباترا التى يسميها قلبطرة :

« كانت حكيمة متفلسفة ، مُقَرِّبة ومعظِّمة للحكماء ، ولها كتبٌ مُصنّفة مترجمة باسمها منسوبة إليها . وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين إلى أن انقضى مُلكُهم وامّحت آثارهم . وكان لها خبر ظريف فى موتها وقتلها لنفسها . كان لها زوج يقال له أنطونيوس مشارك لها فى مُلك مقدونية ، وهى بلاد مصر من الإسكندرية وغيرها . فسار إليهم الثانى من ملوك الروم من بلاد رومية ، وهو أغسطس . وكانت له حروب بالشام ومصر مع قلبطرة وزوجها أنطونيوس ، إلى أن قتله . ولم يكن لقلبطرة فى دفع أغسطس عن مُلك مصر حيلة . وأراد أغسطس إعمال الحيلة فيها لعلمه بحكمتها ، ثم بعدها يقتلها ، فراسلها . وعلمتْ مراده فيها ، وما قد وَتَرها به من قتل زوجها وجنودها . فطلبت نوعًا من الحيات إذا تمكّنت من النظر إلى عضو من أعضاء الإنسان قفزت أذرعًا كثيرة كالرُّمح ، فلم تُخطئ ذلك العضو بعينه حتى تتفُل عليه سُمًّا فتأتى عليه .. فلما كان اليوم الذى علمت أن أغسطس يدخل قصرها ، جلستْ على سرير مُلكها ، ووضعت تاجها على رأسها ، وقرّبت يدها من الإناء الذى فيه الحية ، فَتَفَلَّتْ عليها » .

لقد كان العرب دائمًا أكثر إلمامًا ودراسة واهتمامًا بتاريخ الفرس وأنظمتهم وآدابهم منهم بتاريخ وأنظمة وآداب البيزنطيين ، وكانت معرفتهم بالبيزنطيين (الروم) أقلَّ ضحالة من معرفتهم بالفرنجة فى غرب القارة الأوروبية ووسطها ، وبتاريخ الرومان .

ويكفى أن أورد هنا بقية قصة المسعودى فى « مروج الذهب » كمثال لهذا الجهل بالتاريخ الرومانى . يقول بعد حديثه عن انتحار كليوباترا وجاريتها الوفيّة :

« انسابت الحيّة فدخلت فى بعض الرياحين . ودخل أغسطس فنظر إلى قلبطرة جالسةً وهى ميتة والتاج على رأسها . وأُعجب بتلك الرياحين فتناول بعضها يشمّها ، فقفزت عليه تلك الحيّة ورمته بسمّها ، فيبس (أى شُلّ) شِقُّه الأيمن من ساعته ، وذهب بصره الأيمن وسمعهُ ، فقال فى ذلك شعرًا بالرومية يذكر حاله وما نزل به . وأقام بعد ذلك يومًا ثم هلك ، ولولا أن الحية كانت قد أفرغت سمّها على الجارية ، ثم على قلبطرة لكان أغسطس قد هلك من ساعته ولم تُمهله هذه المدّة . وهذا الشِّعر معروف عند الروم إلى هذه الغاية ، يذكرونه فى نوحهم ، ويرثون به ملوكهم وموتاهم . وربما ذكروه فى أغانيهم » !

فالمعروف أن أغسطس ظلّ فى مُلكه بعد مصرع كليوباترا أربعًا وأربعين سنة . وما من مصدر رومانى واحد تحدّث عن لدغ الحيّة إيّاه ، أو عن شلله وفقدانه بصره الأيمن وسمعه . فمن أين إذن أتى المسعودى بهذه القصة العجيبة إن لم تكن قد وصلته عن طريق القُصّاص العرب ممن يفضّلون الطرافة على الدقة التاريخية ؟ غير أنه ، لحسن الحظ ، لم يورد ترجمةً عربية لشعر أغسطس فيما أصابه ، ولم يحذُ حذو ابن إسحاق الذى ضمّن سيرته عن النبى قصيدة آدم الطويلة التى نظمها باللغة العربية بعد طرده وحوّاء من الجنة !

والواضح مع ذلك أن قصة كليوباترا – أيًّا كانت الصورة التى وصلت بها – لقيت عند العرب (ما لقيته عند غيرهم من الأمم) استحسانًا وإقبالاً دفعاهم إلى تناقلها ، وإعادة صوغها بعد الحذف والإضافة ، وبعد إدماجها فى قصة ملكةٍ شهيرة أخرى زعمت أنها من نسلها ، هى زنوبيا . غير أن العرب ظلوا منذ الجاهلية وحتى القرن العشرين لا يرتاحون إلى نطق الأسماء الأجنبية ، يخطئون فى اللفظ بها ، ويخلطون بينها . (لاحظ أسماء ملوك الفرنجة وقوّادهم أثناء الحروب الصليبية كما وردت فى كتابات المؤرّخين العرب المعاصرين لها ، أو كيف سمّى المسعودى نيرون بتيزون) . وقد دفعهم هذا

الاستثقال للأسماء الأعجمية إلى إغفالها قدر الإمكان (شأنهم مع فاليريان وكلوديوس وأوريليان) ، بل وإلى إحلال شخصيات عربية محلّها (جذيمة الأبرش ، وقصير بن سعد ، وعمرو بن عدى) . كذلك فإنه كانت قد وصلت إلى أسماع العرب فى الجاهلية مجموعةٌ ضخمة من الأمثال قد طوى النسيان أصلها وملابساتها - كما سبق القول - فنسجوا حولها قصصًا وأساطير تفسّرها . وفي رأيي أن قصة الزبّاء - وهى من أحفل القصص العربية بالأمثال - هى إحدى تلك الأساطير التى اخترعوها لتفسير حشدٍ من الأمثال السائرة فى الجاهلية . وهو أمرٌ نشبّهه بما يجرى اليوم فى مدارسنا ، حين يكلّف المدرسُ الصبية بكتابة فقرات أو قصص يستخدمون فيها ألفاظًا وعبارات حدّدها لهم سلفًا : « شبّ عمرو عن الطوق » - « رأى فاتر وغَدْرٌ حاضر » - «لا يُطاع لقصير رأي» - «بِبَقَّة قُضى الأمر » - «خَطْب يسير فى خطب كبير» - « دعوا دمًا أضاعه أهلُه » - «لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفه» - « ما ضلّ من تجرى به العصا » - «بيدى لا بيد عمرو» - إلى آخره .

فتصوُّرى إذن هو أن عملية الخلط والإدماج بين قصتَى كليوباترا وسليلتها زنوبيا تمّت على نحوٍ قريب من النحو التالى :

كانت الاثنتان تتمتّعان بجمال عظيم وعلم واسع ، وتجيدان العديد من اللغات الأجنبية .. كانت الأولى - على حدّ وصف المسعودي - مُقَرِّبةً للعلماء ومعظّمة للحكماء ؛ وكان أستاذ الثانية ومستشارها الفيلسوف الإغريقى لونجينوس .. يقول المسعودى إن كليوباترا ألّفت كتبًا منسوبة إليها ، ويقول تريبوليوس بوليو إن زنوبيا أعدّت بنفسها مختصرًا لتاريخ شعوب الشرق .. ويذكر التاريخ أن يوليوس قيصر قتل أخا كليوباترا بطلميوس الثالث عشر بعد الانتصار عليه ؛ وعند العرب أن جذيمة الأبرش قتل أبا الزبّاء بعد أن دَحَر جيشه .. وبعد مقتل كلٌّ من قيصر وجذيمة غيلة وغدرًا ، تولّى المطالبة بثأر الأول ابن بنتِ أختِه أوكتافيوس (أغسطس قيصر) ؛ وتولّى المطالبة بثأر الثانى ابن أخته عمرو بن عدى ، بعد وصول كليهما إلى الحكم .. وعندما

علمت كليوباترا باقتراب جيش أغسطس وخشيت بطشه بها ، وانتقامه منها ، شيّدت لنفسها بناءً حشدت فيه أموالها وجواهرها وبعض وصيفاتها وأخفت معالم السبيل إليها فيه ، حتى اكتشفه بروكوليوس أحد قواد الرومان فسلكه إلى حضرتها . كذلك فقد اتّخذت الزبّاء لنفسها تحت العرش سردابًا سريًا تهرب عبره عند الخطر ، فلما اقتربت قواد عمر بن عدى ، دلّه قصير بن سعد على باب السرداب ، فتوجّه إليه يحول بين الزبّاء والفرار .. وقد اختارت كليوباترا فى النهاية أن تموت بيدها لا بيد أغسطس ؛ كما اختارت الزبّاء أن تموت بيدها لا بيد عمرو .. وكان السُّمّ هو وسيلة انتحار الملكتين : غير أن سُمّ الثعبان فى حالة الملكة المصرية تحوّل إلى سمّ امتصّته الثانية من خاتمٍ فى إصبعها .

* * *

ذلكم فى اعتقادى هو الحلُّ للغز التفاوت والتباين بين الروايتين . وهو حلٌّ (أو منهجٌ) قد يُعيننا على تبيّن الصورة التى كان يتمّ بها عند العرب تسجيل الكثير من أحداث التاريخ ، وكتابة السِّيَر . كما أنه يُعيننا على تفهّم جانبٍ من جوانب العقلية العربية فى العصر الوسيط ، بل وتفسير بعض مظاهره القائمة معنا حتى اليوم .

* * *

- ٨ -

شعار الوحدة العربية : هل لا يزال صالحًا للتطبيق ؟

من السهل على المرء منا أن يبادر بالإجابة متى سُئل عما بقى بعد نحو أربعين عامًا من السياسات التى تبنّاها عبد الناصر ، والشعارات التى أطلقها ، بأنه ما من شيء منها قد تبقّى . كما يمكنه أن يضيف قوله إن مجرد إعادة قراءة خطبه اليوم كفيل بأن يجعله يعتبرها من المضحكات المبكيات، وبأن يثير فيه من مشاعر السخرية، أو الأسى ما تثيره قراءته ليومياته هو مما كتبه فى سن المراهقة ، عن غرامه المتوقّد بهذه الفتاة أو تلك ، وتحمّسه الزائد لهذا الزعيم الحِزبى أو ذاك، أو عن طموحاته وتطلّعاته إلى ما ينشد إنجازه حين يكبر ، وإيمانه غير المحدود بقدرته على تحقيقها .

يكفيه أن يستمع إلى عبد الناصر يتحدث عن تحرير فلسطين، أو انقضاء عهد الاستعمار ، أو عن الاشتراكية والديمقراطية التعاونية ، أو عن تحالف قوى الشعب العاملة، أو سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج، أو استئصال الرأسمالية المستغِلّة ، أو عن الوحدة العربية ، أو حتى عن « الاتحاد والنظام والعمل ! » ، حتى ترتسم على شفتيه ابتسامة مُرّة ، وحتى ينطق لسانه بعبارة « تقدّرون وتضحك الأقدار » .

أمر واحد فحسب يجعل أمثالى من غير الناصريين (ممن يخالون أنفسهم موضوعيين) يتردّدون قبل إصدار حكم نهائى : هو ما نلمسه فى الكثيرين من شباب الجيل الجديد من إعجاب زائد بعبد الناصر ، وهم الذين لم يعاصروه ولا دراية كبيرة عندهم بتفاصيل ما جرى أيام حكمه . (لاحظ كيف استقبل جمهور الشباب عندنا فيلم «ناصر ٥٦») .. قد نردّ عليهم بأنه « ليس الخبر كالمعاينة » . غير أن بوسعهم أيضًا أن يردّوا علينا بأن عهد عبد الناصر يمثّل ذروة إحساس المصريين بالعزّة والكرامة والفخر ، وتحرّر القرار المصرى من ربقة الهيمنة الأجنبية ، وشعور الكافة بالأمل فى المستقبل وبالقدرة على بلوغ ما يطمحون إليه .. وهو ردّ من الصعب أو المستحيل تفنيده .

بيد أن السؤال الآن هو ما إذا كان بعض الشعارات التى أطلقها عبد الناصر صالحًا للتطبيق بعد مرور أكثر من ثلث قرن على وفاته.

سأكتفى بتناول شعار واحد : هو الوحدة العربية ، لأثبت أنه ما من شيء فى هذه الحياة الدنيا ثابت جامد مستقر ، وإن خالته الأعين كذلك .. الأمرُ بصدد أى شيء يخضع إلى ما ذهب إليه الفيلسوف الإغريقى هيرقليطس . إذ يتحدث عن كيف أنك لا تستطيع أن تنزل إلى نفس النّهر مرتين ، حيث أن كل قطرة من مياهه تنتقل فى كل لحظة من مكانها وتحلّ محلها قطرة أخرى ، فيصبح بالتالى متجدّد المضمون .

وكذا فيما يتصّل بفكرة القومية العربية : كان أول من عبّر عنها ويلفرد بلَنْت البريطانى فى كتابه « مستقبل الإسلام » (١٨٨٢) ، فنقل الفكرة عنه عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه « أمّ القرى » ، ثم محمد رشيد رضا (وهو الذى اتهمه محمد فريد فى مذكراته بأنه عميل للبريطانيين) فى مجلة « المنار » .. كانت هذه الدعوة أول نقلة من فكرة الجامعة الإسلامية التى قال بها الأفغانى ، إلى فكرة القومية العربية . وقد بارك الحلفاء الأوروبيون تلك الفكرة التى تبنّاها العرب فى أقطار الدولة العثمانية كسلاح فى سبيل نيل الاستقلال عن تركيا ، حليفة الألمان فى الحرب العالمية الأولى . غير أنها سرعان ما تطوّرت – بعد وقوع الأقطار العربية فى براثن الاحتلالين البريطانى والفرنسي – إلى المناداة بقدر من الوحدة السياسية والاقتصادية بين تلك الأقطار . وقد شجعت بريطانيا هذه الدعوة أيضًا حين كانت مطمئنة إلى ولاء الوحدات المكوّنة لهذا التجمّع المنشود ، وتمثّل هذا التشجيع منها فى خروج أنتونى إيدن بفكرة تأسيس الجامعة العربية . غير أنها عادت فحاربت الدعوة ، هى وغيرها من الدول الغربية ، خاصة بعد ظهور جمال عبد الناصر ، حين وضح لها خطورة مثل هذا التجمع وهذه الوحدة على مصالحها إذ تحوّلت الآن من مقاومة للاتجاه المنادى بالانتماء الإسلامى إلى مقاومة للترتيبات الإقليمية والسياسية ، التى أراد الاستعمار الغربى فرضها على المنطقة ، وللأطماع الغربية فى العالم العربى .. حينئذ بدأ الغرب فى العمل على بثّ بذور الفُرقة

بين الدول العربية للحيلولة دون تحقّق وحدتها ، ودون أن تُشكّل هذه الوحدة خطرًا على إسرائيل ، حليفة الغرب الوفيّة فى المنطقة .

والواقع أن عبد الناصر هو الذى أعطى أقوى دَفعة للفكرة فى النصف الثانى من القرن العشرين .. كانت فى عهد الملكية فى مصر مجرد مفهوم وديع متواضع لا يكاد يتعدّى كتابات عدد محدود من المفكرين ، ومآدب فى القصر الملكى لزعماء العرب يخطب فيها الخطباء ويتغنّى المغنّون . أما عبد الناصر فقد نظّم لأول مرة حملات واسعة النطاق تحاول غرس مفهوم القومية العربية والانتماء العربى وضرورة الوحدة العربية فى أذهان أفراد الشعب ، وذلك عن طريق وسائل الإعلام القوية ، والمناهج الدراسية ، وكتابات المفكرين المنصاعين للنظام أو المخلصين فى عقيدتهم ، ودعايات الاتحاد الاشتراكى بشعاراته ولافتاته . وقد بدا فى وقت من الأوقات (خاصة عند قيام الجمهورية العربية المتحدة التى ضمت مصر وسوريا عام ١٩٥٨) وكأن الوحدة العربية وفكرة القومية العربية بمفهومها المعادى للغرب ، قد دخلتا حيّز التنفيذ . فكان أن شمّر الغرب عن ساعده لضربهما بالتحالف مع الأنظمة الرجعية فى المنطقة ، وكان انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١ ، وكانت حرب ١٩٦٧ التى قلّمت نهائيًا من أظفار عبد الناصر وأذهبت ريحه ، وشكّكت العرب فى أنفسهم وقدراتهم ، وشكّكت شعب مصر فى جدوى التدخل فى الشئون العربية الداخلية ، خاصة وقد اعتبر تدخّل عبد الناصر المشئوم فى اليمن أحد أسباب الهزيمة فى الحرب على يد إسرائيل .

فشل عبد الناصر إذن فى توحيد الأمة العربية ، وانتهى الحال به فى السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه – وبعد أن خالت الأمة العربية أنه صلاح الدين الجديد – إلى أن أصبح تابعًا للاتحاد السوفييتى ، يكاد اعتماده أن يكون قاصرًا عليه من أجل إنقاذه من ورطته .

غير أن القصة لم تنته عند هذا الحدّ .. فاختفاء عبد الناصر من مسرح الأحداث عام ١٩٧٠ ، ونشوب حرب أكتوبر التى أسفرت عن قدر من النصر ردّ إلى العرب ثقتهم المفقودة فى أنفسهم ، وتعاظم نفوذ عدد من الدول العربية النفطية بالغة الثراء وتأثيره

فى الاقتصاد العالمى وفى اتجاهات الدول الغربية حتى بصدد إسرائيل ، كل هذا أعطى دفعة جديدة للقومية العربية ، ولكن مع إضفاء طابع جديد عليها . فقد تبدّدت الآن الأوهام الرومانسية التى كانت لصيقة بأفكار حزب البعث ، كما تبخّرت المطامح والنزعات البروسية للزعامة المصرية ، واتّخذ مفهوم القومية العربية شكلاً من التضامن على أساس من المصلحة المشتركة ، وإدراك للخطر الاقتصادى والسياسى والحضارى الذى تمثّله إسرائيل ، ووعى بإمكان إقامة تكتّل اقتصادى عربى إقليمى ينافس كتلة الدول الغربية الصناعية . وحيث أن أغنى الدول العربية المموّلة لهذا الشكل الجديد كانت من الناحيتين السياسية والاجتماعية أشدّ دول المنطقة محافظة وتمسكًا بالتقاليد ، فإن الاشتراكية لم تعد الطابع المميز للقومية العربية ، وإنما أصبح طابعها الغالب ربط العروبة بالإسلام ربطًا دعامته المال والنفط .

ولم يكن ثمة مفر إزاء هذا البعث الجديد للقومية العربية عقب حرب ١٩٧٣ ، وإزاء صورتها التى بدت أكثر واقعية وأقرب احتمالاً لتحقيق أهدافها ، من أن يحاول الغرب تسديد ضربات أخرى إليها ، والعمل على بث بذور الشقاق فى الصفوف . وكما أنه فى عام ١٩٦٧ اختار مصر هدفًا أوليًا لصبّ نقمته (عن طريق إلحاق الهزيمة الساحقة بجيشها) ، فقد اختارها الآن ، ولكن على نحو مخالف ، هو تحقيق صلح بينها وبين إسرائيل يُخرج أقوى دولة عربية من حظيرة الدول العربية ، ساعيًا فى الوقت نفسه إلى إثارة العداوات فى جبهات متعددة داخل المنطقة .

وقد كان التوفيق حليف هذه الجهود ، بالرغم من قرار قبول مصر من جديد عضوًا بالجامعة العربية بعد عشر سنوات من القطيعة ، وبالرغم من اتجاه دول عربية كثيرة اليوم إلى قبول فكرة التصالح مع إسرائيل . وهما أمران وإن كانا أفلحا إلى حدّ ما فى رأب الصدع فى صفوف العرب ، لا يمكن مقارنة أثرهما بالآثار الهدّامة التى لحقت بمفاهيم القومية العربية ، والتضامن العربى ، والوحدة العربية ، من جراء تفرّق مواقف الدول العربية من الغزو العراقى للكويت عام ١٩٩٠ .

غير أن القصة لم تنته أيضًا عند هذا الحدّ . ومن الجائز جدًا متى هدأت الأمور واستقرّت فى الأقطار العربية على نحو يرضى الغرب عنه، ومتى اطمأن النظام العالمى الجديد إلى أن هذه المفاهيم لن تشكّل فى المستقبل خطرًا على المصالح الغربية ، وعلى متطلّبات العولمة ، ولن ترتبط بنزعة اشتراكية أو توجّه إسلامى ولن تهدّد إسرائيل ، أن تنال فكرة تحقيق الوحدة العربية الرضا وتحظى بالقبول والمباركة .. فهل ستكون عندئذ على ما كان ينشده عبد الناصر بحيث يمكن الزعم بأنه كان واحدًا من أهمّ روّادها والداعين إليها ، وأن الشعار الذى أطلقه بصددها ثبت أنه صالح للتطبيق ؟ أم أن النهر ، كما فى فلسفة هيرقليطس ، لن يكون وقتها نفس النهر ، وإن خِلناه واحدًا ؟

* * *

- ٩ -

إن (العروبة) أعيت من يداويها

من السهل على الأنظمة الحاكمة العربية أن تصف مواقفها بالهدوء والواقعية والعقلانية ، وأن تَصِمَ موقف جماهيرها المطالبة بالتصدّى للجرائم الإسرائيلية بالعفوية والسطحية والانفعالية ؛ أن تصف القيادة الرسمية بانتهاج سبيل الحكمة ، وأن تصم القيادات الشعبية بالمكر والمزايدة ؛ أن تنفى إذعانها لضغط أمريكى ، أو رغبتها فى أن تُطيل أمد احتفاظها بكرسى الحكم لعدة أشهر أو أسابيع ، وأن تنسب إلى الثائرين عليها جهلاً بواقع الأمور ، أو سعيًا إلى تضليل الجمهور ، أو تطلّعًا إلى انتزاع السلطة .. غير أن بوسعك - كما سبق أن قيل - أن تخدع كلّ الناس بعض الوقت ، وبعض الناس كلّ الوقت ، بيد أنه ليس بمقدورك خداع كلّ الناس كلّ الوقت .

فماذا عن البعض الذى يأبى أن ينخدع ؟ بوسعك أن تصمهم بالإرهابيين الأشرار ، وأن تجد فى الولايات المتحدة حليفًا قويًا لا رادّ له يدعم جهدك من أجل استئصالهم وإخماد صوتهم . وقد بات هذا القمع الآن من أسهل الأمور فى هذا الزمان الأمريكى الذى هو زمان القهر ، زمانٌ يتّخذ شعارًا له « وما تشاءون إلا أن تشاء المؤسسة العسكرية / الصناعية الأمريكية » .

تسير فى شوارع المدن العربية ، وطرقات الأرياف ، فيدهشك ويروعك من آن لآخر أن تلمح فيها أطفالاً .. ماذا ؟ أطفال فى زماننا هذا ؟ فى مجتمعنا هذا ؟ مَن ذا الذى فكر فى إنجابهم ؟ أو بالأحرى ، مَن ذا الذى لم يفكر عند إنجابهم ؟ مَن ذا الذى لاتزال لديه رغبة فى إنجاب أطفال فى الوقت الذى بات الناس فيه لا تُقلقهم فكرةُ الموت المبكر ، بل وقد يرتاحون إليها باعتبارها الملاذ الأوحد مما يعانون ؟

تجلس إلى جماعة من المثقفين العرب . كلّهم قد استقّر لديهم الإيمان بأن هناك إرادة عليا قاهرة تنوى فرض أمر أو أمور على منطقتنا ، وأنهم لا يملكون إلاّ تخمين كُنْه

هذه الإرادة ، وحَزْر رغباتها ، وتشمّم اتجاهاتها ، عن طريق التقاط هذا الخيط أو ذاك ، والإشارة إلى هذه الأدلّة أو تلك ، وتجميع القطع الصغيرة المتناثرة فى شكلٍ صورة مفهومة .. أما أن يقفوا فى وجه هذه الإرادة إن اختلفوا معها ، وأن يفرضوا إرادتهم هم ، والأوضاع المُثلى فى رأيهم هم ، « فأمرٌ لَعَمْرِكَ ما إليه سبيلُ » .

الطريف حقًا فى هذا الموقف شبه الدينى ، أن التعابير التى يستخدمها المؤمنون فى عباداتهم ، بات ثمّة ما يطابقها أو يماثلها فى أحاديث المفكرين والمثقفين العرب ، حتى الملحدين منهم : وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين .. تقدّرون وتضحك الأقدار .. العبد فى تفكير والربّ فى تدبير .. لله فى خلقه شئون .. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم .. حكمة ربّنا .. هذه مشيئة الله .. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

تعابير إن أوحت بشيء فإنما توحى بأن الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية تبدو وكأنما أحلّها الناس فى زمننا هذا محلّ الإرادة الإلهية.

وهذا بالضبط هو سرّ ما ينتابنا جميعًا فى الآونة الراهنة من اكتئاب .. هو ليس حزنًا على ما يحدث للفلسطينيين ، أو العراقيين ، أو الأفغان ، أو غيرهم ، ولا على المنظر المخزى الذى يبدو عليه العرب ، ولا وهن الصف العربى ، ولا خنوع أنظمتنا وخداعها المستمرّ لشعوبها ، ولا هو الذعر من تنامى القوة العسكرية الإسرائيلية ، ولا الخشية من عواقب تردّى الأوضاع فى منطقتنا ، ولا هو أسفٌ على مصالح خاصة قد أُضيرت .. وإنما هو الإحساس بالقهر .. الإحساس بأننا بتنا مغلوبين على أمرنا .. بأنه لم يعد فى وسعنا التأثير فى الأحداث . وبأننا لا نشاء إلا أن تشاء القوّة الوقحة المهيمنة على مجريات الأمور ، وأن كل ما بقى فى مقدورنا محاولته هو تخمين اتّجاه هذه المشيئة .

خَبرنا العيش فى ظل أنظمة دكتاتورية غاشمة عانينا منها كلّ ضروب القمع والقهر والاستبداد . غير أن مشاعرنا وقتها ليست كمشاعرنا اليوم .. كنا وقتها نلمح فى آخر السرداب الطويل المظلم بصيصًا من الضوء ، بريقًا من الأمل . وكنا على ثقة من أن المقاومة العنيدة المثابرة من قِبَل الثوريين المتكاتفين كفيلة بأن توصلنا فى النهاية إلى

هذا النور .. أما اليوم فقد «أناخ الدّهرُ علينا بكَلْكَلِه»، و« لا حول ولا قوّة إلا بالله » ، و« إنّا لله وإنّا إليه راجعون » .

شعورنا اليوم هو نفس الشعور الذى تخرج به من قراءة توماس هاردى أو شوبنهاور أو أبى العلاء المعرّى : أن ثمة قوة رهيبة عمياء تحكم عالم الظواهر لا تتزحزح ولا يمكن التأثير فيها أو الفرار بمصائرنا منها ، وأقصى ما يمكن للمتفائل أن يقوله بصددها هو : « حكمة ربّنا » ، أو « عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم » .

وإذ تتضاءل فى نفوس مثقفينا الثقة – مع كل يوم يمرّ – فى قدرة الشعوب على اختيار مصائرها وتكييفها ، خاصة فى ظلّ أنظمة عميلة عييّة ، يسائل بعضنا بعضًا فى وجوم وحيرة : « إن كان جورج بوش نفسه لا يدرك من الأمور إلا قشرة رفيعة مما سمح له الصانعون الحقيقيون للسياسة الأمريكية بأن يطّلع عليه ، فما بالك بأمثالنا ممن يستقون معلوماتهم ، لا من تقارير وكالة المخابرات الأمريكية ، ومن المحادثات الهاتفية بين الرؤساء ، والبرقيات الرمزية للسفراء ، وإنما من الصحف والإذاعات العربية؟! كيف يمكن لإنسان منّا يحترم نفسه أن يسمح لهذه الصحافة وهذه الإذاعات بأن تُسهم فى تكييف أفكاره ، أو تساعده فى تكوين رأى ؟ أتعلم أن أحد رؤساء التحرير العرب كتب مؤخرًا مقالين افتتاحيين لصحيفته ، أوّلهما يطالب فى حُرقة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ، وثانيهما يتحدّث عن حكمة الإبقاء عليها ، واحتفظ بهما عنده فى درج مكتبه حتى أتته الإشارة من علٍ ، فدفع بالمقال الثانى إلى المطبعة ومزّق الأول ؟! » .

ماذا تراهم يفعلون بنا وبعقولنا يا صاح ؟

كيف تسنّى للأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية العربية الراهنة أن تحقّق بمثل هذا اليُسر مثل هذا النجاح الباهر فى إفساد الذّمم ، وتسهيل بيع الأعراض الفكرية والروحية والجسدية ، وإسدال مثل هذا الستار الأسود الكثيف على ما كان أجدادنا وآباؤنا يسمّونه ضميرًا ، أو وَعْيًا ، أو كرامة ، أو كبرياء ، أو أَنَفة ؟

تتابعت علينا الأيام ، كلما حسبنا فيها أننا بلغنا الحضيض الذى لا حضيض تحته ، تبيّن أن ثمة دركًا أسفل .. فمن كان يظنّ أن أرواحنا التى عانت كلّ ما عانت لايزال فيها ما يمكن هَدْمُه ؟ ما من أحد منا كان بإمكانه أن يبقى على ما كان عليه بعد كل ما حدث ؛ بعد نكبة ١٩٦٧ ، واتفاقيات كامب ديفيد ، وحربى الخليج ، ومذابح الجزائر ، ومذلّة الفلسطينيين ، وشيوع الفساد والاستغلال ، وانتزاع الأفّاقين الرّاية من أيدى الأمناء الأكفاء .. كان على العربى منا أن يؤجّل التطلّع إلى تحقيق أحلامه ، وأن يتحوّل إلى الدَّرْوَشة وانتظار الوقت الذى ينعم فيه بصحبة الحور العين فى الجنّة ، أو أن يتخلّى فى شجاعة عن آخر أوهامه ، دون أن يدرى أيّهما أفضل له ؟ سعادة الغيبيات ، أم شقاء المعرفة . فإن كانت الثورة مثل الإلهة الإغريقية التى تأكل أولادها ، فإن الشكّ مثل نيرون ، يغتال أمّه حتى يتنصّل من ماضيه .

تَنَصُّلٌ من الماضى ..

أتدرون كم مرة قَلَبْنا معاطفنا ، وتنصّلنا من ماضينا ، وأعَدْنا تكييف أحلامنا ، وغيّرنا من وقائع التاريخ خلال نصف القرن الماضي . إن قلتُ مائة مرّة كنتُ متواضعًا فى تقديرى .. هاجمنا الديموقراطية ثم امتدحناها ، وساندنا الحكم المطلق ، ثم هاجمناه . وأيّدنا نظام الحزب الواحد ثم عارضناه ، واستنكرنا مبدأ الصلح مع إسرائيل ، ثم باركناه . ودعونا إلى مقاومة النفوذ الأمريكى ، ثم بيّنّا حكمة الاستسلام له .. وصفنا صندوق النقد الدولى بصندوق «النّكد الدولى» ثم قبلنا شروطه صاغرين .. وهلّلنا لمباهج الاشتراكية ، ثم لمباهج الرأسمالية وسياسة الانفتاح الاقتصادى . وباركنا السير فى ركاب الشرق ، ثم السير فى ركاب الغرب . وقلنا بالانتماء الإسلامى ، أو العربى ، أو الإفريقى ، ثم تحوّلنا إلى التركيز على قومية ضيّقة . ولهجنا بالثناء على نظام النميرى فى السودان ، ثم تراجعنا عنه . ولعنّا القذافى ، ثم هادنّاه . وهاجمنا حافظ الأسد ، ثم صالحناه . وتغنّينا بمحاسن صدام حسين ، ثم حاربناه . وسَبَبْنا أنظمة دولٍ خليجية ، ثم تلقّينا المساعدات المالية منها فمدحناها ، وساندْنا عبد الناصر ، ثم سَرَدْنا عيوبه

وأخفينا مزاياه . وأقبلنا نمجّد أنور السادات ، ثم قتلناه . وسنظل هكذا أبدًا إلى ما شاء الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد كان شباب الأمة العربية من الذكاء بحيث سَهُل عليهم أن يدركوا بالفطرة أن مدرّسيهم لا يؤمنون بما يلقونه عليهم من دروس ، وأن صحفهم ومجلاتهم ووسائل إعلامهم إنما تنشر ما تُمليه عليها السلطات ، وأن السلطات إنما تكذب لخدمة أغراضها .. فهم إنما يذاكرون ما يُدرَّس لهم على أنه تاريخ ليتقيّئوه بعد ذلك فى ورقة الإجابة ، ثم يمحون ما تعلّموه من ذاكرتهم إلى الأبد وكأنما لم يعلق بعقولهم قط .. هذا يظنّ أنه خدع ذاك ، وذاك يحسب أنه خدع هذا . وكانت النتيجة أن أضحى الشباب العربى الآن مجرّدًا من الذاكرة التاريخية ، وأصبح بلا تاريخ .. لمس أنه مع كل عام يُطالب بتبنّى أحلام جديدة ، مخالفة أو مناقضة ، وأنه مع كل فترة يحدث تغييرٌ فى المواقف والمناهج والمعلومات والتقييم . وشهد إصدار الطبعات المتوالية من الكتب ودوائر المعارف ، كلّ طبعة تصحّح «أخطاء» و«معلومات» سابقتها ، وتجعل من الأبطال أنذالاً ، ومن الأنذال أبطالاً . كما لمس فى الصحف وأجهزة الإعلام تلوّنًا بألف لون ، وتسمية الشوارع والميادين بأسماء الحكّام ، ثم تغييرها ، وإقامة التماثيل لهم ، ثم تحطيمها .. وسمع من الشعارات ما ناقض بعضُها بعضًا ألف مرة ، ومن خطب القادة ما تغيّر فيها الاتجاه السياسى والاقتصادى تغيّرًا جذريًا مرّة كلّ سنتين أو ثلاث ، مع وصف الاتجاه الجديد فى كل خطبة بأنه الاتجاه السليم الحق ، وبأنه مستوحى من ضمير الأمة ورسالتها الخالدة ، وبأنه بداية حضارة جديدة ، (جديدة حقًا !) ، وتحقيق لحلم قديم ، (قديم حقًا !) ، ووَصف كلّ اتجاه غيره بأنه إمّا غباء ، أو انتهازية ، أو خيانة ... كلّ ذلك دفع شباب العرب دفعًا إلى أن يطرح ذاكرته وراء ظهره إلى الأبد ، وخلق لديه الاعتقاد بأنه إن كان لابدّ من العيش فلا مفرّ من أن يعيش بلا تاريخ ، وبلا قضية ، وبلا أحلام .

ما من نظام يسقط ، أو حاكم يموت ، أو وزارة تُقال ، إلا خال الشعب أن تغييرًا مهمًا بات على وشك الحدوث ، وأن الأمور قد تنصلح ، والدنيا قد تمتلئ عدلاً ونورًا كما مُلئت ظلمة وجورًا . ويتولّى الحاكم الجديد مقاليد السلطة ، فلا الظلمة تنكشف ،

ولا الظلم يزول .. ويتأجّل الحلم والأمل حتى يجيئ من يليه ، حتى إذا ظهر الثالث انتعش الحلم ثم خبا ، ثم ينتعش مع الرابع ثم يخبو ، ومع الخامس ثم يخبو . وكلّ حاكم جديد تتطلّع الأبصار إليه ، وينتظر الكلّ ما سيصدره هذا الساحر من قبّعته وبحركة من عصاه .. والله يعلم أن القبعة كثيرًا ما تكون خاوية كفؤاد أم موسى ، وأن العصا قد يكون التقطها من صندوق قمامة بالطريق .

ويتفوّه كل حاكم عربي في مستهلّ حكمه بعبارات مثل : سأساند قضية الفلسطينيين بكل ما في طاقتي ، وسأجاهد ضدّ المخططات الإسرائيلية حتى آخر قطرة في دمي ، وسأفعل كذا وكذا ، وأقضي على كذا وكذا ، وقد انتهى عهد كذا ، وطلع فجر كذا .. ثم يُطلق ما شاء من وعود ، ويقطع على نفسه ما أحبّ من عهود ، مزوّرًا الإحصاءات ، ومغيّرًا الوقائع والأرقام ، مصوّرًا الأوضاع الاقتصادية على أنها ورديّة ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، وستكون كافة الحقائق من الآن فصاعدًا أمام الشعب .. والهيكل العام لاقتصادنا – ولله الحمد – سليم بوجه عام ، شهد بذلك نائب مدير صندوق النقد الدولي ، وعدد من الخبراء الأجانب ، وصحيفة « ديلي نيوز » .. ويمكن بانتهاج سياسة الترشيد الإنمائي بدلاً من سياسة الإنماء الترشيدي السابقة التي ثبت فشلُها أن تحقّق الرخاء العميم ، والخير العظيم ، لأبناء شعبنا الكريم .

الطريق إذن جديدة هذه المرّة . وعلى الرعيّة أن تطيع لترى ما ستوصل إليه .. لقد انتُهجت في الماضي أربع سبل لم تؤدّ إلاّ إلى المذلّة والخراب . ولا بأس من تجربة خامس .. وإن شاء الله .. ويمكن .. وجايز .. وربّنا يعمل ما فيه الخير .

وتظلّ أمة العرب تُنقّل إيمانها وأحلامها وتطلّعاتها من حكومة إلى حكومة باعتبارها الحكومة الرشيدة . ثم يتبدّد الحلم مرّة بعد أخرى ، ويتكرّر اكتشافها كيف كانت مسيرتها وراء القائد تلو القائد عبثًا في عبث ، ومصيبة تليها كارثة . ولابدّ أن يأتي عليها اليوم الذي تفقد فيه الثقة نهائيًا في كل شيء ، وتصبح وهي لا تدري ما عساها أن تصدّق أو لا تصدّق .. حينئذ تضحي كالمعتوه القعيد في كرسيّه ، أو كالريشة في مهبّ الريح ..

وقد يجئ بعد ذلك شخص فى جعبته فكرة معقولة عن سبيل إصلاح الأوضاع ، ونصرة قضايا العرب ، عن كيفية مواجهة الهيمنة الأمريكية ، والتعامل مع الصَّلف الإسرائيلى ، فيومئ إلى شباب العرب أن هيّا نطرق هذا السبيل . فإذا الشباب يحدّق فيه فى بلاهة لا يفهم ما يقال له . وقد تبدر منه حركة وكأنما يهمّ بالنهوض. ثم إذا به يعدل عن القيام .. ويتثاءب .. ويشيح بوجهه عنه .. ويواصل قعوده بلا حراك .

أهذا إذن هو سرّ هذا الافتقار إلى الاكتراث الشائع بيننا ؟

أهو تبدّد أحلامنا القديمة وفقداننا الإيمان بكل شيء ؟

أهو إنهاك مبكّر أصاب قرائحنا ومخيّلتنا فى مجتمع يتحلّل تدريجيًا ، وينحدر إلى القاع ؟

هل تهدَّمت أخلاقياتنا من أساسها ، أم أننا كنا دائمًا مفتقرين إلى تلك الأخلاقيات ؟

غير أنه من المحتّم فى ظنّى أن يفهم العرب فى النهاية ، وأن يعجبوا عندئذ كيف عاشوا طويلاً هكذا فى ظلام لا يرون فيه بصيصًا من نور ، وكيف وصل الحال بهم إلى قبول مذلّة ومهانة لا حدود لهما من الولايات المتحدة وإسرائيل .

من المحتّم أن يتبيّنوا أن الخيار أمامهم بات بين واحد من ثلاثة :

بَهِيميّة مطلقة فى كلّ مناحى العيش ؛ أو الأخذ بنصيحة فولتير فى ختام روايته «كانديد» فيحصر كلٌّ منّا اهتمامه فى تعهّد حديقته الخاصة ؛ أو القيام بجهد جماعى انتحارى كجهد المكّابيّين ، الذين اختاروا فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد أن يقاوموا حتى الموت التهديد الحضارى الهيلينى لتراثهم وتقاليدهم فى فلسطين .

كان جهدهم - كما ذكرت - جهدًا انتحاريًا لم يحقّق طائلاً .. غير أنه جهد لايزال التاريخ يذكره فى إجلال ..

* * *

ـ ١٠ ـ

قواعد يُستضاء بها فى محاولة ترتيب السور والآيات القرآنية وفق تاريخ النزول

حيث شرعتُ فى ديسمبر ١٩٧٥ فى الإعداد لكتابة سيرة نبوية، أدركتُ على الفور أنه لابدّ لتحقيق هذا الغرض من البدء بترتيب السور والآيات القرآنية وفق تاريخ نزولها ، لما يُلقيه هذا الترتيب من ضوء ساطع على أحداث السيرة ، وعلى تطوّر الدعوة إلى الإسلام .

فالمعروف لدى الكافة أن ترتيب السور والآيات فى المصحف بين أيدينا ليس بالترتيب الزمنى . ففاتحة الكتاب مثلاً نزلت عام ٦١٤ ميلادية ، أى بعد أكثر من أربع سنوات من بدء نزول الوحى (عام ٦١٠م) ، وبينها وبين سورة العلَق التى تذهب غالبية العلماء إلى أنها أول ما نزل من القرآن ست وأربعون سورة .. وتلى الفاتحة فى المصحف سورة البقرة ، أول ما نزل من السور فى المدينة بعد الهجرة ، وتاريخ نزولها هو عام ٦٢٢م ، وترتيبها الحادية والتسعون . كما يعرف الجميع أن الكثير من السور المدنية تتخللها آيات مكية ، والسور المكية آيات مدنية ، وأن معظم سور جزء عمّ (فى آخر المصحف) من أوائل ما أنزل من القرآن .

وقد نهض عدد من المستشرقين ، من أمثال نولدكه ورودويل وميوير وجريمه وبيل وبلاشير ومونتجومرى وات ، بمحاولة الترتيب هذه . ورغم أن محاولة تيودور نولدكه فى كتابه الضخم « تاريخ القرآن » ، سنة ١٨٦٠ (الذى صحّحه وأضاف إليه بعد وفاته كل من شفالى وبرجشتراسر) هى أشهر وأهمّ تلك المحاولات طرًا ، فقد كانت أبرز نقاط الضعف فيه اعتباره معظم السور وحدات كاملة ، وهو ما تلافاه ريتشارد بيل ، ومونتجومرى وات حين قسّما السور نفسها إلى وحدات يتكوّن كل منها من مجموعة

صغيرة من الآيات .. ذلك أن القرآن - في معظم الحالات - إنما نزل في صورة مقطوعات قصيرة ، وقام مدوّنوه بعد وفاة النبي بضمّ بعضها إلى بعض ، دون مراعاة منهم لتاريخ النزول ، أو حتى لتسلسل المعاني ، فالذين يذهبون مثلاً إلى أن سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن ، لابدّ قد لاحظوا أن الآيات التالية للآيات الثماني الأولى منها تتحدّث عن تكذيب الكفار للنبي ، وتولّيهم عنه ، ونهيهم للنبي أو لأصحابه عن الصلاة ، وهو ما لا يمكن أن يكون قد انزل إلا في مرحلة متأخرة عن بداية الوحي ، وبالتالي فإنه لا يجوز معاملة السورة باعتبارها وحدة كاملة في أي ترتيب يلتزم بتاريخ النزول .

ولم يكن المستشرقون في واقع الأمر أول من حاول ترتيب السور والآيات ترتيبًا زمنيًا ، وإن جاءت محاولاتهم أكثر دقة ومنهاجية والتزامًا بدلالات اللغة والأسلوب والمفردات مما سبقها .. فقد سعت كثرة من علماء العرب والمسلمين إلى الوصول - قدر المستطاع - إلى هذا الترتيب ، بعد أن أدركوا أهميته خاصة فيما يتعلق بأحداث السيرة ، وبالناسخ والمنسوخ من الأحكام . وذهب الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب « التنبيه على فضل علوم القرآن » إلى أن « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية ، وما نزل ليلاً وما نزل نهارًا ، والآيات المدنيات في السور المكية ، والآيات المكية في السور المدنية » .. ، وغير ذلك من وجوه « مَنْ لم يعرفها ويميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلّم في كتاب الله تعالى» .. بل إن الكثير من المصاحف المطبوعة في أيدينا اليوم لا يتجاهل ترتيب النزول ، بل يذكر بعد اسم كل سورة أنها نزلت بعد سورة كذا ، أو يذكر أن السورة « مدنية إلا الآيات من كذا إلى كذا فمكية » ، أو العكس .. أضف إلى ذلك ما كتبه علماء المسلمين من كتب في «أسباب نزول القرآن» (أشهرها كتاب الواحدي) ، توضّح المناسبات والأحداث التي نزلت الآيات أو السور في خلالها أو بعدها مباشرة ، فنتمكن على ضوء معرفتنا بتاريخ الحدث من تحديد تاريخ نزول الآيات .

خلاصة القول أن علماء المسلمين لم يستنكروا أبدًا محاولة التعرّف على تاريخ النزول ، أو محاولة الترتيب الزمنى للآيات والسور . بالعكس ، قد أقرّوا الحاجة إليها ، وباركوا السعى فى سبيله .. ما استنكره الكثيرون منهم بقوّة ، ولا يزالون إلى اليوم يشجبونه ويناهضونه ، هو محاولة إعادة ترتيب السور والآيات فى المصاحف وفق تاريخ النزول .

كتب يوسف على فى مقدمة ترجمته الإنجليزية الشهيرة للقرآن يقول : « إن القرآن كان ينزل وفق الترتيب الذى سارت عليه الدعوة منذ بدئها حتى بلغت أوج الكمال . ولم يكن من الحكمة أن يُختار لتدوين الأجزاء نفس الترتيب الذى كان ملتئمًا مع سير الدعوة وتطورها . بل الأمر كان بحاجة إلى ترتيب جديد أشد تجانسًا بعد اكتمال الدعوة ، لأن المخاطبين الأولين فى بداية أمرها كانوا ممن يجهلون الإسلام بالكلية ، فلذلك غشاهم الوحى بأوليات التعليم وبديهيات الإيمان .، وإذ يجد القارئ الآن الآيات المكية تتخلّلها الآيات المدنية ، وتعاليم المرحلة الختامية تواكبها تعاليم المرحلة الابتدائية ، يلمح أمام عينيه منظر الإسلام الكامل ، وتخطيطه الشامل . أما الذين يعترضون على الترتيب الحالى للقرآن فيظنون عن سوء فهم أن هذا الكتاب قد أنزل إلى طلبة علم التاريخ وعلم الاجتماع .. كذلك فإن الترتيب الحالى ما قام به الذين جاءوا بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، بل هو توقيفى وضعه النبى بنفسه بتوقيف من جبريل . وكان من عادته كلما نزلت سورة أن يدعو بعض كُتّابه ، ويأمر بكتابتها وبوضعها عقب سورة كذا ، وقبل سورة كذا . كذلك حين تنزل آية أو بضع آيات ولم يرد جعلها سورة مستقلة، كان يأمر بوضعها فى موضع كذا من سورة كذا . ولهذا كان من الثابت تاريخيًا أن اليوم الذى أُكمل فيه نزول القرآن أُكمل فيه ترتيبه ، ومُرتِّبه هو الذى أنزله، وما كان لأحد غيره أن يتدخل فيه » .

غير أن الكثيرين اليوم لا يقبلون مثل هذه الحجة ، ولا هذا الإيحاء بأن القرآن كان قد دُوّن كتابة ورُتبت سوره وآياته قبل وفاة النبى . فالقول بأن النبى كان يرتب السور والآيات بتوقيف من جبريل ويأمر بكتابتها ليس من الثابت تاريخيًا ، بل ويتعارض

تعارضًا صارخًا مع ما ذكرته كتب تاريخ الفترة التالية لوفاة النبى عن خشية عمر من «ذهاب كثير من القرآن » بعد مقتل عدد كبير من قرّاء القرآن فى موقعة اليمامة ، وعن تردّد أبى بكر فى الأخذ بنصيحة عمر أن يشرع المسلمون فى جمع القرآن ، قائلاً : «كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله فى حياته ، ولم يأمرنا بفعله بعد وفاته ؟ » .. كذلك فلو كان القرآن قد أُكمل ترتيب السور والآيات فيه قبل موت النبى ، لما وجد زيد بن ثابت ورفاقه المكلفون بجمعه ما وجدوه فى سبيل ذلك من مشقة عظيمة ، (قال زيد : والله لو كلّفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرونى به من جمع القرآن) ، ولما احتاجوا إلى مثل تلك المدة الطويلة التى استغرقها عملهم فيه ، «يتتبّعون سوره وآياته من العُسُب واللّخاف والرقاع والأكتاف وصدور الرجال» ، و«يؤلفون آيات السور باجتهادهم» ، (ابن حجر العسقلانى) .

غير أننا نؤجّل الحديث تفصيلاً فى هذا الشأن إلى موضع آخر ، ونكتفى هنا بالقول :

أولاً : إن الأكثرية من المسلمين رغم أخذها بمفهوم التطور بصدد بعض الآيات والأحكام (كتحريم الخمر الذى جاء تدريجًا لا بصورة مباغتة) ، تأبى قبول هذا المفهوم الحديث فى الحالات الأخرى ، وترفض تفسير الأحكام القرآنية على ضوء تطور أحداث السيرة النبوية .

وثانيًا : إن علماء الدين فى العالم الإسلامى يميلون عادة إلى الجمود ومحاربة كل جديد أو بدعة ، ويحذرون الحذر كله من أى مساس بالمألوف وبما جرى عليه العمل لمئات من السنين ، حتى لو كان فى هذا المساس مصلحة .

وثالثًا : إن بعض هؤلاء العلماء يخشى أن يؤدى ترتيب السور والآيات ترتيبًا زمنيًا إلى توضيح تطور الدعوة وبيان مراحلها ، ويخشى أن يؤدى القول بتطور الدعوة إلى إنكار المصدر الإلهى للقرآن . وعلى سبيل المثال فإن ثمة فى القرآن آيات تُثنى على اليهود ، وأخرى تلعنهم . فإن نحن رتبنا كل الآيات التى نزلت فيهم على ضوء إعجاب النبى قبل الهجرة بالديانات السماوية الأخرى وأتباعها ، ثم محاولته فى أول عهده

بالمدينة إقناع اليهود بنبوّته ، ثم غضبه عليهم بعد ذلك إذ أصرّوا على تكذيبه ومحاربته إياهم ، فقد يتبادر إلى أذهان بعض المسلمين أنه لو لم يختلف النبى معهم لما نزلت الآيات التى تلعنهم .. أما الإبقاء على الترتيب القائم فى المصاحف اليوم ، فإذا الآيات الساخطة عليهم تعقبها آيات تمتدحهم ، تليها آيات تسبّهم ، فمن شأنه أن يجنّب المسلمين الوقوع فى مثل تلك الأخطار .

على أية حال ، ففى ظنى أن عدم ترتيب السور والآيات فى المصاحف بين أيدينا وفق تاريخ النزول ، أمر ساهم مساهمة خطيرة فى حجب مفهوم تطور الدعوة النبوية عن المسلمين .. كذلك فقد أدركت وقت شروعى فى كتابة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه لابدّ لى من أن أبدأ بإعداد مصحف خاص بى ، لا أكتفى فيه بترتيب السور ، بل وترتيب آيات السور نفسها وفق تاريخ النزول ، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً . وقد أتممت هذا العمل مستعينًا بقواعد هادية ورد معظمها فى كتابات كبار علماء المسلمين وكبار المستشرقين على سواء فى هذا الموضوع . وفيما يلى بيان عدد من هذه القواعد :

• عدد سور القرآن ، مكية ومدنية ، ١١٤ سورة بإجماع من يُعتدّ به . وقيل ١١٣ بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة . وفى مصحف عبد الله بن مسعود ١١٢ سورة لأنه لم يُضمِّنه المعَوِّذتين (الفلق والناس) . وفى مصحف أُبَى بن كعب ١١٦ ، لأنه أضاف فى آخره سورتى الحَفْد والخَلْع : سورة الحفد (بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم إياك نعبد . ولك نصلى ونسجد . وإليك نسعى ونحفِد . نرجو رحمتك . ونخشى نقمتك . إن عذابك بالكافرين ملحِق) . وسورة الخلع (بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم إنّا نستعينك ونستغفرك . ونُثنى عليك ولا نكفُرك . ونخلع ونترك من يفجُرك) .

• السور المكية هى ما نزل قبل الهجرة (من بدء الوحى عام ٦١٠م حتى عام ٦٢٢ ، والسور المدنية ما نزل بعد الهجرة من عام ٦٢٢ إلى آخر ما نزل من السور) ، سواء نزل بالمدينة ، أو نزل بمكة عام الفتح أو عام حِجّة الوداع ، أو بسفر من الأسفار .. وفى قول ثان : إن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة ، أما ما

نزل بالأسفار فلا يُطلق عليه مكى ولا مدنى . وفى قول ثالث : المكى ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدنى ما وقع خطابًا لأهل المدينة . والمعمول به هو القول الأول .

- عدد السور المكية تسعون ، والمدنية أربع وعشرون . وتتألف المكية من ٤٧٧٣ آية ، والمدنية من ١٤٦٥ آية ، فيكون مجموع الآيات ٦٢٣٨ .

- يقسّم نولدكه السور المكية إلى ثلاث مجموعات ، تنتمى إلى ثلاث فترات :

١ – الفترة المكية الأولى : (من عام ٦١٠م إلى ٦١٤م) . وفيها بداية الوحى ، وشروع النبى فى دعوة أهل بيته وأصحابه المقرّبين إلى الإسلام سرًّا قرابة ثلاث سنوات ، ثم مبادأة النبى قومه بالدعوة عام ٦١٣ .. وقد نزلت فى هذه الفترة ثمان وأربعون سورة على الترتيب التالى :

العلَق – المدثر – المسد – قريش – الكوثر – الهُمَزَة – الماعون – التكاثر – الفيل – الليل – البلد – الشَّرْح – والضحى – القَدْر – الطارق – الشمس – عبس – القلم – الأعلى – التين – العصر – البروج – المزمّل – القارعة – الزلزلة – الانفطار – التكوير – النجم – الانشقاق – العاديات – النازعات – المرسلات – النبأ – الغاشية – الفجر – القيامة – المطففين – الحاقة – الذاريات – الطور – الواقعة – المعارج – الرحمن – الإخلاص – الكافرون – الفلق – الناس – الفاتحة .

وتتميز سور هذه الفترة بأن معظمها قصير ، وآياتها قصيرة إيقاعية مليئة بالمجاز وبالعاطفة المتأجّجة وبالشاعرية والمخيلة الخصبة، وبأنها كثيرًا ما يرد فى مستهلّها قَسَم، وبكثرة استخدام عبارة «وما أدراك» (١٣ مرة) ، وعبارة «وما يدريك» ، ولم يرد فيها اسم «الرحمن» غير مرّة واحدة (سورة الرحمن ١) .

٢ – الفترة المكية الثانية : (سنتا ٦١٤ و٦١٥م) . وفيهما رفض المشركين للدعوة وبداية اضطهادهم للمؤمنين ، ودخول النبى دار الأرقم ، ثم هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة . وقد نزلت فى هذه الفترة واحدة وعشرون سورة على الترتيب التالى :

القمر - الصافات - نوح - الإنسان - الدخان - ق - طه - الشعراء - الحِجْر - مريم - ص - يس - الزخرف - الجن - المُلْك - المؤمنون - الأنبياء - الفرقان - الإسراء - النمل - الكهف .

وفى سور هذه الفترة تركيز تام على عقيدة التوحيد . وتتميّز بالتحوّل عن حماس سورة الفترة الأولى إلى هدوء فى التعبير ، وبمحاولة إقناع المخاطبين بالأدلة والبراهين ، مع بيانٍ وتفسير للتعاليم الأساسية مدعمة بالعديد من الأمثلة من الطبيعة التى تتجلّى فيها قدرة الخالق ، ومن قصص الأنبياء . ويتركز الحديث عن الأنبياء على أوجه الشبه بين ما حدث لهم وما يحدث لمحمد صلّى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالته، من أجل تحذير أعدائه وترهيبهم ، وطمأنة أصحابه وتهدئة روعهم .. ونلمس فى هذه السور تغيرًا طرأ على الأسلوب ، كالانحسار التدريجى فى استخدام القَسَم ، وورود مقدمات مثل (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) . وهى سور أطول من سور الفترة الأولى ، كثيرًا ما يسبق الآيات فيها كلمة « قُل » ، وكثيرًا ما يرد بها اسم « الرحمن » الذى لم يكن مألوفًا لدى أهل مكة .

٣ - الفترة المكية الثالثة : (من عام ٦١٦ إلى عام الهجرة ٦٢٢م) . وفيها كانت مقاطعة قريش لبنى هاشم (مدة عامين أو ثلاثة) ، وإسلام حمزة وعمر ، ووفاة أبى طالب وخديجة ، ورحلة النبى إلى الطائف ، واعتناق بعض أهل المدينة للإسلام ، ثم بيعتا العقبة الأولى والثانية ، وقصة الإسراء . وقد نزلت فى هذه الفترة واحدة وعشرون سورة على الترتيب التالى :

السجدة - فُصّلت - الجاثية - النحل - الروم - هود - إبراهيم - يوسف - غافر - القصص - الزُمَر - العنكبوت - لقمان - الشورى - يونس - سبأ - فاطر - الأعراف - الأحقاف - الأنعام - الرعد .

والأسلوب هنا أقرب إلى النثر ، وأكثر شبهًا بأسلوب السور المدنية ن وفيها يختفى القَسَم تمامًا ، ويندر استخدام كلمة «الرحمن » ، ويتنقّل الحديث من موضوع إلى

موضوع ، وتتكرر موضوعات الفترة الثانية ، وكذا الحديث فى قصص الأنبياء مع تغيير طفيف فى التوكيد .

الفترة المدنية ، وتبدأ بالهجرة . وقد نزلت فيها أربع وعشرون سورة بالترتيب التالى :

البقرة - البيّنة - التغابن - الجمعة - الأنفال - محمد - آل عمران - الصفّ - الحديد - النساء - الطلاق - الحشْر - الأحزاب - المنافقون - النور - المجادَلة - الحج - الفتح - التحريم - الممتحنة - النصر - الحجرات - التوبة - المائدة .

وهنا تغيير جذرى فى الموضوعات . فالنبى الآن بين جماعة تسانده ، أصبح بعد حين سيدها وقائدها فى الحرب . ومجتمع المدينة فى حاجة إلى تنظيمات وشرائع أوردتها السور ، كما أوردت إشارات عديدة إلى ما يجرى من أحداث . فى أسلوب نثرى الطابع ، يختلف اختلافًا بيّنًا عن شاعرية السور الأولى .

● الترتيب الذى حاوله المصحف بين أيدينا (سورة كذا نزلت بعد سورة كذا) ، قائم على أساس وقت نزول معظم آيات السورة ، وأحداث السيرة النبوية ، وأقوال مفسرى القرآن . وهذا الترتيب له قيمته ، وهو أساس كل بحث فى الموضوع . وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من احتواء السور المدنية لآيات مكية ، والسور المكية لآيات مدنية ، فإن معظم الآيات فى السورة الواحدة هى فى رأى المفسرين المسلمين متقاربة الزمن .

● تذهب غالبية علماء المسلمين - كما سبق القول - إلى أن الآيات الثمانى الأولى من سورة العلق هى أول ما نزل من القرآن ، بينما يذهب فريق إلى أن أول ما نزل هى سورة المدثر .

● لابد من الاستعانة بكتب السيرة فى ترتيب السور والآيات على ضوء أحداث حياة النبى ، خاصة فى الفترة المدنية ، أما عن الفترة المكية فترتيب ما نزل خلالها أصعب

بكثير ، حيث أن سورها لا تشير فى العادة إلى أحداث معينة . وحتى لو أنها أشارت إلى أحداث ، فإن هذا لن يساعدنا كثيرًا ، بالنظر إلى أن الترتيب الزمنى لهذه الأحداث نفسها فى كتب السيرة مختلف عليه ، وتصعب الثقة فيه .. ومن الاستثناءات النادرة لهذه القاعدة سورة الروم التى تشير إما إلى انتصار الفرس على البيزنطيين (الروم) عند أذرِعات عام ٦١٣ ، أو استيلاء الفرس على دمشق والقدس عام ٦١٤م . كذلك يمكن القول ببعض الثقة بأنَّ سورة النجم نزلت بعد هجرة طائفة من المسلمين إلى الحبشة عام ٦١٥ .

- كان التحذير من اقتراب الساعة موضوعًا رئيسيًا فى السور الأولى . أما الكلام فى التوحيد فيبدأ مع الآية التاسعة من سورة المزّمل (ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتّخذه وكيلاً) . وأما القطيعة النهائية مع المشركين فجاءت مع سورة الكافرون (لكم دينكم ولى دين) ، بعد مواجهتهم فى سورة الإخلاص بفكرة وحدانية الله (قل هو الله أحد) .

- السور المكية فى العادة سور قصيرة معظمها وحدات كاملة (أى نزلت دفعة واحدة) . غير أن بعض السور الأطول هى أيضًا وحدات كاملة مثل سورة يوسف وسورة الرحمن .

- نزل القرآن فى معظم الحالات فى صورة مقطوعات قصيرة ضُمّ بعضها إلى بعض فيما بعد . وثمّة آيات أُلحقت بآيات لمجرد أن زيد بن ثابت ومعاونيه وجدوها فى صحيفة واحدة ، أو دوّنوها بعد ذلك فى صحيفة واحدة . ومن أدلة ذلك تلك النقلة المفاجئة بين الآية الخامسة والآية السادسة من سورة العلق ، والنقلة بين الآية العاشرة والآية الحادية عشرة من سورة المدثر .. ويعتبر تقسيم ريتشارد بيل (ومونتجومرى وات من بعده) للسور إلى الوحدات المكوّنة لها من مجموعات الآيات أحظى التقسيمات بالقبول .

- تغيّر القافية لا يعنى انقطاع الآيات ، أو انقطاعًا فى اتصال المعانى .

- ثمّة عودة من حين إلى حين إلى الآيات القصار فى الفترة المدنية ، بل وإلى السور القصار الشبيهة بالسور المكية القصيرة ، كسورة النصر مثلاً ، أو سورة المسدّ إن صحّ أنها نزلت بعد وصول الخبر بوفاة أبى لهب عقب موقعة بدر .

• تتحدث أوليات السور أساسًا عن ضرورة الإقرار بنعم الله على الخلق ، وضرورة الحمد ، وعن قدرة الله ورحمته ، دون أن تتضمن إشارة إلى معارضة من جانب أهل مكة . أما الآيات التى تتحدث عن عذاب الجحيم ، وما أُعدّ فى الآخرة من عقاب للكافرين ، أو التى تهاجم عبادة الأوثان ، فنزلت بعد ظهور المعارضة للنبى نتيجة ضيقها ببعض ما تضمّنته السور من تعاليم . كذلك بدأ حديث القرآن عما يدّخره الله للكافرين فى الحياة الدنيا ، مستشهدًا بما حدث لمن كذّبوا الأنبياء من قبل ، مع إيراد وصف مفصّل لعذاب الجحيم ، ومباهج الجنة .

• فى أواخر الفترة المكية بدأت الإشارة إلى الملائكة كمبلّغة للوحي .

• ورد وصف المشركين بالمجرمين فى سور الفترة المكية الثالثة ، وأوليات السورة المدنية .

• استخدمت كلمة « الكافرون » فى السور المكية والمدنية على سواء ، بينما اقتصر استخدام كلمة « الكفار » على السور المدنية دون المكية .

• الآيات التى تناقش الوثنيين فى البعث ووحدانية الله ، والتى تنفى وصف النبى بالساحر أو الشاعر أو المجنون ، والتى تستنكر وأد البنات والتكاثر والتغابن وتطفيف الميزان وأكل مال اليتيم ... آيات مكية .

• الآيات التى تتحدّث عن إرسال الله لأكثر من رسول إلى أمة واحدة (ويقصد بها اليهود عادة) نزلت إما فى أواخر الفترة المكية أو فى الفترة المدنية .

• الآيات التى تستشهد بأهل الكتاب للتدليل على صدق دعوة النبى ، أو تذكر أن القرآن جاء مصدّقًا للتوراة والإنجيل ، إما مكية ، أو نزلت - وهو الغالب - خلال العامين التاليين للهجرة إلى المدينة وقبل موقعة بدر حين احتدم الخلاف مع اليهود .

• معظم سورة البقرة (وهى أول ما نزل بالمدينة من القرآن) نزل فى العام الثانى من الهجرة ، وإن كان بعض الآيات فيها نزل فى أواخر الفترة المدنية . أما آياتها من ٢١ إلى ٣٩ ، ومن ١٦٣ إلى ١٧١ فنزلت بمكة .

• الآيات التى وردت بها كلمتا « المهاجرون » و« الأنصار » ، أو التى تتحدث عن نساء النبى ، هى بطبيعة الحال مدنية .

• كافة الآيات التى تحضّ على الجهاد ، أو تتحدث عن جهاد للمسلمين ، مدنية ، وكذا الآيات التى تهاجم الخيانة والفساد ، أو تتناول المجتمع الإسلامى بالتنظيم ووضع التشريعات المدنية والجنائية له ، أو تذكر الحدود .

• الآيات التى تحثّ على طاعة الرسول ، وتستخدم عبارة « الله ورسوله » ، مدنية .

• معظم الآيات التى وردت بها كلمتا « فتنة » و« شقاق » آيات مدنية .

• الآيات التى ترد بها عبارة « الذين فى قلوبهم مرض » أو كلمة « المنافقون » مدنية . وقد استخدمت كلمة « المنافقون » لأول مرة عقب موقعة أُحد ، وإن كانت فى أواخر الفترة المدنية تشير إلى طائفة أخرى من الناس غير أصحاب عبد الله بن أُبى .

• عبارة « الذين ظلموا » التى قُصد بها اليهود فى أغلب الأحيان ، ترد فى السور المدنية .

• الآيات التى وردت بها كلمة « نبى » ، ومعظم الكلمات الأخرى التى هى من أصل عبرى (مثل أوّاه ، وراعنا ، وربانيون ، ورمزًا ، وفُوم ، ومرقوم ، وهُدْنا .. إلى آخره مما أحصاه السيوطى فى كتابه «الإتقان فى علوم القرآن ») آيات مدنية . أما السور المكية فتصف محمدًا بالرسول .

• بعد القطيعة مع اليهود فى المدينة بدأت الإشارة فى القرآن إلى أن محمدًا أوتى الكتاب ، كما بدأ استخدام كلمتى « الإسلام » و«مسلم» وكلمة «أسلم» بمعنى الدخول فى الدين الجديد .

• تحدثت سور مكية عن أن الله لم يرسل إلى العرب قبل محمد رسولاً كما أرسل إلى غيرهم من الأمم (السجدة ٣ ، سبأ ٤٤ ، يس ٦) . وقد أشارت السور المكية إلى أن لإبراهيم شأنًا كبيرًا بين الأنبياء (مريم ٤١ وما بعدها) . غير أنها لم تميّزه عن غيره

ولا تحدثت عن صلته بالعرب . فإن وصفته بالحنيف فبالمقارنة بالمشركين (الأنعام ٧٩، النحل ١٢٠، يونس ١٠٥) ، تمامًا كما وصفت محمدًا بالحنيف . أما إشارتها إلى «ملة إبراهيم» (الأنعام ١٦٢، والنحل ١٢٣) فالمقصود بها التوحيد (كما فى حديث يوسف فى الآية ٣٨ من سورة يوسف). غير أن الآيات التى نزلت فى المدينة بعد استعار الخلاف مع اليهود ، تذكر أن إبراهيم حلّ بمكة هو وابنه إسماعيل حيث طهّرا الكعبة ورفعا قواعدها (البقرة ١٢٥ - ١٢٩، آل عمران ٩٥ - ٩٧) ، وهو ما لم يرد فى سورة القصص ٥٧ ، أو العنكبوت ٦٧ . فإن وصفت الآيات المدنية إبراهيم بالحنيف فليس ذلك بالمقارنة بالمشركين وحدهم ، بل باليهود والنصارى أيضًا (آل عمران ٦٧، والنساء ١٢٥، والبقرة١٣٥). فملة إبراهيم قد أضحت هنا نموذجًا للديانة النقيّة الخالصة التى جاء الإسلام ليعيدها إلى صورتها الأولى (البقرة ١٣٠ و١٣٥، آل عمران ٩٢، النساء ١٢٥)، وذلك حيث أن التوراة والإنجيل إنما أنزلا بعد زمن إبراهيم ، وهما الكتابان اللذان امتدت إليهما أيدى اليهود والنصارى بالتحريف .. لهذا كله يمكن اعتبار الآيات ٢٨ - ٣٧ من سورة إبراهيم ، و٢٦ و٧٨ من سورة الحج ، و١٦١ من سورة الأنعام، و١٢٣ من سورة النحل ، آيات مدنية .

● يختلف المفسرون المسلمون فى تحديد آخر ما أنزل من السور والآيات . فالبعض يقول سورة المائدة ، والبعض سورة التوبة ، والبعض سورة النصر . ويذهب فريق إلى أن الآيات ٢٧٨ إلى ٢٨١ من سورة البقرة هى آخر ما أنزل من القرآن ، بينما يرى آخرون أنهما الآيتان ١٧٤ و١٧٥ من سورة النساء ، أو جزء من الآية الثالثة من سورة المائدة ، أو الآيات ١٢٨ وما بعدها من سورة التوبة . والأرجح أن يكون الجزء المشار إليه من الآية الثالثة من سورة المائدة هو آخر ما نزل ، وذلك أثناء حجة الوداع عام ٦٣٢م : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام دينًا) .

* * *

- ١١ -

هل الحوار بين الأديان ممكن ؟
وإذا كان ممكنًا ، فهل هو مفيد ؟

لطالما لَمَسْنا فى العالم الإسلامي، وفى غيره ، أن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هى تلك التى تسود بين الملحدين ممّن تلاشت لديهم العقيدة ، وجَمَع بينهم الشكُّ فى صحة الأديان جميعًا .. هنا يختفى التعصّب وضيقُ الأفق ، والشك المتبادلُ والحيطةُ والحذر ، ويصبح من المتصوَّر ومن الممكن أن تقوم الصداقةُ الحرّة ، والألفة الحقيقية ، حين يكون شعارُهم بيتّ الشاعر القروى :

سلامٌ على كفرٍ يوحّد بيننا   وأهلاً وسهلاً بعده بجهنّم!

وربما وافقنى الكثيرون على أنه من المؤسف أن يكون للإلحاد مثلّ هذا الفضل ، ولا يكون للعاطفة الدينية ، وأنه من المحزن أن نرى المتديّنين فى كافة الطوائف وقد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشكّ إزاء متديّنى الطوائف الأخرى ، فى الوقت الذى تجابه الأديانُ جميعًا قوى عاتيةً تُعارضها وتسعى إلى هدمها ، تتمثّل فى المادية المفرطة، وفى نمط الحياة المعاصرة . وقد زاد عددُ أولئك الذين بات الدينُ لا يلعب دورًا كبيرًا أو صغيرًا فى حياتهم ، ولا يعرفون القيم الدينية ، التى هى إحدى الوسائل المهمة لمقاومة فقر الحياة فى المجتمع الحديث . فبدون هذه القيم يصعب أن يكون ثمة سلوكٌ متجانس ، ويضحى سلوكُ الفرد فى أغلب الأحيان مجموعةً من التصرّفات ، وردود الفعل لا رابط يجمع بينها .

وقد أحسّت الكنائس المتصارعةُ فى الغرب بهذا الخطر الذى بات يتهدّدها جميعًا، فسعت بقدر كبير من النجاح إلى رأب الصدع بينها، وفتْح باب الحوار من أجل إقامة جبهةٍ متحدةٍ ضدّ العدوّ الحقيقى ، بل ومدّت يدها إلى اليهودية وإلى الإسلام للمشاركة فى الدفاع، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد احترام الدين فى حدّ ذاته ، وتقدير العاطفة

الدينيـة حيثمـا وُجدت ، وأيًّـا كـان موضوعُها ، فـى سبيل إحداث التقـارب ، وتحقيـق التلاقى .

غـير أن بعض هـؤلاء يخطئ حين يـذهب ، مـن أجـل دعـم هـذا الحـوار ، إلى أن الاختلافات بين الأديـان ظاهريـةٌ أكثـر منهـا حقيقيـة ، وأنهـا جميعًـا متفقـةٌ فـى جوهر تعاليمهـا ، وأنـه بالوسع التوفيـقُ بينهـا ، وتوحيـد أسسـهـا ، كخطوةٍ فى سبيل تعزيـز التسامح الدينى .. مثلُ هـذا الموقف التوفيقى يضع نفسـه فوق الأديـان كافـة ، وينتحل صفة الإله وامتيازاته ، ويُحلّ الفلسفة محلّ الدين ، وهو بالتالى موقفُ لا دينـى . وعنـدى أن كلّ معايشةٍ ، وكلَّ حوار بين الأديـان ، يفقدان مغزاهمـا مـا لم يكونـا دينيين . ولـو صحّ هذا الرأى منهم لصارت حصيلةُ الفكر البشرى أشدَّ فقرًا وضحالةً مما هى عليه اليوم . فلو كانت الأديان جميعًا على اتفاق لما كانت ثمة حاجةٌ إلى أكثر من دين . وإنما هى رؤى متباينةٌ يعكس كلٌّ منها مفهومًا مختلفًا عن الكون والحيـاة والسلوك البشـرى الواجب . وليس إله هذا الدين بإله ذاك . فما الإلهُ غير حصيلة مكوّنات هذه الرؤية المباينـة للـرؤى الأخرى .

والاعترافُ بهذه الحقيقة التى يدركها فى قرارة نفسه كلُّ ذى ديـنٍ يأبـه لـه ، خطـوةٌ إيجابيـةٌ فـى سـبيل أى حـوار بنّـاء بـين أتبـاع الأديـان المختلفـة ، شـريطة أن يسـتقرّ فـى النفوس مبدأٌ أساسـى : هـو أن كـلّ رؤيـةٍ تحمـل جانبًـا مـن الحقيقـة لم تركّـزْ عليـه سـائرُ الرؤى، وأن ثراء الروح البشرية والفِكر الإنسانى هو فى الاطلاع على كُنْه تلك الـرؤى المباينة ، ومحاولـة الغوص إلى أعماقِها للاستفادة من الجديـد الفريـد الإبداعى المتميّـز فيها ، وأن معيار رقى الفرد وعظمته الروحية هو مدى فهمه وتوقيره لكافة ضروب الفكـر التى أسهمت فى تشكيل البشرية .

هنا فقط يمكن أن يكون الحوارُ بين الأديان مجديًا . ذلك أنه ما من امرئٍ يدخُل فى حوار - دينى أو غيره - دون أن تَحْدُوَهُ من البداية الرغبـةُ فى إدراك الحق ، إلا خـرج من الحوار وهو على رأيه الأول الذى دخله به .. يقول الإمامُ الشافعى : « ما ناظرتُ أحدًا قط فأحببتُ أن يخطئ ، وما كلمت أحدًا وأنا أُبالى أن يبيّن الله الحقَّ على لسـانى أو على لسانه » .. فهنا إدراكٌ لحقيقة أن الاستفادة ، لا الانتصار على « الخصم » ، هى مـا ينبغى

أن تدورَ المناظرةُ من أجله ، وما من شأنه أن يهيئ أنسب مناخ للحوار . أما الرغبة فى الانتصار ، والإفحام ، وفضْح حجج الخصم وتفنيدها ، فلا مفرَّ معها من لجوء المحاور إلى إخفاء الحقائق ، وإلى الاختراع والتلفيق ، وإلى الكذب .. وقد قرأنا فى التاريخ كيف أن مسلمى عصر الفتوحات فى زمن الخلافة الراشدة والعصر الأموى حين شرعوا يدخلون فى حوارات مع أهل الذمّة فى الأقطار المفتوحة ، اضطروا حين حدّثهم هؤلاء عن معجزات لأنبيائهم وعن نصوصٍ فى كتبهم المقدسة ، اضطروا إلى نسبة عددٍ متزايدٍ من المعجزات إلى نبى الإسلام لم يذكرْها قرآن أو روايةٌ موثوقٌ بها من السيرة ، واقتبسوا من الكتاب المقدس من الأحاديث ما نسبوه أيضًا إلى النبى ، وركّزوا أحيانًا أخرى على القول بتحريف ذلك الكتاب المقدس .

هنا يمكن أن يكون الحوارُ بين الأديان ضارًا ومضلّلاً .. غير أن ثمة آفةً أخرى فى الحوار من أجل الانتصار نجدها فى الالتجاء أثناءَه من أجل إفحام الخصم إلى الاستشهاد بنصوص من كتب مقدسة ، لا يعترف الخصم بمصدرها الإلهى ، وكأنما فى مجرّد إيرادها حجّةٌ دامغةٌ على صحة الرأى .. عندئذ يُنسف أساسُ الحوار نسفًا ، وهو ما نلحظه يوميًا تقريبًا فى المناظرات التليفزيونية والحوارات الصحفية والندوات عندنا بين علماء الدين والمفكرين العلمانيين حين يُواجه الأوّلون الأخيرين بنصوصٍ دينيةٍ لا يجرؤ العلمانيون على إنكار صحتها والمجادلة بشأنها وإلا أصابهم من وراء ذلك شرٌ مستطير .. وأرى هنا مناسبةً أن أذكر نصًا فريدًا أورده الحُمَيْدى فى كتابه « جَذْوة المقتبس » عن كيف أن العالم الأندلسى أحمد بن محمد بن سعدى زار بغداد فى عصر البويهيين وحضر مجالس أهل الكلام فيها . وهى مجالس جمعت الفرق كلّها ، من مسلمى السُّنّة والشيعة والمجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر الأديان والمذاهب ، لكلِّ فرقةٍ رئيسٌ يتكلّم على مذهبه ويجادل عنه . وكان شرطُ الحوار والمناظرة ألا يحتجَّ أحدٌ على غيره بكتابه المقدس ولا بقول نبيّه ، حيث أن الآخرين لا يصدّقون بذلك أصلاً ولا يُقرّون به « وإنما نناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس » .

وأخيرًا فإنه لابد من الاعتراف – رغم كل شيء – بأن الأديان بطبيعتها تتنافس فيما بينها على أرواح البشر . وهى بالضرورة غيورةٌ متميزةٌ شأن مشاعر القبلية

والوطنية . ولا يكمن خطأُ المتعصّب فى اعتقاده أن دينه هو أفضل الأديان . فهو أمرٌ طبيعى ومشروع . ولو لم يرَ المرءُ لدينه الحقَّ فى الشمولية والعالمية لما كان هذا دينه . فهو لا يلتمس لنفسه طريقًا ، وإنما يلتمس الطريق ، ولا يسعى وراء حقيقةٍ ، وإنما يسعى وراء الحقيقة . وإنما يكمن خطؤه فى عجزه عن إدراك ما يدور بين الله وروح المؤمن من أتباع الديانات الأخرى ، وعن فهم حقيقة أنه ليس ثمة دينٌ خاطئٌ إن كان معتنقوه يَرَوْنَه كافيًا لسدّ احتياجاتهم الروحية والحياة الفاضلة على هَدْيه . كذلك يكمن خطأُ المتعصّب فى عزله نفسه عن الجوانب الإيجابية فى الأديان الأخرى ، واتّخاذه لمُعْتَقَدِه مقياسًا للحكم على معتقدات الآخرين . ومن هنا تأتى أهميةُ الحوار وضرورة التلاقيح والتلاقى . فما تلاقى الأديان غير مظهرٍ واجبٍ آخر من المظاهر المتزايدة لتلاقى الحضارات والشعوب فى عصرنا هذا . ولا يعنى ذلك مطالبة أتباع أى دينٍ باطّراح أية حقيقةٍ جوهرية فيه. وإنما يعنى تجاوزنا الاستماع فى صبر ، والجدال فى أدب، إلى التفتّح الذى يمكّننا من الاستفادة والتعلّم من الآخرين ، بل وإلى تصحيح بعض مفاهيمنا عند الضرورة ، وإلى التفرقة بعناية أكبر بين الجوهرى وغير الجوهرى فى الدين ، وبين الرمزى وغير الرمزى ، ثم إعادة صياغة الجوهرى ، وإعادة تفسير الرمزى .

وهنا يكمنُ الأمل فى أن يدركَ هؤلاء وأولئك أن إقدام المرء على تعميق فهمه لديانات الآخرين يعنى تعميق فهمه لدينه هو ، وأن المتديّن الحقَّ ليس من كان بوسعه تفنيدُ الأديان الأخرى ، والسخريةُ من معتقدات أهلها كما يفعل بعض الدجّالين فى كتاباتهم وبرامجهم التليفزيونية والإذاعية ، وإنما المتدينُ الحقُّ هو من كان بمقدوره أن يميّز الحقائق الواردة فى الديانات المباينة ، ثم ينتقل بعدها إلى ما هو أبعد من ذلك .

* * *

- ١٢ -

المصلحون الإسلاميون بين شقّى الرّحى

زعماء الإصلاح الدينى فى العالم الإسلامى صنفان من الناس : صنف من أمثال ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ، ساءته غلبةُ البدع المستحدثة ، والممارسات الدخيلة على الإسلام ، فبرز لمقاومتها ومحاولة استئصالها ، وصنفٌ ظهر نتيجة الاحتكاك بالحضارة الغربية ، والانبهار ببعض مظاهرها ، والتأثر بعدد من أفكارها وقيمها ، أو بكتابات مستشرقيها ، وأيقن أنه لا سبيل إلى إنقاذ العالم الإسلامى من ورطته ، وإنهاضه من كبوته ، إلا بالتوفيق بين التراث الدينى والأخلاقى للأمة ، وبين ثمار المدينة الحديثة . وربما كان أول هؤلاء المصلحين السيد أحمد خان فى الهند ، ثم تبعه جمال الدين الأفغاني ، والسيد أمير على ، وعبد الرحمن الكواكبى ، والشيخ محمد عبده ، وعبد الرءوف فطرة ، وعشرات بل ومئات غيرهم .

فإن تأمّلنا سيرة أفراد هذا الصنف الثانى وجدنا الغالبية العظمى منهم أناسًا متعلّقين بإسلامهم ، حريصين على البقاء عليه ، متمسّكين بانتمائهم إلى الأمة التى نشئوا بين ظهرانيها ، مخلصين للهويّة التى ورثوها وتقبّلوها بالرضا .. غير أنهم كانوا فى نفس الوقت يخالفون ويناهضون مَن أسموهم بالمحافظين الرجعيين ممّن كان الإسلام يعنى عندهم ، إلى جانب العقيدة الدينية ، ما توارثوه من أفكار وقيم ، وعادات وتقاليد ، عاشت أمّتهم قرونًا طويلة فى ظلّها ، حتى ظنّوا أنها جزء لا يتجزّأ من الدين نفسه ، حتى إن كان أكثرها من البدع التى استُحدثت على مرّ الأيام ، ولا ينصّ عليها ، أو يأمر بها ، قرآنٌ أو سُنّة .

وما كان غريبًا أن تثور العداوة الضارية بين الجانبين بعد أن شرع كل جانب فى كَيل الاتهامات إلى الجانب الآخر : الإصلاحيّون يتّهمون المحافظين برفض الانصياع لمتطلّبات الزمن ، والإقرار بتغيّر الأوضاع ، وضرورة مسايرة هذا التغيّر ، ويلقون عليهم

مسئولية تخلّف الأمة عن ركب الحضارة ، واستمرار الآفات السياسية والاجتماعية والاقتصادية قائمة ، والمحافظون يتّهمون الإصلاحيين بالتقليد الأعمى للغرب ، والانكسار النفسى إزاء قيمه وأسلوب عيشه ، والسعى إلى إقحام مفاهيم وممارسات غريبة عن الأمة ، ومن شأنها خلخلة دعائم الدين.

لم يكن ذلك مستغربًا . أما الغريب حقًا فهو أن غالبية أفراد الجماهير الإسلامية كان تعاطفها فى كل الأحوال ، أو فى جُلّها ، مع المحافظين دون الإصلاحيين المبتدعين . فالأمر هنا ليس على غرار استقبال الكادحين المطحونين والمهمّشين ، وأفراد الطبقة العاملة والعبيد ، لدعوة سبارتاكوس الثورية ، أو لدين المسيح ، أو للفكر الماركسى اللينينى . فهؤلاء جميعًا – مهما بلغت أذهانهم من الغلظة والانغلاق – كانوا يرون فى وضوح مصلحة مباشرة لهم فى مناصرة تلك الدعوات إلى التغيير .. أما فى المجتمعات الإسلامية التقليدية فإن معظم الناس كانوا يستشعرون قدرًا كافيًا من الدفء فى ظلّها ، وفى ظل الأُخوّة والتكافل الاجتماعى اللذين يضمنهما الإسلام للمسلمين ، وهو الذى أوصى بحسن معاملة الرقيق ، وأمر بإيتاء الزكاة ، وبأن يكون فى أموال الأغنياء حقٌّ للسائل والمحروم ، وجعل الناس سواسية أمام الله كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقّوى ، ونصحهم بالقناعة والرضا بما قسم الله لهم .

قد يذهب كارل ماركس وغيره من المفكّرين الثوريين إلى أنه من البديهيات أن تتجاوب الأغلبية فى المجتمعات التى يغلب عليها الفقر والجهل والخزعبلات والظلم الاجتماعي، مع أيّة دعوة إصلاحية تنشد تحسين الأوضاع . غير أن دراسة التاريخ كثيرًا ما تدحض هذا الزعم ، خاصة فيما يتعلّق بالعالم الإسلامى . ذلك أن معظم المفكرين المسلمين الذين انبروا لزعزعة التقاليد والمفاهيم القديمة بدعوى الرغبة فى الإصلاح ، كانوا من أفراد الطبقات الأكثر حظًا من المال أو الثقافة والعلم ، إن نظروا إلى غالبية الشعب من الجهلة أو الفقراء والمطحونين غلب على نظرتهم قَدْرٌ من التعالى أو الاستخفاف والاستهانة ، أو حتى من الاحتقار ، مما كان من شأنه أن يثير فى أفراد تلك الغالبية مشاعر الحسد والحقد والكراهية لهم . فالجماهير المسلمة دومًا – وهى أسيرة

التقاليد الجامدة – تفضّل أن يكون دعاة التغيير والإصلاح من بين صفوفها هى ، قريبة منها ، يتكلّمون بلغتها ، ويستخدمون التعابير الشائعة بينها ، ويحسّون إحساسًا قويًا بمشاكلها الحقيقية اليومية . غير أنها تنظر فإذا بهذا « المصلح » أو ذاك وقد عاد إلى وطنه بعد الدراسة فى جامعات الغرب ، وبعد انغماس طويل فى قراءة كتب المستشرقين عن الإسلام ، قد أتقن لغات أجنبية ، وتزيّى بزى الغربيين وتطبّع بطباعهم ، يشرع فى الحديث إليها ، أو فى الكتابة لها ، عن نظرياته الجديدة ، وملؤه الفخر بنفسه وعلمه ، والاعتداد بإبداعه وفكره ، ينهال بمعْوله لهدم عالَمٍ بأسره كان المسلم المؤمن يعيش آمنًا فيه ، واثقًا بنفسه ومعتقداته .

رأت العامة هؤلاء الذين أسموا أنفسهم بالمصلحين يسخرون من غبائها وتخلّفها العقلى . ويصمونها بالهمجية ، ويدّعون أنهم إنما اضطروا إلى أن ينبروا بدعوتهم من أجل إنقاذها رغمًا عنها ، وإسعادها عنوة وقسرًا .. غير أن أسلوبهم فى العيش والدعوة هو نفس أسلوب الأجنبى « الكافر » ، نتج عن اتصالهم بثقافة وحضارة ليسا فى متناول العامة ، وعن نشأتهم فى أحضان راحة مادية لا تحلُم العامة بها .. فالأمر إذن مع الجماهير المسلمة لا يتعلّق بتعصّب أو انغلاق ذهنى أو بتمسّك أعمى بالتقاليد ، أو رفضٍ للتطوّر ، أو حتى بكراهة الأجانب ، بقدر ما يتعلّق بحقد البؤساء على أناسٍ شاءت الصدفة ألا يشاركوهم فى بؤسهم ، ويريدون الآن أن تشاركهم العامة فى معتقداتهم الجديدة ، وفى مفهومهم عن السبيل إلى السعادة والتمدّن ومسايرة احتياجات العصر ، وقد غلب على أذهانهم الإيمان بأن العامة لا قدرة لديها على إدراك أين تكمُن مصلحتها ويكمن الخيرُ لها ، وبأن القسر قد يكون الوسيلة الوحيدة لتحقيق سعادتها .

من حق الجماهير أن تسأل هؤلاء وغير هؤلاء من المسمّين بقادة الرأى فى مجتمعهم : « ما الذى يجعلكم واثقين إلى هذه الدرجة بصحة ما فى جعبتكم من حلول ؟ ها هى الآراء وقد تعدّدت وتنازعت ، وكأنما كلّ شيء مشكوك فيه ، كلٌّ يدافع عن رأيه فى حُرقة ، وكأنما كلّ شيء موثوق منه .. ما الذى جعلكم تتخيّلون أن المستقبل سينهج نهج البرامج التى رسمتموها ؟ .. شعبُنا لا يُلقى إليكم بالاً ، وجهلُه بكم نابع من جهلكم

به . غير أنكم لا تدركون ذلك ، ولا تعلمون أن أصواتكم كانت دائمًا أبعد من أن تصل إلى الجماهير . فإذا بكم تستمرون فى أمركم ونهيكم وتوجيهكم وزَحفكم ، حتى إذا ما أفقتم إلى أنفسكم ونظرتم وراء كم ، وجدتم أنفسكم وحدكم ، لم يتبعكم أحد ، فترفعون عقيرتكم بالشكوى واللوم والعتاب .

* * *

هذا عن موقف الجماهير العريضة العدائى من المصلحين الإسلاميين .. غير أن ثمة مشاعر عدائية تجاه هؤلاء نجدها أيضًا عند فريق ثالث ، هو فريق الملحدين الذين تبخرّت عندهم العقيدة الدينية .. ففى مذهب الملحدين أن ثورة المصلحين على الأوضاع والمفاهيم الدينية التقليدية هى ثورة غيرة دينية حقيقية ، ومشاعر تقوى حقيقية ، على وضع أصابه العفن والتحلّل ، وأنها محاولة لإعادة الحياة والروح إلى جسد يحتضر ، تمامًا على نحو ثورة مارتن لوثر على كنيسة كاثوليكية متهتّكة لم تعد تعاليمُها تلقى من المسيحيين الأوروبيين غير عدم الاكتراث . ويرى هؤلاء أن من حقّ المرء أن يتساءل عما إذا كانت هذه النَّجدات المتكررة لحلم فى سبيله إلى الاندثار هى من وجهة النظر الحضارية أمر خليق بالترحيب . ذلك أنه ما من أدنى شك فى أنه لو لم يقم لوثر بإعادة بناء الكنيسة ، لوفّر على الناس المذابح المروّعة ، والحروب الدينية الرهيبة ، وأبشع صنوف تعذيب الذات .

ثم يمضى هؤلاء فيقولون : « عرّف البعض الدين بأنه إحساس باللا محدود ، وميلٌ إليه ، وبالتالى فهو حقيقة داخلية ونفسية . غير أن هذا القول شبيه بمحاولات إثبات وجود الله بالبراهين المنطقية ، كما فعل ديكارت . ثم جاء كانط فأوضح بمنتهى الصراحة أن هذه المحاولات لا يمكن أن تثبت أمام ريح المنطق ، وأن رغبة البعض فى أن يجعلوا من الإحساس باللاّ محدود والأسرار الإلهية علمًا ، هى كالرغبة فى الجمع بين مجالين هما بطبيعتيهما متنافيان ؛ رغبة بائسة ومحاولة يائسة لا يمكن أن ينجم عنهما غير الحرج . كان من الأجدى أن يقولوا إن حقيقة إحساس البشر باللا محدود هو من اختصاص الفنون الجميلة ، بل وحتى علم الفلك ، بدلاً من أن ينسبوا إليها سمات ليست منه ،

وأن يستنبطوا منهما المبادئ الدغماطيقية التى يتقاتل بشأنها المؤمنون الأصوليون . ويزعمون أنه ما من تقدّم فى المعارف العلمية يمكنه أن يؤثّر فى العقيدة . وهو زعمٌ واهم ، لأن الثيولوجيا كانت دائمًا - فى كل زمان - تسمح لنفسها بأن تتأثر بالاتجاهات العلمية للعصر ، وتريد أن تكون ابنة زمانها ، فى حين كان الزمن يزجّ بها باستمرار فى ركن منعزل .. فهل ثمة فرع آخر من فروع العلم يُشعرنا بمجرد النطق باسمه بأننا عُدْنا إلى الوراء ، إلى القرن الثانى عشر مثلاً ، أو القرن السابع ؟ الاتجاه النقدى العلمى لا يقبل التنازل أو المسايرة أو الحلول الوسط ، ولن يصبر على زعمٍ هو مزيجٌ غريب ، نصفه علم ، ونصفه إيمان دون تمحيص » .

ثم يقولون :

« إن المصلحين الإسلاميين إنما يرتكبون الخطأ حين يريدون للعقل أن يلعب دورًا فى مجال العقيدة ، وحين يحسبون أنهم بجهدهم يُثبتون مواقفهم العقيدية ببراهين عقلانية .. هم فى كل هذا ورثة الأفغانى ومحمد عبده اللذين ظهرا فى ذات الوقت ، الذى بدأت ثقة شباب الأمة الإسلامية بدينهم تهتزّ ، نتيجة الاتصال بالحضارة الأوروبية المتفوّقة علميًا وماديًا على الأقل ، ومن جرّاء تبنّى عدد متزايد منهم لمفاهيم الغرب وقيمه .. كان الرجلان فى دار الإسلام بمثابة ويكليف ولوثر فى العالم المسيحى . نجحا فى أن يحولا بين الملايين من الشباب المسلم ، وبين فقدان العقيدة الدينية والتحوّل كليّة إلى علمانية ملحدة ، بأن وَاءَمَا - وبنجاح ظاهري - بين العقيدة والعلم ، ووفّقا بين الاهتمام بأمور الدين والاهتمام بأمور الدنيا ، فمكّنا الشباب (فى الظاهر) من الاستمرار فى التمسك بدينه ، والإقبال فى نفس الوقت على العلوم الدنيوية والأخذ بأساليب التمدّن والحداثة .. غير أن الصراع النفسى استمر ، والإحساس بالتناقض ، والحيرة المزمنة بين هذا وذاك . ولولا محاولة الرجلين ومَن تلاهما من المصلحين الإسلاميين لقُضى الأمر ، ولما باتت هناك حيرة أو صراع وتمزّق ، ولاستقرّ الشباب على سبيل واحد ، هو العلمانية المطلقة ، يمضون فيه بخطا سريعة ثابتة .. هى نفس النتيجة التى تمخّضت عن ظهور ويكليف ولوثر بإصلاحاتهما وترميماتهما : إطالة عُمر العقيدة دون معنى أو مبرّر » .

* * *

بين شقّى الرحى إذن وجد المصلحون الإسلاميون أنفسهم ، لا يخفّف من محنتهم غير أن الملحدين لا يجرءون حتى اليوم على المجاهرة بأفكارهم داخل المجتمعات الإسلامية . غير أن المحنة لا شكّ قائمة ، ولا شك فى أن ثمة احتمالاً ، يتزايد بمضى الوقت ، أن يُطبق عليهم شقّا الرحى فيعتصرهم اعتصارًا ، ويُنهى أمرهم إلى الأبد ..

* * *

ـ ١٣ ـ

الأمـــير !

والده أعزّ صديق لى : صديق العمر ، وزميل الدراسة .. هاجر بعد تخرّجنا فى كلية الحقوق إلى استراليا ، وتزوّج من استرالية أنجب منها ولده هذا ، محمود . غير أنه إذ لم يعثر فى المهجر على عمل يحبّه ويُرضى طموحه ، عاد بعائلته إلى مصر ، بالرغم من حصوله وابنه على الجنسية الاسترالية .

كثيرًا ما كنت أرى محمودًا أثناء زياراتى لأبيه . وكثيرًا ما كنت أحادثه ، بل وأرقب سلوكه وتطوّره ، إذ ينمو أمامنا من صبى إلى شاب يافع .. فقد بدا لى بكل تأكيد ، ورغم هدوئه المفرط ، فتى غير عادى .. وكان الأب فخورًا به ، لحدة ذكائه أولاً ، ولإتقانه الكامل لا للإنجليزية فحسب - لغة أمّه - بل وللعربية أيضًا ، وهى التى لم يشرع فى تعلّمها إلا بعد مجيئه إلى مصر فى العاشرة .

كان به ميل إلى الانطواء ، قليل الأصدقاء ، مؤدّبا ولكن قليل الكلام . وما كان بوسع أحد ، ولا حتى والده ، أن يدرك حقيقة شعوره تجاه مصر والحياة فيها ، بعد طفولة قضاها بأكملها فى بلد شديد الاختلاف عنها .. لم يسمع أحد منه كلمة تنمّ عن الشكوى ، أو تعبيرًا يوحى بازدراء ، أو جملة يُفهم منها أنه ينظر إلى استراليا ، لا مصر ، باعتبارها الوطن الأم .. غير أنه فى نفس الوقت لم يكن ليبدى عاطفة قومية ملحوظة ، ولا مودّة قوية لزملائه فى الدراسة ، أو أقرانه فى السن ، أو أقاربه من الصبية فى عائلة أبيه ... أمر واحد فحسب ، فى هذا المضمار ، لفت انتباه أبيه وانتباهى : وهو اهتمامه الحقيقى بما كان المدرسون يُلقونه فى حصص الدين من دروس ، وذلك بالرغم من - أو ربما بسبب - بقاء أمه على مسيحيّتها .

تخرج فى كلية التجارة ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٨٣ ، وتمكّن من الالتحاق فور تخرّجه ، بفضل الصلات الواسعة لأبيه وإجادته التامة للإنجليزية ، بوظيفة جيّدة بأحد

البنوك الأمريكية . غير أنه ما بلغ السادسة والعشرين حتى فوجئ أبوه وأمه وأصدقاؤهما وزملاؤه في البنك، بتحوّل مفاجئ يطرأ عليه . فقد أطلق هذا الشاب الوسيم لحيته، وغدا يصرّ على ارتداء الطاقية حتى خلال ساعات العمل ، والجلباب الإسلامي الأبيض في غير ساعاته ، وأصبح يتردّد على المساجد لأداء الصلوات الخمس فيها ، وأقبل في نهم ملحوظ على قراءة المؤلفات الإسلامية ، خاصة كتب الشيخين محمد الغزالي ويوسف القرضاوي ، وكتب التراث في الفقه والشريعة والسيرة وعلوم القرآن والحديث والتاريخ الإسلامي .

فوجيء الأب - كما قلت . بهذا التحوّل المفاجئ ، وهو العلماني الأقرب إلى الإلحاد . غير أن قلقه سرعان ما تبدّد وهدأ خاطره ، إذ لم يلمس من محمود في البيت مظاهر السلوك التي كان يتوقّعها منه ، أو التي كان يسمع عنها بصدد غيره من الشباب المنخرط في سلك الجماعات الإسلامية .. ذلك أنه لم يسمع محمودًا قط يستنكر أسلوب حياتهم العائلية ، ولا حتى تناول الأب في بعض الأحيان لكأس من الخمر ، ولا انصرافه عن الصلاة والصوم ، ولا هو استنكر - كما يفعل البعض - وجود التماثيل والصور في البيت ، أو جلوس والديه إلى فيلم يحوى مشاهد عرى أو جنس ، ولا كان يظهر الضيق من بعض عبارات تصدر من أمه تتضمن السخرية من ملبسه الإسلامي ولحيته .. كان دائمًا عظيم الهدوء ، وكأنما هو لا يبالي بما يسمع أو يشهد .. بل لقد تسبّبت بعض المظاهر الأخرى لسلوكه في إثارة الحيرة عند أبيه : فهو ، أوّلاً ، بالرغم من قضائه الساعات الطويلة بالبيت في قراءة القرآن والحديث والكتب الإسلامية ، لم يلمحه أبوه أبدًا يتوضأ أو يصلّي فيه ، (وهو ما فسّره الأب بأنه إنما يؤدى صلواته في المساجد) . ثم هو على علاقة بفتاة أجنبية كثيرًا ما تتصل به أو يتّصل هو بها تليفونيًا للاتفاق على موعد لقاء .

كان محمود يعلم تخصصي في الإسلاميات ، قد قرأ معظم كتبي (وإن أحجم عن مناقشتي فيها) ، وكثيرًا ما كان يسألني أثناء زياراتي لأبيه (رغم علمه بعدائي للتطرف الديني) عن تقييمي لبعض كتب التراث ، ويستشيرني فيما استغلق عليه من أفكار لابن

تيمية ، أو ابن حجر العسقلانى ، أو محمد بن عبد الوهاب وغيرهم ، أو يطلب الإرشاد بصدد ما ينبغى عليه أن يقرأه من كتب الفقه أو التفسير أو علوم الحديث .. وقد أذهلنى بالفعل تقدّمه السريع الملموس فى دراساته الجديدة ، وتمكّنه المتزايد من العربية ، وحدّة خواطره ، وثقب ملاحظاته .

غير أن حيرتى فى أمره تحوّلت إلى حيرة كحيرة أبيه حين أصبح منذ عام ١٩٩٢ (بعد عودتى من الجزائر) يتّصل بى تليفونيًا من حين لآخر ، يستأذننى فى القدوم إلى مسكنى مع فريق زائر من هذه المحطة التليفزيونية الأجنبية أو تلك ، لإجراء حديث معى حول الأصوليين الإسلاميين ، أو حول أحداث تسبّب فى وقوعها فى بعض أنحاء مصر بعض جماعاتهم .. فإن أعلنتُه بموافقتى أتى مع الفريق التليفزيونى (وهو فى زيّه الإسلامي) ، وشارك أفراده فى اختيار مكان التصوير ومكان الكاميرا وسائر أجهزة التسجيل .. وكنت أحيانًا أسمع هؤلاء الأجانب من أفراد الفريق يسألونه بعد انتهاء الجلسة معى عن موعد التقائهم به فى اليوم التالى لزيارة هذا الأمير أو ذاك من أمراء الجماعات الإسلامية فى امبابة ، أو الزاوية الحمراء ، أو عين شمس ، أو حتى فى أبى قرقاص وجرجا وأسيوط ... وكنت من ناحيتى أفسّر هذه الترتيبات على أنها محاولة منه لإتاحة الفرصة للجماعات الإسلامية فى مصر أن تعرض وجهة نظرها ومظالمها وأفكارها على الرأى العام العالمى بهدف كسب تعاطفها .. غير أنى فى نفس الوقت كنت أسائل نفسى عما إذا لم يكن ثمة تعارض بين مهامه الجديدة هذه مع محطات الإذاعة والتليفزيون فى الخارج ، وبين وظيفته فى البنك الأمريكى ، وعما إذا كانت إدارة البنك توافق بمثل هذا اليسر على تغيّبه المتكرّر عن العمل ، خاصة بعد ما سمعتُه من أبيه عن أنه سافر مرة مع فريق تليفزيونى أمريكى إلى إسرائيل لإجراء مقابلات مع قادة حركة حماس .

وتمرّ الأيام ، فإذا به يتزوج من فتاة جميلة محجّبة ، ينتقل للسكنى معها فى شقة غير شقة والديه ، ثم إذا بأبيه يبثّ إلىّ وهو فى قلق عظيم شكّه فى أن محمودا قد أضحى أميرًا لإحدى الجماعات الإسلامية المتطرفة ، أو على الأقل ، شخصية مرموقة فى

أحد تنظيماتها ، ويسرد على شواهد أثارت فى نفسه هذه الشكوك .. وهى شكوك ظلت تساور وتقضّ مضجعه حتى أعلن إليه محمود منذ عام نبأ صدور قرار الإدارة الأمريكية للبنك بنقله إلى المقر الرئيسى بالولايات المتحدة .. وقد سافر محمود إليها بالفعل فى صحبة زوجته لاستلام العمل الجديد ، وأرانى والده بعض الصور لهما وهما بملابس البحر على أحد شواطئ ميامى ، (فالواضح إذن أن زوجته قد هجرت الحجاب ، وهَجَرَتْهُ طواعيةً إذ كانت تبتسم فى الصورة) . كما أطلعنى على الخطاب القصير الذى أرفقه محمود بالصور ، والذى يذكر فيه أنه قد قصد ميامى فى إجازة يرتاح خلالها من أعباء عمل شاق ، ولكنه ممتع فى نفس الوقت ، فى الإدارة المركزية .

* * *

وفى الساعة الثامنة من مساء يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٩٧ ، جاءنى الصديق يطرق بابى دون موعد سابق .. لم أكن قد رأيته منذ نحو شهرين بسبب إنشغالى فى إعداد محاضرات ألقيها فى المجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون ، ثم سفرى بعد ذلك إلى تونس .. وقد هالنى فور دخوله ما رأيتُه قد ارتسم على وجهه من علامات الجزع الشديد والحزن العظيم .. فما احتلّ مكانه فى غرفة مكتبى حتى بادرنى بقوله :

– تقسم بالله العظيم ألا يتعدّى ما سأقوله لك الآن جدران هذه الغرفة ؟

قلت فى رُعب :

– ما هذا ؟ ماذا حدث ؟

– حدث أن عاد محمود فجأة إلى القاهرة يوم ١٦ أو ١٧ أكتوبر دون زوجته ، ودون إخطارى بمجيئه .. لم أعلم بالخبر إلا عرضًا ، وبعد نحو أسبوع من وصوله ، من قريب لى رآه فى أحد مساجد مدينة المهندسين بالقاهرة ، ظننت قريبى قد شُبّه له .. ومع ذلك فقد اتّصلت بمحمود تليفونيًا فى مسكنه فوجدته . فلما لمتُه على عدم إخطاره إيّاى بوصوله اعتذر بعذر أو آخر ، وأخبرنى أنه سيسافر ذلك المساء بالطائرة إلى الأقصر لقضاء فترة من الراحة هو فى أمسّ الحاجة إليها ، ثم يتصل بى بعد عودته .. وعندما سألته عن اسم الفندق الذى سينزل فيه بالأقصر ، تردّد قليلاً ثم أعطانيه ...

- ثم ؟

- ثم حدثت واقعة قتل السياح الستين فى الأقصر صباح الإثنين ١٧ نوفمبر ومصرع الإرهابيين الستة الذين ارتكبوا المذبحة .. اتصلت بالفندق فور سماعى الخبر للاطمئنان عليه ، فأفادونى بأنه تركه وغادر الأقصر بالطائرة المتّجهة إلى شرم الشيخ ...

- ثم ؟

- ثم سافرت بنفسى يوم أمس إلى شرم الشيخ أبحث عنه . وانتهى بحثى عنه فى المطار حيث أخطرونى بعد التحرّى ومراجعة قوائم المغادرين أن ابنى سافر فى صباح الثلاثاء بالطائرة الإيطالية عن طريق روما إلى الولايات المتحدة .

* * *

- ١٤ -

صورتان من تاريخ دعاوى الحسبة

١

سقراط
أول مفكر فى التاريخ تقام عليه دعوى الحسبة

فـى عـام ٣٩٩ ق.م.، تطـوّع رجـل مغمـور يُـدعى ميليتـوس برفـع دعـوى علـى الفيلسوف الأثينى الشهير سقراط ، موجّهًا إليه تهمتين : «إفساد الشـباب» ، و« التنكّر للآلهة التى يعبدها الأثينيون وإدخال البدع فى الدين » . وجاء فى عريضة الدعوى أن سقراط « رجل شديد الفُضول ، يبحث فيما تحت الأرض وما فوق السماء ، ويُلبس الباطلَ ثوب الحق ، مادى ملحد ، لا يعترف بالآلهة التى اعترفت بها الدولة ، ويستبدل بها معبودات جديدة ابتدعها ابتداعًا ، وحتى الشمس والقمر يقول عنهما أنهما من صخور وتراب .. ثم هو يعلّم هذا كله للناس ، ويفسد الشباب بحثّهم على اعتناق آرائه» .

وقد واجه سقراط التهم المنسوبة إليه باحتقار شديد ، وتولّى الدفاع عن نفسه فى المحكمة التى أصدرت حكمها بإدانته بأغلبية ٢٨٠ صوتًا مقابل ٢٢٠ . وإذ كانت النيابة قد طالبت بتوقيع حكم الإعدام عليه ، بقى أمام سقراط أن يقترح على هيئة المحكمة عقوبة أخرى تنظر فى أمرها ، علمًا بأن المحكمة كانت على استعداد لقبول الحكم عليه بعقوبة أخف . غير أنه ما كان من سقراط إلا أن علّق على الحكم بإدانته بقوله إنه كان ينتظر من السلطات فى واقع الأمر أن تعلن عن تكريمه باعتباره أحد المفكرين الذين قضوا حياتهم فى خدمة البشرية والوطن ، وعن مكافأته بإعالته مدى الحياة ، كما تكافئ الفائزين فى الألعاب الأوليمبية ! وقال إنه لن يسترحم القضاة ليخلوا سبيله ، كما يأبى أن يأتى بأطفاله - كما يفعل غيره - باكين مولولين حتى يؤثروا فى قلوب القضاة ببكائهم .

وقد أغضبت تصريحاته هذه هيئة المحكمة فصوّت أعضاؤها بأغلبية أكبر بتوقيع عقوبة الإعدام ، وهو حكم أعلن سقراط أنه راضٍ به ، رافضًا خطة حاكها أحد تلاميذه لتهريبه من السجن . وبالفعل ، قُدّمت إلى سقراط - كما جرت العادة فى أثينا - كأس مسمومة، شرب ما فيها ، وخرّ ميتًا بين تلاميذه الذين قدموا إليه فى سجنه لوداعه .

وقد كان سقراط فى حقيقة أمره رجلاً شديد الورع ، وذا مزاج أقرب إلى مزاج الصوفية . وكان من دأبه أن يهاجم الأساطير برواياتها اللا أخلاقية عن الآلهة ، ويعتبرها قصصًا سخيفة من اختراع الشعراء .. كان يؤمن إيمانًا عميقًا بالله الذى يدبّر شئون الكون ، ويدلّل على وجوده بالإشارة إلى القوانين الثابتة التى تحكم الطبيعة ، وبشيوع الإيمان به بين البشر . ويذهب أفلاطون فى محاورته «فيدون» إلى أن سقراط كان يرى أن ثمة عنصرًا إلهيًا فى روح الإنسان ، ويؤمن بخلود الروح . كذلك يقول زينوفون فى كتابه عن سقراط إنه كان يواظب على الصلاة ويطيل التعبّد ، وأنه فى دعائه كان لا يطلب من الآلهة غير «ما يرون له فيه الخير " ، على أساس أن الآلهة وحدها هى التى تعلم ما فيه خير الإنسان .. وقد حاول جهده أن يوقظ الناس من سُباتهم وأوهامهم فلا يسلّمون تسليمًا أعمى بما ورثوه من آراء لم توضع على محكّ البحث والاختبار ، وأن يثير فيهم حب البحث فى معانى الأحكام التى يرسلونها إرسالاً عن إيمان ساذج فى مسائل الأخلاق .

وقد ضحّى سقراط بالكثير فى سبيل نشر دعوته، وعاش حياة من الفقر والشظف، يرتدى فى الشتاء نفس ملابسه فى الصيف ، ويخرج دون قميص أو حذاء ، حتى قال عنه أنتيوفون السوفسطائي : «إن العبد الذى يضطر إلى معاناة ما يعانيه سقراط من حقه أن يهرب من سيّده!» . وكان سقراط يرى فى فقره هذا خير ضمان لاستقلاله الروحى .

وبالرغم من أن الكثيرين من الشباب التفّوا حول سقراط على أمل أن يهديهم إلى طريق الصلاح والمعرفة الحقة ، فقد كان ثمة فى أثينا من ساءهم وأغضبهم سخرية سقراط من خزعبلاتهم الدينية ، أو فضحه لنفاقهم ونمط حياتهم الأجوف ، حتى باتوا يتحيّنون

الفرص للإيقاع به .. كذلك فقد كان انتقاده اللاذع لحكومة أثينا سببًا فى تعاطف هذه الحكومة مع رافع الدعوى القضائية عليه ، خاصة لاعتقادها أنه يستخدم مواهبه الجمة فى إثارة تلاميذه من الشباب عليها .

غير أنه إذ لم يكن بالإمكان الإفصاح فى عريضة الدعوى عن الأسباب الحقيقة لرفعها ، فإن ميليتوس (رافعها) ومَن وراءه اكتفوا بتوجيه اتهام غامض إليه «بإفساد الشباب» . وقد كان أولئك الذين دفعوا ميليتوس إلى رفع الدعوى عازفين أو خجلين من أن يتولّوا الأمر بأنفسهم صراحة وعلنًا ، فحرّضوا ذلك الرجل المغمور القادر دونهم على أن يلعب دور البهلوان البذئ فى المحكمة .

ويتألّف دفاع سقراط عن نفسه أمام القضاة من سرده لمراحل حياته والخدمات التى قدّمها لأمته ، مشيرًا إلى استعداده لتحدّى الجماهير والحكومة على السواء فى سبيل ما يعتقد أنه الحق ، ومصرًّا على أن يواصل تأدية الرسالة التى كلّفه الله بها ، ولو أوذى فى سبيلها من ذوى السلطة والنفوذ ، بل ولو دفع حياته ثمنًا لذلك . فهو يؤثر لنفسه طاعة الله على طاعة الإنسان ، وسيظل يعلّم الناس جميعًا فى مختلف أعمارهم وجوب الفضيلة وضرورة الإصلاح .. قال مخاطبًا القضاة بعد صدور الحكم :

« هاكم نبوءتى التى أحبّ أن أبلغكم إيّاها وأنا مُشْفٍ على الموت ، وتلك ساعة يوهب فيها المرء مقدرة على التنبّؤ .. أتنبأ لكم بأنه لن يكاد ينفذ حكم الموت حتى ينزل بكم ما هو أشدّ من ذلك هَوْلاً .. لقد حكمتم بموتى لأنكم أردتم أن تُفلتوا من ذاك الذى يتّهمكم ويطالبكم بإصلاح أنفسكم ، ولكيلا تحاسبوا على ما قدّمت أيديكم . ولكن لن يكون لكم ما ترجون ، بل نقيضُه . فسيكون متّهموكم أوفر عددًا وأشدّ قسوة عليكم منهم اليوم .

«إن عقيدتى فى الآلهة قائمة على شعور أسمى مما تقوم عليه عقيدة أىّ مدّع من المدّعين ، ولئن قتلتمونى فقد لا توفّقون إلى خَلَفٍ لى يقوم بما كنت أقوم به .. وعلى أية حال فإنى لأوثر خطّتى التى رسمتُها لنفسى ولو أدّت بى إلى الموت ، على أن أصطنع

خطّتكم احتفاظًا بالحياة.. قد يُلقى المحارب بسلاحه فى ساحة الوغى ويجثو على ركبتيه أمام مطارديه فينجو من الموت . غير أنه إن كان من اليسير تجنّب الموت ، فإن العسر كل العسر فى تجنّب الأخلاق الفاسدة. فالفساد والموت يعدوان فى أعقابنا . ولكن الفساد الذى لحق بكم أسرع عدوًا من الموت الذى سيلحق عما قريب بى ..» .

٢

قصة السُّهْرَوَرْدى المقتول

شهاب الدين السّهروردى (١١٥٤ - ١١٩١م) فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام ، وصاحب الكتاب الخالد «حكمة الإشراق» .. وصفه ابن أبى أُصَيْبِعة فى كتابه «طبقات الأطباء» بأنه «كان أوْحد أهل زمانه فى العلوم الحكمية ، جامعًا للفنون الفلسفية ، بارعًا فى الأصول الفقهية والفلكية ، مفرط الذكاء ، جيد الفطرة ، فصيح العبارة» .. وقد أمر السلطان صلاح الدين الأيوبى بقتله عام ١١٩١م ، فقُتل مخنوقًا بقلعة حلب ، ثم صُلب أيامًا فى ظاهر المدينة ، وكان عمره وقتها ستا وثلاثين سنة .

* * *

ولد السهروردى فى سهرورد بعراق العجم ، ونشأ بمدينة مراغة بأذربيجان حيث درس الفلسفة والمنطق وأصول الفقه إلى أن برع فيها ، ثم انتقل إلى أصفهان ، فبغداد . وفى سن الثلاثين رحل إلى حلب فى طلب المزيد من العلم ، وكان يحكمها وقتها الملك الظاهر ، وهو الابن الثانى لصلاح الدين .

يقول ابن أبى أصيبعة :

«قدم السهروردى إلى حلب ، ونزل فى مدرسة الحلاوية ، وكان مدرّسها يومئذ الشريف افتخار الدين . فلما حضر السهروردى الدرس ، تباحث مع الفقهاء وناظرهم ، وتميّز بينهم ، وظهر للشيخ افتخار الدين فضله وعلمه . غير أن الشيخ لاحظ فقر ثيابه فأشفق عليه ، وجمع بعد الدرس بعض الثياب دفعها إلى ابنه وقال له :

– تروح إلى هذا الفقير وتقول له : «والدى يسلّم عليك ويقول لك أنت رجل فقيه ، وتحضر الدروس بين الفقهاء ، وقد بعث إليك بشيء تلبسه إذا حضرت» .

فلما وصل الولد إلى السهروردى وذكر له رسالة أبيه ، سكت السهروردى قليلاً ثم قال :

– حطّ هذا القماش ، وتفضّل بقضاء حاجة لى .

ثم أخرج جوهرة فى حجم بيضة الدجاجة ، وقال للغلام : «تروح إلى السوق وتنادى على هذه الجوهرة ، ومهما بلغ ثمنها لا تبعها حتى تخبرني» .

فلما وصل الغلام إلى السوق نادى على الجوهرة فانتهى ثمنها إلى مبلغ ثلاثين ألف درهم . فعاد الغلام بالجوهرة إلى السهروردى وأخبره . فما كان منه إلا أن أخذ الجوهرة ووضعها على حجر ، وضربها بحجر آخر حتى فتّتها . ثم التفت إلى الغلام وقال له :

«خذ هذه الثياب وقل لوالدك : لو أردنا فاخر الثياب لكُنا اشتريناه!» .

فلما سمع الملك الظاهر هذه القصة ، ركب إلى المدرسة الجلاوية ، واجتمع بالسهروردى وحادثه ، فأُعجب أشد الإعجاب به ، وأخذه معه إلى القلعة ، وصار له عنده شأن عظيم» .

* * *

كان العالم الفذّ الشيخ فخر الدين الماردينى الذى كان السهروردى يُكثر من التردّد عليه فى حلب يقول عنه : « ما أذكى هذا الشاب وأفصحه ! لم أقابل أحدًا مثله فى زمانى . إلا أنى أخشى عليه لكثرة تهوّره أن يكون ذلك سببًا لهلاكه » .

وقد تحقّقت نبوءة الشيخ .. ذلك أن الملك الظاهر شرع يستدعى الأكابر من العلماء والفقهاء ليسمع ما يجرى بينهم وبين السهروردى من الكلام . فكان لا يناظر أحدًا إلا غلبه فى أية مسألة تثار . فحسن موقعه عند الظاهر وقرّبه وصار مكينًا عنده ، كما استمال خَلْقًا كثيرًا من أهالى حلب عرفوا مكانته وفضله فتبعوه .. يقول ابن رقيقة :

«ومع ذلك فقد ظل السهروردى دائمًا رثّ الهيئة ، لا يلتفت إلى ما يلبسه ، ولا له احتفال بأمور الدنيا .. كنت وإيّاه نتمشى فرآنى صديق لى معه ، فأتى يهمس فى أذنى : تماشى هذا الصعلوك ؟ فقلت : اسكت! هذا سيّد الوقت وعالم العصر ، شهاب الدين السهروردي!» .

ويقول ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » : « إن فقهاء حلب لما ناظرهم السهروردى فلم يُجاره منهم أحد ، ولما لمسوا تقريب الملك الظاهر له ، ازداد تغيّظهم وكثر تشنيعهم عليه ، ورموه بالإلحاد والزندقة وانحلال العقيدة ، ثم أفتوا بإباحة قتله ، وعملوا المحاضر بكفره ، وسيّروها إلى السلطان صلاح الدين فى دمشق ، وقالوا له : أدرِك ولدك وإلا تتلف عقيدته » .

وسأل صلاح الدين عندئذ عن السهروردى الذى لم يسمع به من قبل ، فحدّثوه عن إمعانه فى الفلسفة ، وبأنه يعتقد أن الله والعالم شيء واحد ، ويذهب مذهب الأفلاطونية القديمة . فكتب صلاح الدين إلى ابنه بإبعاده فلم يُبعده . فبعث إليه كتابًا يقول فيه :

« إن هذا الشاب السهروردى لابدّ من قتله ، ولا يبقى حيًا بوجه من الوجوه » .

واضطر الملك الظاهر حينئذ إلى أن يصدر أمره بخنق السهروردى فى قلعة حلب ، فخُنق ثم صلب . غير أن أعداء السهروردى من الفقهاء لم يفيدوا طويلاً من قتله . إذ سرعان ما ندم الظاهر ندمًا شديدًا على فعلته ، ونقم على من تسببوا فى قتله ، فأمر بالقبض عليهم واعتقلهم ونكبهم ، وصادر أموال عدد كبير منهم .

ويضيف ابن خلّكان قوله فى كتابه « وفيات الأعيان » :

« أقمتُ بحلب سنين للاشتغال بالعلم . ورأيت أهلها مختلفين فى أمر السهروردى الذى كان من أكبر علماء عصره ، وكل واحد يتكلم فيه على قدر هواه ، فمنهم من ينسبه إلى الإلحاد ، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات » .

ويعتبر السهروردى اليوم أبرز أعلام مذهب الإشراقيين فى الفلسفة الإسلامية .

* * *

وقد قيل فى تبرير فعلة صلاح الدين إنه كان يسعى من وراء قتله إلى تهدئة الفتنة الدينية والسياسية التى كانت قائمة إذ ذاك فى حلب ، شأنه فى ذلك شأن الخليفة العباسى الذى أمر بصلب الحلاّج .. غير أنه من الصعب علينا أن نقبل هذا التبرير لفعلة شنعاء فى حق الفكر الإسلامى ، خاصة إن هى أتت من سلطان فاضل كانت صفاته الخلقية بالذات هى المسئولة عن أن صار منذ زمنه وإلى يومنا هذا من أحبّ وأقرب الشخصيات فى التاريخ الإسلامى إلى قلوب المسلمين ، وغير المسلمين على سواء .

ويزيد من بشاعة إعدام السهروردى أن صلاح الدين ما كان يعرف الرجل ، ولا سمع بآرائه إلا من الواشين به والحاسدين له ، ولا بذل جهدًا فقرأ كتبه ، ولا فكّر فى استدعائه للاستماع إليه ، ولا أخذ برأى ابنه الملك الظاهر فيه ..

ولو أنه كان ثمة إجماع من مسلمى حلب على أن الرجل زنديق، فلربما التمسنا فى هذا الإجماع بعض العذر لصلاح الدين . غير أن كافة المؤرخين الذين أرّخوا لهذه الواقعة مجمعون على أنه لم يكن ثمة إجماع على زندقته ، وأن الكثيرين من فضلاء العلماء كانوا يعظّمون قدره ويبجّلونه ، وأن « كثيرًا من أهالى حلب عرفوا مكانته وفضله فتبعوه» ، وأن منهم - على حدّ قول ابن خلكان - من كان « يعتقد فيه الصلاح ، وأنه من أهل الكرامات » .

بل إنه حتى إن كان قد حدث مثل هذا الإجماع ، فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى فى مجتمع معين هى الحَكَم فى مضمار صحة الرأى ، احتجاج مردود عليه.. فقد تخطئ الأغلبية فى اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد . ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأى وخالفها فيه شخص واحد ، لما حقّ للبشرية أن تُخمد صوته ، تمامًا كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يخمد صوت البشرية .. فإخماد الصوت فى حدّ ذاته، وعلى حدّ تعبير جون ستيورات ميل، «يضرّ بالجنس البشرى ، بحاضره ومستقبله، كما يضرّ بقامعى الرأى أكثر من إضراره بصاحب الرأى . ذلك أنه لو كان رأى الفرد سليمًا لحُرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم ، ولو كان رأيه باطلاً لحُرموا من

فضل تصحيح الخطأ ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطـل . ذلـك أنه حتى لو كانت عقيدة الأغلبية هى الحق المطلق ، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسـها على حساب الباطل يجرّدها من أسسها العقلانية ، ويحجب الأسباب التى أحالتها من رأى إلى معرفة قطعية » .

إنه ما من شك فى أن قمع الآراء الحرة الجديدة كثيرًا ما تسبّب فى الماضى فى عرقلة التقدم فى المجتمعات البشرية . وقد كان هذا القمع يستند دائمًا إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخفّ ضررًا من الأعمال الإجرامية ، وأنه من مسئولية القائمين بالحكم مكافحة هذه ، كما أن من مسئوليتهم مقاومة تلك .. والردّ الواضح على ذلك هو بالتساؤل عن الحَكَم بصدد تقييم الآراء ، ومَن صاحب الحق فى الفصل بين الصحيح والباطل ، والتمييز بين الإجرامى والبطولى . فكثيرًا ما حدث فى التاريخ أن أدان حكام رأيًا ، ثم اعتنقه حكام تالون ، كمكافحة القيصر نيقولا الثانى للشيوعية فى روسيا ، ومكافحة لينين بعده للآراء المناهضة للشيوعية ، كلّ بدعوى أن آراء خصمه فاسدة .. غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت . فالرأى الذى أومن اليوم بكل قوة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات ، قد أغيّره بعد أعوام وأرى فساده ، ثم قد أنتقل من هذا الرأى الثانى إلى ثالث ، فرابع .. ففى أية مرحلة إذن من تلك المراحل من العمر يمكننى أن أقول فى ثقة بأنى على حق ؟ وقد سبق لفرويد أن عرّف الآراء بأنها « اعتقاد المرء بصحة شيء ما لمجرد رغبته فى أن يكون ذلك الشيء صحيحًا » ، وعرّف الشاعر روبرت جريفز الأساطير بأنها « ديانات الآخرين » ! .. فمن ذا الذى بمقدوره أن يصف عقيدته بأنها العقيدة الحقة ، وغيرها بأنها أساطير ، وهو يعلم أنه لو كان قد وُلد فى بلد غير بلده ، وبين قوم غير قومه ، لوصف العقيدة التى يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير ؟

* * *

- ١٥ -

عـودةٌ إلى الوليمــة

يُحكى عن دكتور صامويل جونسون أنه بعد أن نشر عام ١٧٥٥ مُعجمه الشهير للغة الإنجليزية ، دعته سيدتان إلى حفل شاى أقامتاه ، احتفالاً بصدور المعجم . وإذ رحّبت السيدتان به أجمل ترحيب ، أضافتا قولهما إنهما تهنّئانه بالأخص على قراره استبعاد الألفاظ الجنسية الفاحشة وأسماء الأعضاء والوظائف التناسلية من معجمه . فكان ردّ صامويل جونسون : إذن فقد كان أول ما فعلتماه بعد شرائكما إيّاه هو البحث عن تلك الألفاظ والأسماء !!

تـردّدت تلك القصة فى ذهنى إذ أقرأ وأسمع صرخات الاستنكار ، وصيحات الغضب ، وفتاوى الإدانة من أولئك المرضى المساكين الذين رأوا فى رواية حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر» هجومًا على الإسلام وعلى الأديان جميعًا ، واستنكروا ما ورد بها من « تعابير فاحشة » و« مشاهد جنسية فاضحة » .

كنت قد قرأت الرواية منذ عشر سنوات فاعتبرتُها على الفور من أقوى ما ظهر فى عالمنا العربى من أدب سياسى ، بل ومن أفضل الروايات العربية طرًا ، إن لم تكن أفضلها .. وأشهد أنى حين قرأتها آنذاك (قراءة إنسان محايد بعيد عمّا أثير بعد ذلك حولها من ضجة وسخط ، واستياء وتكفير ، وفتاوى دينية ومظاهرات ومصادرات) ، لم أتبيّن فى طيّاتها أى قصد إساءة إلى الدين ، أو عداء للإسلام ، ولا أدبًا جنسيًا فاحشًا .

فإن بدأتُ بهذه النقطة الأخيرة قلتُ إن الإجماع الآن هو على تعريف البورنوجرافيا بأنها الاستهداف الرخيص العمدى للإثارة الجنسية دون أن تقتضى الضرورات الفنية تلك المشاهد .. وإنى لأتحدّى أى قارئ أو صاحب فتوى أصدرها بعد قراءة الرواية ، أو دون قراءة ، أن يقول إن مشاهد الجنس فى « وليمة لأعشاب البحر »

لم تكن مما يقتضيه الفن الروائى ، ويتطلّبه تطوير الشخصيات والأحداث .. أما عما استخدمه المؤلف السورى من ألفاظ هى « فاحشة » فى رأى المعترضين المصريين ، فإن كل من زار أقطار الشام أو شمال أفريقيا أو العراق لابدّ قد لاحظ أن الألسنة هناك كثيرًا ما يرد عليها دون أدنى سوء نية ، أو قصد خبيث ما قد يصدم مسامع المصريين من ألفاظ ، (لاحظ بعض التعابير التى تفوّه بها صبية لبنانيون فى الفيلم اللبنانى الممتاز « بيروت الغربية ») ، *بالضبط كما أن بعض الألفاظ المصرية العادية مثل « القفَا » و« عكروت »* تصدم مسامع إخواننا العرب وتحمرّ لها وجوه السيدات ، دون أن نرى نحن مبرّرًا لذلك .

نأتى الآن إلى الإساءات المزعومة إلى الدين مما لا يمكن أن يلفت انتباه قارئ لم يسمع بما أثير حولها من ضجّة واعتراض .. هى إمّا قد وردت على لسانَى شيوعيَّيْن عراقيَّيْن ، أو على لسان شاب جزائرى مُتَفَرْنس تافه «لايزال يبربر عن فرنسا وعن الفرنسيين المطهّرين من عقد الكبت ، وعن صديقاته الفرنسيات الطليقات ، وعن ضرورة أن يخلع العرب جلدهم المتخلّف البالى الذى خاطه الإسلام فوق جلودهم القديمة» .. صورة لهذا المتفرنس تنفّر القارئ من شخصه ومن آرائه على سواء . وأما عن الشيوعيين العراقيين فالطفل الرضيع وحده هو الذى لا يعرف موقف الماركسيين من الدين « مخدّر الشعوب » ومعطّل الثورات البروليتارية .. فهل هناك معترض على أن تكون ثمة رواية بطلها شيوعى ، وعلى أن يعبّر هذا البطل فى حواراته عن آرائه ؟ وهل يُعقل أن يُصرّ القارئ على استئصال رأى الشيوعى فى الدين من الرواية ، فى حين نسمع هذا الرأى من معارفنا من الشيوعيين فى حياتنا اليومية ؟ أية سذاجة هذه ؟ وأى افتقار إلى المعايير الفنية ، وإلى فهم طبيعة العمل الفنى ومهمّته ؟

إنى واثق من أن الذين لم يقرءوا الرواية أصلاً ، ثم طولبوا بإصدار فتواهم حول ما إذا كان بها مساس بالإسلام ، إنما شرعوا فى قراءتها ، لا كما يشرع فيها القارئ المثقف المحايد ، صافى النية ، خالى الذهن ، وإنما أقبلوا عليها وفى أيديهم قلم أحمر ، يقلّبون الصفحات متثائبين متعجّلين ، متغافلين عن كل ما تقصد إليه الرواية من إيحاءات سياسية ، بالغة العمق عن الأوضاع البائسة المزرية فى العالم العربى ، مشرقه ومغربه ،

وعن خيانة العسكريين والسياسيين والمثقفين للثورة بعد انتصارها من أجل ملء جيوبهم وتحقيق مآربهم الشخصية ، حتى إذا ما ورد عَرَضًا لفظ « الإسلام » على لسان شيوعى عراقى ملحد ، أو جزائرى متفرنس تافه ، رسموا خطًا أحمر تحت هذه الجملة أو تلك ، ثم أصدروا الفتاوى التى تُظهرهم أمام الجماهير الساذجة الجاهلة التى لم تقرأ الرواية ولم تسمع بها أصلاً ، بمظهر حُماة الإسلام ، والذّائدين بورعهم وتقواهم عن دين الله الحنيف .

ولا بأس من أن أورد هنا نكتة قديمة معروفة ، عن امرأة عجوز تقدّمت إلى الشرطة بشكوى من أن جارها الشاب كثيرًا ما تراه من نافذة حجرتها يتجرّد عاريًا من ملابسه . فلما جاء الشرطى إلى غرفتها ليتحقّق من الأمر ، ولم ير شيئًا ممّا ادّعته ، قالت له : لو صعدت إلى أعلى هذا الصّوان ، واستخدمت هذا المنظار المكبّر فستتمكن من رؤية ما حدّثتك عنه !

* * *

ـ ١٦ ـ

عن أكثر الطوائف مَيلاً إلى الإلحاد

يُقال : أكثر الطوائف عرضة للإصابة بداء فُصام الشخصية هى طائفة الممثلين ؛ وأكثر العاملين عرضة للإصابة بداء السلّ هم عمال المناجم والمحاجر ، وأكثر الناس عرضة للإقدام على الانتحار هم المطلّقون .. إلى آخره . فهل هناك يا تُرى طائفة من الناس هى أكثر عرضة من غيرها للتشكّك فى الدين وللإلحاد ؟ الفلاسفة ؟ المثقفون ؟ الاشتراكيون ؟ الأغنياء ؟ أولئك الذين يرون الحياة مليئة بشرور ومظالم من المستبعد صدورها عن إله عادل ؟

فى ظنى أن أكثر الطوائف عرضة لأن يفقد أفرادها إيمانهم بالله حاشيةُ السلطان والقريبون منه .. هم يرونه صبح مساء ، فى ساعات عمله وأوقات استجمامه ، كاسيًا عاريًا ، فى حالات غضبه وحالات رضاه ، فى صحته واعتلاله ، ويسمعون إلى جانب خطبه وتصريحاته ، دردشته ونكاته ومداعباته ، وأحاديثه فى الاجتماعات الرسمية وعلى مائدة الطعام ، ويحضرون نقاشه مع الزوار الأجانب ومع زوجه وأولاده .. يقول المثل « ما من إنسان هو بَطَلٌ فى عين خادمه » . ويعنى هذا أن الأُلفة تزيل الكُلْفة ، وأن التعوّد يذهب بالرهبة والاحترام ، ويؤدّى إلى الاستخفاف .

ثم ينظر أفراد تلك البطانة فيجدون وسائل الإعلام ، وقد غُصَّت بالحديث عن حكمة السلطان ، وبالإشادة به فى جميع حالاته ، وكأنما هو فى جميع تلك الحالات نفس الرجل ، جادّ مثابر ، قد وَسِع علمُه كلَّ شيء ، وتواصل عمله إلا خلال سُوَيْعات من الراحة لازمة لاستعادة قواه ، وحفلات غالبًا ما يحضرها من قبيل الواجب ، لا للترفيه عن النفس . فإن داعب السلطان هذا أو تبادل النكات مع ذاك ، فمداعباته ونكاته دائمًا لطيفة خفيفة الظل ، بل وربما حملت من الإلماحات الرصينة الجادّة ما يخفى ، أو لا يخفى عن فهم سامعيه .

هذه الصورة للسلطان فى وسائل الإعلام ، وفى أذهان الجماهير التى تتلقّاها عن وسائل الإعلام ، يطّلع عليها الفرد من أفراد الحاشية ، فيبتسم ابتسامة قد يخفى مغزاها ، أو لا يخفى عن فهم ناظريه .. فهو يعرف ، أو يحسب أنه يعرف الحقيقة العارية ، ويدرك أن معالم الصورة وَهْم إعلامى له بواعثه وغاياته ، وأن الرّتوش كادت أن تذهب تمامًا بواقع الحال .. لكنه يدرك أيضًا أنه من الخطر عليه أن يجهر بما يعلم ، أو أن يرى الملأُ ابتسامته .

غير أن ثمة ما هو أخطر عليه من ذلك .. فسخريتُه من التفاوت بين الأصل والصورة ، والتشكّك الذى أصبح بمرور الوقت طبيعة ثانية عنده غالبًا ما يتسلّلان إلى ميادين أخرى ، فيؤثّران فى نظرته إليها ، وأهمّها العقيدة الدينية .. فهو يسمع حوله التسبيح صبح مساء بحمد الله ، وصفاتُ الله وأسماؤه الحسنى تتردّد على ألسن أفراد الجمهور ، وثمة إشادة دائمة بعدله ورحمته ، وجبروته وحكمته ، قد وَسِع علمُه كلّ شيء ، ووسع ملكوته السماوات والأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصّدور ... حينئذ ينعكس تأثير مفهومه السليم عن حقيقة السلطان على مفهومه عما يحسب أنها حقيقة الله . وهو مفهوم سيكون ساخرًا بالضرورة ، ومتشكّكًا بالضرورة ، فتؤدّى به هذه السخرية وهذا التشكك بمضى الزمن إلى فقدان الإيمان ، وإلى إلحاد صريح .

نعم هناك بين الناس من أدّى به الإيمان القوى بالله إلى مَيْل لا شعورى إلى أن يخلع على السلطان عددًا من صفات ربّه ، وإلى أن يخشَى السلطان خشيته لربه .. غير أن العكس هو أيضًا صحيح : فغالبية أفراد حاشية السلطان أدّت بهم معرفتُهم الوثيقة به ، وسخريتُهم التالية بصورته المثالية عند الجماهير ، إلى ميل لا شعورى إلى الكفر بمعالم صورة الله فى الأديان وكما تبدو عند تلك الجماهير .

وقديمًا قال الإمام الشافعى : « تَعَبَّدْ مِن قبل أن تَرَأّس ، فإنك إن رأستَ لم تقدر أن تتعبّد ! » .

* * *

- ١٧ -

عن « التعاطف » و« التكاتف » فى السياسة والدّين

فى ١٣ من ديسمبر من عام ١٩٣٢ ، تلقّى الكاتب الفرنسيى الكبير أندريه جيد ، رسالة من « الاتحاد الأوروبى لأصدقاء روسيا » L'Alliance Européenne des Amis de La Russie (وهو اتحاد كان يضمّ فى صفوفه عددًا غفيرًا من المتعاطفين مع النظام السوفييتى من المفكرين والأدباء والفنّانين والصحافيين فى القارة الأوروبية) ، تفيده بأن الاتحاد سيعتبره شرفًا له أن ينضمّ جيد إليه ..

كان جيد إبّان تلك الفترة من حياته ميّالاً إلى الماركسية ، راضيًا عن أداء النظام السوفييتى ، ومع ذلك فقد جاء ردّه على هذه الدعوة كالتالى :

« إن النتيجة الوحيدة لانضمامى إليكم هى العجز عن الاستمرار فى الكتابة .. لقد أعلنتُها مدوّيةً صريحة أنى متعاطف مع الاتحاد السوفييتى ، ومع كل ما يمثّله فى أعيننا وفى قلوبنا من المعانى ، بالرغم من إدراكى لبعض أوجه القصور فى نُظمه .. غير أنى أعتقد أن تعاونى سيكون أجدى عليكم ، وأنفع لقضيتكم ، إن صدر هذا التعاون منى عن إرادة حرّة وطيب خاطر ، دون أن أكون عضوًا مقيَّدًا فى اتحادكم . عندئذ لن يتحدّث أحد عن أنى أكتب ما أكتب لانتمائى إليكم ، والتزامى بمبادئكم وبنود ميثاقكم ، فتفقد كتاباتى كل قيمة حقيقية لها ، ويصيب العُقْمُ قريحتى . وإنى لآمل ألاّ تنسبوا ما أقوله الآن إلى رغبة فى السلامة وفى توفير الحماية لذاتى . ذلك أنه سبق لى أن برهنتُ أكثر من مرّة على استخفافى بالمخاطر متى رأيتُ ضرورة للاستخفاف بالمخاطر . غير أن الذين يقرءون اليوم ما أكتبه فأؤثر فيهم عن قصد أو عن غير قصد ، سيكفّون عن الإصغاء إلىّ متى اقتنعوا بأنى إنما أفكر وأكتب على ضوء تعليمات وأوامر تصدر إلىّ » .

قد تبدو الحجّة الواردة فى رسالة جيد قوية مُقْنعة . غير أن مزيدًا من التفكير قد يقودنا إلى التساؤل عن جدوى « التعاطف » مع قضية من القضايا دون تنظيم يجمع

المتعاطفين « المتكاتفين » ، ويلمّ شتاتهم تحت لواء واحد .. فنحن نعلم من واقع تاريخنا الحديث كيف نشأت فى أقطارنا الإسلامية حركات إصلاحية مهمة - كتلك التى دشّنها الأفغانى ومحمد عبده من أجل السعى إلى إنهاض المسلمين من كبوتهم ، وعلاج مظاهر ضعفهم وتفكّكهم ، والتصدّى لمشكلات اجتماعية وسياسية وحضارية بالغة الحيوية والخطورة .. غير أنه لا شكّ فى أن هؤلاء المصلحين - حتى مع مناصرة الكثيرين لدعوتهم - إنما كانوا يتصرّفون كمفكّرين أفراد ، لا يجمعهم تنظيم ، ولا هم عُنوا بوضع مخطّط عملى للعمل الجماهيرى من أجل تحقيق الأهداف .

وهذا هو بالضبط ما تلافَتْه التيارات الإسلامية بعدهم ، بدءًا بالشيخ حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين ، فغير الإخوان من جماعات السلفيين التى كان للتنظيم فيها المقام الأول ، من أجل ضمان « تكاتف » المتعاطفين فيما بينهم وتنسيق خطاهم وتوحيد جهودهم . والملاحظ أن المستوى الثقافى والكفاءة الذهنية لدى أفراد هذه التيارات الإسلامية الجديدة وقادتها على السواء ، وباستثناء قلة قليلة كحسن البنا وسيد قطب ، هما أضعف بكثير منهما لدى المصلحين الإسلاميين إبان العقود الأولى من القرن العشرين . فالرؤية لديهم قاصرة ، والأهداف غير واضحة ، والمنهاجية فاسدة ، وفكرتهم عن إجماع السلف الصالح مشوّشة ، وإلمامهم بالتاريخ واهٍ معيب . والأخطر من هذا كله أنهم رغم إصرارهم على شمولية الإسلام وتفرّده ، وتميّز كل نظمه ومفاهيمه عن كل النظم والمفاهيم الغربية ، لم يفلحوا إلا فى إبراز حفنة من النقاط والقضايا ، ركّزوا عليها ، وأحفوا فى تكرارها إلى حدّ الإملال ، دون أن يتجاوزوها إلى غيرها ، إلا فى النادر . وأعنى بهذه النقاط : موضوع الربا وفائدة البنوك ، وسفور المرأة وتحديد النسل ، وكراهة العلمانية والعقلانية ، والنفور من استخدام سبل البحث العلمى والمنهج التاريخى فى مجال الإسلاميات .

ومع ذلك فقد أحرزت تلك الجماعات الجديدة من النجاح فى نشر دعوتها فى صفوف الجماهير ما لم يحرزه عمالقة المصلحين التنويريين الإسلاميين من أمثال الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى المراغى وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ومحمود

شلتوت، وعبد الوهاب خلاف ، والعشرات غيرهم . والسبب الرئيسى فى هذا هو فى زعمى قلة صبر مفكّرى تلك الفئة الأخيرة على الانخراط فى تنظيم أو حزب يمسّ استقلالهم ، ويحدّ من المباهج الكمالية الذهنية ، ويُلزمهم باحترام بنود ميثاق ، وبعدم الخروج على خطّ أو سياسة لا تحظى لديهم كافة تفاصيلهما بموافقتهم الكاملة ، أو قد يوحى انتماؤهم الحزبى إلى البعض بأنهم « إنما يفكّرون ويكتبون على ضوء تعليمات وأوامر تصدر إليهم » .

أضيف إلى ذلك سببًا آخر : هو أن فكر تلك الصفوة من المصلحين الإسلاميين اتّسم بالافتقار إلى احترام الرجل العادى فى مجتمعهم ، وإلى الثقة فى قدراته واستعداده الروحى . وهم فى هذا يشتركون مع دعاة التغريب ، ويختلفون اختلافًا جذريًا عن قادة التيارات الإسلامية الجديدة . إذ بينما تعبّر هذه التيارات عن مشاعر الرجل العادى ومفاهيمه ، سعت الصفوة من المصلحين إلى أن يسوقوه سوقًا إلى ما يرونه هم خيرًا له . ولعل هذا الافتقار إلى الثقة هو الذى حدا بهم إلى الإصرار على قيام علاقة أساسية بين السلوك الاجتماعى والعقيدة الدينية ، وعلى أن إصلاح المجتمع لا يمكن أن يتمّ إلا عن طريق الدّين لا مستقلاً عنه ، وذلك لاعتقادهم أن المصرى ، والعربى ، متى خبا نور الدين فى قلبيهما فسد خلقُهما ، ولا مندوحة عن استقامة الخلق فى أية محاولة للإصلاح الاجتماعى .

خلاصة القول هى أنه ما من أحد من أفراد تلك الصفوة الكريمة من الذين انتهجوا نهج أندريه جيد ، ولم يسمح لهم كبرياؤهم العقلى أن يُحنوا رءوسهم لتنظيم كفيل بتحقيق أهدافهم ، إلا غَلَب عليه قُرب نهاية حياته إحساسٌ بالقهر والفشل ، وبخيبة الأمل فى مجتمع أبت الأغلبية فيه أن تناصره وتدعم رسالته . فاختار أن يُلقى بمسئولية فشله على عاتق « تخلّف المجتمع الذى يعيش فيه » ، أو « مؤامرات ومكائد الأزهريين الرافضين لكل إصلاح » ، أو ما شابه ذلك من مبررات .

كتب على عبد الرازق يفسّر موافاة المنية المبكّرة لأخيه الشيخ مصطفى بعد عام واحد من تولّيه مشيخة الأزهر :

« حاول أن يرسم مناهج الإصلاح الذى كان يرتجيه للأزهر والأزهريين . ولكن الأزهريين لا يريدون لأنفسهم ولا لأزهرهم خيرًا ولا صلاحًا ، فما انفكّوا يوصدون كل باب يُفتح لإصلاحهم ، ويتربّصون الدوائر بكل من تحدّثه نفسه بأن يرتجى لهم الخير والإصلاح . بل لعل الله جلّت حكمتُه قد قضى ، ولا رادّ لقضائه ، بألا يتمّ للأزهر ، ولا للأزهريين خيرٌ ولا إصلاح ... » .

وكتب الشيخ مصطفى عبد الرازق نفسه فى يومياته قبل أسابيع قليلة من وفاة الأستاذ الإمام محمد عبده فى عام ١٩٠٥ ، يقول :

« ذهبتُ إلى الشيخ محمد عبده أزوره فى دار الإفتاء الجديدة بشارع الدواوين ، ولم أكن رأيته من يوم أن ترك الأزهر .

« دخلتُ إليه فوجدتُ مجلسه حاشدًا بكبار الشيوخ ورؤساء الموظفين فى الأزهر ، يُخيّل إلى الناظر إليهم أنهم يفيضون إخلاصًا للرجل وودًّا ، وبينهم كثيرون يعلم الله ويعلم الشيخ عبده نفسه أنهم أشدّ الناس عداوة له وشماتة فيه . كان الشيخ متشاغلاً بأوراق بين يديه يراجعها ، فلما لمحنى قام إلى ، وأحسن تحيتى ، وأدنانى منه .. أخذ يسائلنى عن حالى وعما أشتغل به من الدروس ، فقلت : أما وقد سألتنى عن دراستى فإنى قد سئمت دروس الأزهر ، ولم أعد أستطيع أن أستمر على الاشتغال بتلك الأبحاث العقيمة التى أشعر بأنها تجنى على عقلى وذوقى . قال : يا بنى أنا أعرف هذا السأم ، وهو يدلّنى منك على ما تفرّستُه من فطرة صالحة . استعدّ لدخول دار العلوم ، فإنها على ما فيها من النقص أقلّ إضعافًا للغرائز القوية ، وإسآمًا للعقل السليم من الأزهر .

« ولما رأى الحاضرون حفاوة الشيخ بى وتقريبه لى ، جعلوا يتطلّعون إلى ويستبقون إلى تحيّتى . هذا يقول : الحمد الله على السلامة ، رافعًا يده بإشارة السلام مبتسمًا . والآخر يخاطب الأستاذ المفتى هازًّا رأسه علامة التأكيد قائلاً : الشيخ مصطفى رجل طيب . فيزيد الثالث : وهو والله من المخلصين لسيدنا الشيخ . ويصيح الرابع : لقد رأيتُه بعينى رأسى يبكى يومَ قدّم الأستاذ استقالته ... عندئذ أخذتُ أنظر بدهش إلى

هؤلاء العلماء الأفاضل الذين لا يعرفنى منهم أحد ، والذين يتبرّعون بتزكيتى ، ولو رآنى أحدهم خارج تلك القاعة لغَضَّ بصره عنى استهانةً وكِبْرًا . وكنتُ أرقب الشيخ محمد عبده يعطيهم نظره مملوءًا عجبًا وألمًا . ثم التفت إلى ناحيتى ومدّ إلى يده قائلاً فى أذنى : انصرف يا بُنى ! إنى أخاف أن يعديك النفاق وزُرنى وقتًا بعد وقت فى منزلى بعين شمس » أ.هـ.

ثم أقول : ماذا لو أن هؤلاء وأمثالهم كانوا قد استعاضوا عن مكابرتهم وإحساسهم بالتميّز عن غيرهم ، بالإقدام على قدر من التنازلات التى لابدّ منها من أجل نجاح تنظيمهم فى تحقيق جُلّ غاياته ، وإفشال مكايد خصومه . أفَما كان من شأن ذلك أن يجنّبهم مشاعر الإحباط والخيبة فى نهاية المطاف ؟

بيد أن الواضح أن المثقفين الليبراليين - كعادتهم فى كل عصر وقطر - هم دائمًا قاعدو الهمّة خاملون ، لا يُحسنون غير الكلام والنقاش ، عاجزون رغم استنارتهم ، أو بسببها ، عن الوقوف فى وجه حركات همجية ديناميكية غير عقلانية . بل كان بعضهم أحيانًا - وهو الأدهى والأخطر - على استعداد للاعتراف بأن القيم الغالية التى يعتزّون بها ويعتبرونها أسمى ما فى الوجود ، قد يكون من الأنسب اطّراحها والتخلّص منها باعتبارها كماليات روحية ، وترفًا ذهنيًا ، وعلى استعداد للاعتراف بأن اليمينية المتطرفة ، مع خطئها ، تمثل روح الشعب ، وتحقّق له ذاتيّته الفريدة .

درسنا فى علمى السياسة والتاريخ أن الليبرالية لا يمكن لها أن تنجح مادام لغير الليبراليين قوّة يُعتدّ بها ، وليس بوسع الديموقراطية أن تستمر وتبقى إلا إذا كان الجميع يؤمنون بها ، ويحرصون على حمايتها . وقد كان واضحًا منذ البداية ، (منذ السيد رشيد رضا وحسن البنا) أن المتطرفين يستفيدون من الديموقراطية دون أن يكنّوا لها أدنى احترام ، وكانوا منذ نشأة حركتهم عاقدى العزم على ألا يسمحوا ، متى وصلوا إلى السلطة ، بأن يتكرّر الوضع فيستفيد خصومهم من الجوّ الديموقراطى . وما كان أمثال محمد عبده ومصطفى عبد الرازق فى حاجة إلى ظهور المتطرفين ، ثم الإرهابيين فى

مجتمعهم حتى يدركوا أن الليبراليين المؤمنين بالديموقراطية هم فى خطر إن هم استرخوا ناعمى البال يستمتعون بدفئها ، وكأنّها بالضرورة قائمة إلى الأبد ، وأنهم فى خطر ما لم تكن ليبراليتهم مناضلة ، وإنسانيتهم مقاتلة ، وعيونهم على الدوام يقظة ، فيدفعهم هذا الإدراك إلى التكاتف فيما بينهم ، وتوحيد الصفوف فى تنظيم صامد مناضل من أجل التصدّى لمن يهدمون بمعاولهم أسس الليبرالية وأركان الديموقراطية .

* * *

- ١٨ -

عن حتمية التغيّر ، ومعضلات التكيّف

فى ٢٥ مارس عام ١٩٨٢ ، قدم إلى السفارة المصرية في بون أحد كبار الدعاة إلى الأصولية الإسلامية ، وهو الدكتور على جريشة ، ومعه رجل من مساعديه ، وقدّما إلى عريضة موقّعة من أفراد جماعتهم فى مدينة ميونيخ ، يطالبون الحكومة المصرية فيها بالإفراج الفورى عن خالد الإسلامبولي، قاتل السادات المحكوم عليه بالإعدام .

وإذ تفرّست في ملامح المرافق الملتحى لعلى جريشة ، تبيّنت أنه كان زميلاً لى أثناء دراستنا بالمدرسة النموذجية الثانوية فى الأربعينيات ...

كان ترتيبى الأول دائمًا فى الفصل ، وكان ترتيبه الأخير .. غير أن شعبيته بالمدرسة - سواء لدى الطلبة كافة أو بعض المدرسين ، بل والناظر نفسه - كانت عظيمة ، لا تدانيها شعبيتى فى كثير أو قليل، بسبب تفوّقه فى الألعاب الرياضية ، وفضله فى نيل فريق مدرستنا الكأس تلو الكأس فى مباريات كرة السلّة مع مدارس القاهرة الأخرى.. ولازلت إلى اليوم أذكر ازدراءه الدائم لى بسبب تخلّفى الملحوظ فى تلك الألعاب ، وصلَف تعامله معى رغم تفوّقى فى الدرس ، وكيف كان المدرسون يتودّدون إليه ، وسائر الطلبة يحسدونه ويعاملونه باحترام جم ، وكأنما هو من أنصاف الآلهة . كما أذكر منظره وهو يطوف ويجول بالملعب فى زيّه الرياضى ، يأمر وينهى ، وينادى ويشتم، ويلكم هذا ويدفع فى صدر ذاك ، دون أن يلقى اعتراضًا أو مقاومة .

ثم تمرّ الأيام بنا فنشبّ ونكبر ، ونلتحق بالجامعة ثم نطلب العمل ، فإذا الدنيا خارج الملعب والمدرسة والجامعة أعظم احتفالاً بالقدرات الذهنية منها بالمهارات العضلية، وإذا بزميلى الرياضى القديم يُفصل من كلية الحقوق بعد قضائه عشر سنوات فيها ، ثم إذا هو يقضى ثلاث سنوات أخرى فى البحث عن عمل فى ظل تفشى البطالة ، حتى يجد

لنفسه وظيفة كتابية هزيلة فى الشهر العقارى ..وقد انقطعت أخباره عنى بعد أن افترقت بنا الطرق ، وغابت صورته عن ذهنى ، إلى أن وفد على وأنا وزير مفوض بالسفارة فى ألمانيا ، يقدّم التماسه بالإفراج عن قاتل السادات ..

وبالرغم من أن الرجل لم يتذكرنى ، ولا بدا عليه السرور لفكرة تزاملنا فى الدراسة ، فقد دعوته إلى العشاء فى دارى . ولا أذكر كيف تطرّق الحديث المتشعّب بنا إلى وضع المرأة فى المجتمع . غير أنى أذكر كيف انبرى الرجل فى قوّة يؤكد ضرورة عودة المرأة إلى البيت لرعاية الزوج والأسرة وخدمتهما ، وأن البيت هو مكانها الطبيعى ، والأمومة واجبها الطبيعى الأسمى ، مبررًا ضرورة إبعادهن عن الحياة العامة والوظائف الحكومية بأنهن ناقصات عقل ودين ، ولم يخلقن إلا من أجل متعة الرجال وتوفير الراحة لهم ، ومستشهدًا بقوله عمر بن الخطاب لامرأة عارضتْه فى أمر يدبّره : « مالكنّ وأمور الرجال ؟ إنما أنتنّ لُعبة ، إن كانت لنا بكنّ حاجة دعوْناكنّ » ..ثم كان أن صارحنى بأن هذه الفكرة نبتت فى ذهنه خلال السنوات الثلاث التى حفيت قدماه فيها يبحث عن وظيفة ، حين كان الغضب يراوده إذ يرى النساء يزاحمنه فى سوق العمل ، ويطردنه منها .

* * *

كان من السهل على بعد حديثى الطويل ، مع ذلك الزميل القديم الملتحى ، عن رحلة عمره ومعاناته وأفكاره ، أن أدرك بعض الأسس المهمة لحركة الإسلاميين المتطرفين، خاصة بعد أن قارنتُ نزعاتهم وبواعثهم وأفكارهم بخلفية الحركة النازية الألمانية فى العشرينيات من القرن الماضى ..

فثمة فى الحالين أناس شعروا - بعد فترة قصيرة من التألّق خلال ريعان الصبا وشرخ الشباب - بأن الأوضاع قد تغيّرت فى مجتمعهم تغيّرًا رهيبًا سريعًا أوْدَى بذلك التألّق . وقد ساءهم هذا التغيير لدرجة أن باتوا يتطلّعون فى حماس شديد - شعوريًا ، أو لا شعوريًا - إلى عالم تعود فيه للقوة العضلية الغلبة على الذكاء والقوة العقلية ،

وللعمل أهمية تفوق قيمة الفكر : عالم مثير تقوم دعائمه على النظام والقيادة والطاعة ، والولاء للفوهرر ، أو أمير الجماعة ، والإيمان القوى البسيط ، وعالم يمكّنهم ، فوق كل شيء ، من الانتقام من المثقفين الأذكياء «الخرعين» من أصحاب النظارات ، الذين باتوا الآن فى القمة ، واستأثروا بالمناصب المهمة ، وبالثروة والقوة ، وأضحوا فى مراكز تؤهلهم لأن يوظفوا عندهم أبطال الماضى ممن كانوا ينظرون إليهم فيما سلف نظرة ازدراء واحتقار ... هم الآن إذن فى انتظار أن تحين الفرصة للانقضاض عليهم ، والانتقام منهم ، وإلى جعلهم يرتعدون أمامهم من جديد .

وهم خلال هذه الفترة من الانتظار يستفيدون فى نشر دعوتهم من عامل قوى آخر ، هو رفض الرجل العادى (أو افتقاره إلى القدرة على) الاستمرار فى تكييف نفسه وفق التغييرات المتلاحقة ، والأوضاع المستجدة .

لقد كانت حركة التطور والتغيير فى زماننا هذا أسرع من أن يلاحقها عدد متزايد من الناس ، لم تتمكن أذهانهم بحكم طبيعة تكوينها من التكيّف المجهد للعقل والروح معًا .. فهنا ظروف جديدة وأحوال غير مألوفة تتطلب تكيّفًا مستمرًا لا يتوقف ، وجهدًا مضنيًا تتطلّب القدرة على بذله مستوى عاليًا من النضج ، ومن الاحتمال ، ومن ضبط النفس : من النضج الكافى لإدراك حتمية التغيير ، ومن احتمال أفكار صعبة الفهم ، وعادات وأنماط عيش غير مألوفة ، ومن ضبط النفس فيما يتصل بالرغبة البدائية فى الانتقام مما لا يسعهم احتماله وفهمه .

وحين تتم عملية التغيير بأسرع مما يحتمله الإنسان العادى ، فإنها تثير بالضرورة عنده نوعًا معينًا من الاحتجاج وردّ الفعل . فأما الاحتجاج فهو احتجاج أولئك الذين ينتابهم الشعور بالنقص إزاء إنجازات الأذكياء ، ومعارف المثقفين ، وكفاءة الموهوبين ، فيسعون جاهدين – عن وعى أو عن غير وعي – إلى تحيّن الفرص للإيقاع بمن أشعرهم بهذا النقص والانتقام منه .. وأما ردّ الفعل فيتمثل فى ظهور رغبة عارمة فى العودة إلى نمط من المجتمع بسيط مألوف ، يكون فيه النظام والطاعة ، والقوة البدنية والشجاعة ،

أبرز فضائل الرعية والمحكومين ، ويكون فيه الحزم والدوجماتيقية والثقة المطلقة أبرز فضائل القادة الحاكمين .. ولذا بتنا نلاحظ أن الحضارة التى تتجاوز فيها سرعة التطور والتغيير قدرة الإنسان العادى على ملاحقتهما ، هى دائمًا فى خطر الانزلاق إلى المستوى القديم الأدنى درجة ، نتيجة الاحتجاج اللاشعورى عند هذا الإنسان العادى على ما يفرضه التغيير عليه من توتر .. وهذا هو ما دفع هـ. ج. ويلز إلى تسمية النظام الفاشى بثورة البلطجى الغبى على الحضارة .

« إننا لا نفهم هذا التطور ، ونعتزم التوقف عن محاولة مسايرته ، بل ونعتزم إيقافه ، إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً » - هذا هو المنطق الذى يتخفّى وراء صنف معين من النظريات الدينية والسياسية والاجتماعية ، ويحكم توجّهات الحركات الرجعية فى عالمنا المعاصر ، بدعوى الحفاظ على التقاليد القديمة ، والعودة إلى نمط أبسط من أنماط العيش ، واستئصال ما تفشّى من « فساد الخلق » ، وتطهير المجتمع وإنقاذه .

فإن نحن نظرنا إلى تاريخ النازية فى ألمانيا ، نجد أن الساعة فى ظل حكومة فايمر كانت تمضى بسرعة أكبر مما تحتملها غالبية أفراد الشعب ، بحيث أصرّت النازية على تأخيرها . فما وصل دُعاتها وقادتها إلى الحكم ، حتى فُصل الأذكياء والمثقفون من كبريات الوظائف ، وأتيحت للدهماء فرصة مطاردتهم والتخلص منهم ، وأبيح لها إحراق كتب الروائيين والشعراء والفلاسفة ، بل وأن تقتل أو تنفى أو تعذّب وتضرب العلماء والفنانين والكتّاب ، وأن تنفّس عما تشعر به من كراهية للذكاء ، وخوف من الفكر ، وعداء للفردية ، وعدم احتمال للآراء التى تخالف آراءهم . ثم إذا بالدوجماتيقية وقد غدت فضيلة ، وسعة الأفق وقد أصبحت جريمة ، وإذا بهتلر فى إحدى خطبه قبل تولّيه السلطة بأشهر قليلة يهاجم القضاة الذين أدانوا أفرادًا نازيين لاغتيالهم الشيوعيين والديموقراطيين الاشتراكيين ، ويصف أحكامهم ساخرًا بالموضوعية الحمقاء ، وهى الترجمة النازية لعبارة «احترام سيادة القانون» .

كان شعار الشباب النازى : « خبّرونا بما عسانا أن نفعله وأن نعتنقه من أفكار ، وسنسير خلفكم ولو إلى أقصى الأرض » .. فهنا عقيدة قوية تحرّك هؤلاء البدائيين ،

وإيمان لم يسبق له مثيل منذ العصر الوسيط ... وقد كان موقف النازية من الحركة النسائية شديد الشبه بموقف زميل الدراسة الذى تحدّثت عنه فى بداية المقال . فقد وُجّهت الضربات القاصمة إلى تلك الحركة ، وأُخرج النساء من المناصب التى وصلن إليها بعد عناء شديد ، وصار عليهن أن يسايرن مفهوم الرجل عن فضيلة المرأة ودورها ومكانها الطبيعى ، وألا يزاحمنه فى الحياة العامة أو يحاولن الانخراط فى الوظائف ، أو العمل بأجر يحرّرهن من استبداد الزوج أو الأب ... لقد كان الرجال دائمًا يستاءون من فكرة الاستقلال الذى تتيحه للمرأة قدرتها على كسب رزقها ، والذى تتبدّد معه هيمنة الذكور .. كذلك فإنه لا مفر من الاعتراف بأن انتشار البطالة كثيرًا ما أسفر عن مطالبة الرجال النساء بالانسحاب من سوق العمل وإفساح الطريق أمام الرجال . غير أن هذا السبب الاقتصادى غير كاف لتفسير ظاهرة الدعوة إلى عودة المرأة إلى البيت . فالعودة إلى الماضى البدائى هى إحدى دعامات الحركات الفاشية ، وأحد المؤثرات الرئيسية فى الموقف من النساء فى مجتمع أذعنت فيه القوة الذهنية للقوة العضلية ، وفضّل رجاله قيم البدائيين على القيم الحضارية .

* * *

والواضح الآن لنا أن تاريخ الأخلاق وتاريخ السياسة قد يتبعان حركة بندول الساعة : فإن تحرّكا يومًا بعيدًا عن مسلك الآباء وقيمهم ، ، فكثيرًا ما يعودان إلى مسلك الأجداد وقيمهم ، فإذا بالقوم وقد أنزلوا واستعادوا آلهة الأجداد من الرف الذى وضعها عليه الآباء بعد أن هجروا عبادتها . وقد كانت هذه الآلهة التى استعادها النازيون فى المجتمع الألمانى هى آلهة البساطة والحماس ، والقوة والقيادة .

فى مثل تلك المجتمعات لا يعرف الأفراد الحوار ، وإنما يعرفون التصريح والتشدّق بالمعتقدات .. هم لا يعرفون الإنصات أو الشك أو التروّى أو تبادل الأفكار .. فعقائد زماننا تخلق لدى معتنقيها ثقة فى النفس غير معهودة ، فى حين كان الناس فى الماضى ينشدون المعرفة قبل تكوين الرأى .. وغالبًا ما يشجّع الجو السائد من التحمس الزائد

الأغبياء على تأكيد ذواتهم فى ثقة . فإذا النقاش وقد حل مكانه العناد والإصرار ، وإذا التساؤل وقد حل مكانه الجزم ، وإذا المسائل التى ظلت خيرة العقول فى تاريخ البشرية حائرة فى أمرها (كالغرض من الوجود وطبيعة المعرفة والسلوك الأمثل فى الحياة) يجيب عنها كل من هبّ ودب ، فى ثقة ودوجماتيقية ونفاد صبر واستعلاء ، وكلها صفات لصيقة بالجاهلين بالتاريخ ، ومن سمات غير الملمّين بمناهج الفكر .

* * *

- ١٩ -

نحو تطوير التشريع الإسلامي

١

يبدو أن المصريين قد اعتادوا واستمْرءوا فكرة أن تكون بلادهم مصدر الإشعاع الفكرى الرئيسى فى العالمين العربى والإسلامى . ذلك أن القليلين من مثقفيهم هم الذين يلقون بالاً إلى الثمار الفكرية فى الأقطار المحيطة بقطرهم ، أو يقدّرون الضرر الذى ينجم حتمًا عن هذه العزلة وهذا الإغفال . وها قد مضى أكثر من ربع قرن على ظهور كتاب فى السودان ، هو كتاب « الرسالة الثانية من الإسلام » للشهيد محمود محمد طه ، الذى أعتبره أهم محاولة ينهض بها مسلم معاصر لتطوير التشريع الإسلامى ، ومن أبرز محاولات التوفيق بين التعاليم الإسلامية ومقتضيات المعاصرة ، دون أن يحظى فى مصر (أو فى أى بلد إسلامى خارج السودان على حدّ علمى) بالاهتمام الذى هو أهلٌ له ، ودون أن نلمس له تأثيرًا فى اتجاهات مفكرينا ومثقفينا وجمهور شعبنا ، رغم احتوائه على فكرة أساسية ثورية لاشك عندى فى قدرتها - متى صادفت القبول لدى الرأى العام الإسلامي - على أن توفّر الحلول لمعظم المشكلات التى تكتنف موضوع تطبيق الشريعة ، فى إطار إسلامى .

وبالوسع أن نوجز هذه الفكرة الأساسية فيما يلى :

إن النظرة المتمعّنة فى محتوى القرآن والسنة تكشف عن مرحلتين لرسالة الإسلام المكية والمدنية . والرسالة فى المرحلة الأولى هى الرسالة الخالدة والأساسية ؛ رسالة تؤكد الكرامة الأصيلة لكافة البشر دون اعتبار للجنس أو العِرق أو العقيدة الدينية أو غير ذلك. وقد تميّزت هذه الرسالة بالتسوية بين الرجال والنساء ، وحرية الاختيار الكاملة فى أمور الدين والعقيدة . فأما أسلوب الدعوة إليها فقائم على أساس الإقناع بالحجج العقلية ، والجدل بالتى هى أحسن ، دون أدنى قدر من الإكراه أو القهر .

وإذ رفض المشركون هذا المستوى الرفيع للرسالة ، وبدا واضحًا أن المجتمع ككل لم يكن بعد مستعدًا للأخذ بها ، جاءت الرسالة الأكثر واقعية فى الفترة المدنية ، ونُفِّذت أحكامها . وعلى هذا فإن جوانب رسالة الفترة المكية التى لم تكن قابلة للتطبيق العملى فى السياق التاريخى للقرن السابع الميلادى ، عُلِّقت وحلّت محلّها مبادئ أكثر عملية . غير أن الجوانب المعلقة من الرسالة المكية لم تضع إلى الأبد باعتبارها مصدرًا للشريعة ، وإنما أُجِّل تنفيذها إلى حين توافر الظروف المناسبة فى المستقبل .

وقد سبق لى أن ذكرتُ فى مقدمة كتابى « دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك فى القرن العشرين » أن الكثير مما نخاله من الدين هو من نتاج اعتبارات تاريخية واجتماعية معينة ، ومن إضافات بشر من حقب متعاقبة . وقد كان من شأن هذه الاعتبارات والإضافات أن أسدلت حجابًا كثيفًا على جوهر الدين وحقائقه الأساسية الخالدة . فالدين لا ينشأ فى فراغ . وإنما يظهر فى مجتمع معين وزمن معين ، فتتلوّن تعاليمه بالضرورة بظروف ذلك المجتمع ومقتضيات ذلك الزمان وتراعيها . هو إذن حقيقة مطلقة وردت فى إطار تاريخى ، وظهرت فى بيئة اجتماعية انعكست معالمها عليه، وذلك من أجل أن يلقى القبول، ويحظى بفهم الغالبية ، ويضمن الانتشار . فكما أنه يستحيل على المرء أن يحمل الماء فى إناء ، أو يحتفظ بعنصر كيميائى غازى إلا إن خلطه بعنصر غريب يحوّله إلى أقراص صلبة ، فإن الرسالة الدينية بحقائقها العالمية والخالدة لا يمكن إلا أن تبلَّغ لمجتمع معين فى حقبة تاريخية محددة . وهو ما يجعل من المحتم أن تدفع الرسالة ثمن ذلك فى صورة الدخيل المؤقت ، العارض المحلّى ، غير الجوهرى وغير الأساسى . فلو أن الرسالة الخالدة لم تراع جهاز الاستقبال لدى من تسعى إلى مخاطبته والوصول إليه ، لضاعت فى الأثير واستحال التقاطها . أما ضمان التقاطها واستقبالها فيقتضى تغليف الرسالة بما ليس من صلبها، وترجمة المحتوى العالمى الخالد إلى لهجة محلية ، ومراعاة غلظ الأذهان ، وضعف المستوى الثقافى والحضارى ، والتشبث العنيد بالمفاهيم الموروثة والتقاليد . فإن أصرّت الرسالة على أن تحتفظ بنقائها فلا تتلوّن بالظروف المحلية والتاريخية ، ضاعت هدرًا ولم يقبلها أحد . ولو أن الرسالة تلوّنت عند تبليغها بالمحلى التاريخى ، ثم أصرّت بعد ذلك على البقاء على ما هى عليه ، رغم

انتشارها إلى بيئات اجتماعية جديدة ، ومرور الحقب التاريخية عليها ، وأبت أن تتشكل بظروف تلك البيئات الجديدة ، ومقتضيات العصر تلو العصر ، لاستحال عليها أن تلبى الاحتياجات الروحية لأهل المجتمعات والعصور الجديدة بنفس الفعالية التى لبّت بها احتياجات أهل المجتمع والعصر اللذين جاءت الرسالة فيهما .

هذا عن رأيى وقت كتابتى لمقدمة كتابى المشار إليه . وأنا الآن أميْل إلى القول مع الأستاذ محمود محمد طه بأن رسالة الإسلام بحقائقها العالمية الخالدة بُلّغت خلال الفترة المكية ، دون اعتبار لغلظ الأذهان ، وضعف المستوى الحضارى للعرب فى ذلك الوقت ، ودون التلوّن بالظروف المحلية والتاريخية . وفى ظنى أن هذا هو أيضًا ما أراد على عبد الرازق أن يقوله فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » (١٩٢٥) وإن كان قد عبّر عن قصده هذا بعبارات تتّسم ببعض الالتواء ، وما عبّر عنه صراحة وفى غير التواء المؤرخ البريطانى آرنولد توينبى فى حديثه عن محمد فى آخر كتاب له ، وهو Mankind and Mother Earth (١٩٧٦) الذى نُشر بعد سنة من وفاة مؤلفه .

غير أن الأستاذ طه يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أحدٌ منّا ، ويصل بالفكرة إلى نتيجتها المنطقية :

فعنده أن الفقهاء القدامى من مؤسسى صرح الشريعة الإسلامية جانبهم التوفيق إذ فسّروا مبدأ النسخ على أساس أن النصوص اللاحقة من القرآن والسنة (أى فى الفترة المدنية) تنسخ أو تلغى كافة نصوص الفترة المكية السابقة التى تبدو متعارضة معها . والسؤال الذى ينجم عن هذا هو ما إذا كان مثل هذا النسخ دائم المفعول بحيث تبقى النصوص المكية الأقدم غير معمول بها إلى الأبد الآبدين . ويذهب محمود طه إلى أن هذا القول مرفوض بالنظر إلى أنه لو صحّ لما كان ثمة معنى للإتيان بالنصوص الأقدم . كما يذهب إلى أن القول بأن النسخ أبدى يعنى حرمان المسلمين من أفضل جوانب دينهم . وبالتالى فهو يقترح تطوير أسس الشريعة الإسلامية ، وتحويلها عن نصوص الفترة المدنية إلى نصوص الفترة المكية السابقة عليها . ويعنى هذا أن المبدأ التأويلى فى التطوير لا يعدو أن يكون عكسًا لعملية النسخ ، بحيث يصبح بالإمكان الآن تنفيذ

أحكام النصوص التى كانت منسوخة فى الماضى ، ونسخ النصوص التى كانت تطبقها الشريعة التقليدية ، وذلك من أجل تحقيق القدر اللازم من إصلاح القانون الإسلامى .

كتب محمود طه فى « الرسالة الثانية من الإسلام » يقول : وتطور الشريعة - كما أسلفنا القول - إنما هو انتقال من نص إلى نص ؛ من نص كان هو صاحب الوقت فى القرن السابع وأحكم ، إلى نص اعتُبر يومئذ أكبر من الوقت فنُسخ . قال تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (البقرة، ١٠٦) .. قوله (ما ننسخ من آية) يعنى : ما نلغى ونرفع من حكم آية .. قوله (أو ننسأها) يعنى : نؤجل من فعل حكمها .. (نأت بخير منها) يعنى : أقرب لفهم الناس وأدْخَل فى حكم وقتهم من المنساة .. (أو مثلها) يعنى : نعيدها هى نفسها إلى الحكم حين يحين وقتها .. فكأن الآيات التى نسخت إنما نسخت لحكم الوقت ، فهى مُرْجَأة إلى أن يحين حينها . فإن حان حينها فقد أصبحت هى صاحبة الوقت ، ويكون لها الحكم ، وتصبح بذلك هى الآية المحكمة ، وتصير الآية التى كانت محكمة فى القرن السابع منسوخة الآن .. هذا هو معنى حكم الوقت : للقرن السابع آيات الفروع ، وللقرن العشرين آيات الأصول » .

* * *

وقد يفاجأ القارئ بهذه القراءة غير المعهودة للآية . فهى فى المصحف بين أيدينا (ما ننسخ من آية أو نُنْسها) . غير أن الطبرى فى تفسيره يقول :

« ... وقرأ ذلك آخرون (أو نَنْسأها) بفتح النون وهمزة بعد السين : بمعنى : نؤخرها . من قولك « نسأت هذا الأمر أنسؤه نسأً ونَساءً » إذا أخّرته ... وممن قرأ ذلك جماعةٌ من الصحابة والتابعين ، وقرأه جماعة من قرّاء الكوفة والبصريين.. فتأويل من قرأ ذلك كذلك: ما نبدّل من آية أنزلناها إليك يا محمد ، فنبطل حكمها ونثبت خَطّها ، أو نؤخّرها فنرجئها ونقرّها فلا نغيّرها ولا نبطل حكمها ، نأت بخير منها أو مثلها » .

وهو التأويل الذى أخذ به محمود طه ، وأخذ به أحدُ أنجب تلاميذه ومعاونيه ، وهو الدكتور عبد الله أحمد النَّعيم ، مؤلف كتاب « نحو تطوير التشريع الإسلامى » الذى صدر مؤخرًا بالإنجليزية عن مطبعة جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة .

٢

اتّصل الدكتور النعيم اتصالاً وثيقًا بأستاذه الروحى محمود محمد طه على مدى سبع عشرة سنة كاملة ، انتهت بإعدام طه فى الخرطوم بتهمة الردّة عن الإسلام فى ١٨ من يناير ١٩٨٥ ، بإيعاز من رئيس الجمهورية السودانية آنذاك ، جعفر النميرى ، الذى سقط نظامه بعد ستة وسبعين يومًا فقط من قتله لهذا المفكر الإسلامى البارز . وقد شارك عبد الله النعيم مشاركة إيجابية فعّالة فى حركة « الإخوان الجمهوريين » التى تزعّمها محمود طه فى السودان ، واعتقل معه فى الفترة ما بين ١٧ من مايو ١٩٨٣ و١٩ من ديسمبر ١٩٨٤ ، وأسهم إسهامًا مشكورًا - وهو القانونى القدير ورئيس قسم القانون العام فى كلية الحقوق بجامعة الخرطوم - فى الدفاع عن المتهمين من زملائه فى الحركة ، وضمان تبرئتهم والإفراج عنهم . غير أنه اضطر بعد إعدام أستاذه والقضاء على الحركة وتفرّق السبل بأنصارها إلى الهجرة إلى الخارج ، حيث قام بترجمة كتاب طه « الرسالة الثانية من الإسلام » إلى الإنجليزية ، وألّف بالإنجليزية كتاب « نحو تطوير التشريع الإسلامى » ، الذى كان لى شرف الاضطلاع بترجمته إلى العربية .

* * *

والكتاب فى واقع الأمر هو مزيج من فكر طه وفكر النعيم . فالفكرة الأساسية لمحمود طه التى أوجزناها منذ قليل هى التى اتخذها النعيم منطلقًا له فى كتابه الراهن : تعهّدها ونمّاها ، وزوّدنا بإجابات على التساؤلات التى قد تثور بصددها ، وبالتطبيق المنهجى المتسلسل لها فى ميادين الدستورية وحقوق الإنسان والقانون الجنائى والقانون الدولى ، وبالاستقراء التاريخى للفكر الإسلامى المتصل بقضايا القانون العام ، مستفيدًا فى كل ذلك من الخلفية القانونية التى توفّرت له ، ولم تتوفّر لأستاذه المهندس محمود محمد طه .

وهو شأن كل تلميذ نجيب ذكى مبدع لقائد مرموق من قادة الفكر ، لم يتوقف عند المدى الذى وصل إليه أستاذه ، ولا أبقى الفكرة على الحال الذى تركها عليه ذلك المفكر ، وإنما اتجه بكل إخلاص وهمّة إلى إنماء الفكرة وتطويرها للوصول بها إلى نتائجها

المنطقية ، وتطبيقها على مجالات متنوعة .. فهو هنا إذن يؤدى إزاء محمود طه دور أفلاطون إزاء سقراط . وكما أننا إزاء الكثير من الآراء الواردة فى محاورات أفلاطون نجد من الصعب نسبة هذا الرأى أو ذاك إلى المؤلف أو إلى أستاذه ، فكذا نحن إزاء بعض الأفكار الواردة فى الكتاب الراهن . وقد كان وصفنا إيّاه بالمزيج من قبيل الاستسهال ، وبسبب إصرار المؤلف الكريم فى حواراتى معه على نسبة كل فضل إلى أستاذه . غير أن مقارنة القارئ بين كتب طه ، وبين كتاب النعيم كفيلة بأن تسهّل بعض الشيء من إدراكنا لحقيقة الإضافات الجوهرية البنّاءة والإبداعية للنعيم . وأضيف هنا قولاً أكاد أكون واثقًا من أن الدكتور النعيم سيستاء منه ، وسيرفضه ويزْوَرُّ بوجهه عنه ، وهو أن إعجابى بكتابه فاق إعجابى بكتاب « الرسالة الثانية من الإسلام » . وأما سبب ذلك فأذكره وأنا أكاد أكون واثقًا من أن بعض القراء من العرب سيستاءون منه ، وسيرفضونه ويزْوَرُّون بوجوههم عنه ، وهو أن كتاب النعيم كُتب أصلاً باللغة الإنجليزية، وهى لغة لا تكاد تسمح بالأسلوب الخطابى الإنشائى الفضفاض الذى تميّز به ، للأسف ، كتاب الزعيم السودانى الراحل ، ولا يستسيغ قرّاؤهَا الابتعاد عن معايير الفكر المحدّد الدقيق .

٣

غير أنى أتدارك وأصحّح وأستغفر .. فيقينى أن النعيم لو كان قد ألف كتابه بالعربية لتميز الكتاب بنفس القدر من الهدوء والموضوعية والدقة والروح العلمية الصارمة الذى تميز به الأصل الإنجليزى .. فالخطابة والأسلوب الإنشائى الفضفاض ليسا من السمات اللصيقة بالعربية إلا فى عصور انحطاطها . وأما عن الهدوء والموضوعية والدقة والروح العلمية الصارمة ، فجميعها سمات فى شخصية عبد الله النعيم لا مفرّ من أن تنعكس فى كتاباته ، وصفات لمستها فيه منذ لقائى الأول معه فى القاهرة يوم ٢٩ من مارس ١٩٩٣ ، وهو لقاء دبّرته لنا الفنانة المصرية الأصيلة السيدة عطيات الأبنودى مخرجة الأفلام التسجيلية الشهيرة ، بعد إبدائى لها شدة إعجابى بكتاب عبد الله النعيم، وكانت قد قرأته وتعرّفت بمؤلفه قبلى .. ولن أنسى أمسية جمعتنى بالنعيم

والمفكر الإسلامى الكبير الأستاذ طارق البشرى ، وهو إنسان على شاكلة النعيم فى الهدوء والوقار ، والاتزان ورحابة الصدر ، رغم اختلافهما الجذرى فى مجال الفكر الدينى ، إذ يأبى المؤرخ المصرى الأخذ بتاريخية النص الدينى ، بينما يصرّ القانونى السوادنى عليها . وقد كان حوارهما الهادئ الموضوعى المتزن حول هذا الموضوع مثلاً يُحتذى - وإن كان نادرًا ما يُحتذى فى مجتمعنا الإسلامى البائس - فى تحاور مفكرين إن اختلفت اتجاهاتهم وآراؤهم، جمعتهم الرغبة الصادقة فى الوصول إلى الحق ، بل وإلى ما هو عندى خير من الحق ذاته ، وهو التفاهم .. فكأنما كان لسان حال الاثنين ينطق بقوله الإمام الشافعى الشهيرة :

« والله ما ناظرتُ أحدًا قط فأحببتُ أن يخطئ ، وما كلمتُ أحدًا وأنا أُبالى أن يبيّن الله الحق على لسانى أو على لسانه » .

فأين جعفر النميرى وعمر البشير وأمثالهما من أمثال هؤلاء ؟!

* * *

وكم قد حزّ فى نفسى أن تنقطع لقاءاتى بالنعيم إذ يغادر مصر إلى واشنطون ليعمل مديرًا تنفيذيًا فى منظمة Africa Watch المعنية بقضايا حقوق الإنسان فى القارة الإفريقية . ولا شك عندى فى أنه يتطلع إلى اليوم الذى يتمكن فيه من العودة إلى السودان ليواصل الدعوة إلى أفكاره ، والأفكار الأصلية لحركة « الإخوان الجمهوريين » التى تفرّق أنصارها وتوقّف نشاطها بعد حظر السلطات السودانية لهذا النشاط منذ يناير ١٩٨٥ ، ولم تظهر لها قيادة جديدة بعد إعدام زعيمها .. وهو أمر يوحي - للأسف الشديد - بأن ارتباط معظم أنصارها بزعيمهم كان وجدانيًا أكثر منه فكريًا . ولا أحسب أحدًا منهم سعى مثلما سعى النعيم إلى تأصيل وصياغة الأسس الفكرية للحركة كيما تغدو تراثًا إنسانيًا لا هو حكر على تلاميذ طه السابقين ، ولا قاصر على السودان ، بل ولا حتى على الأقطار الإسلامية . فعند النعيم أن كتابًا ككتابة الراهن « لا يخاطب المسلمين المعاصرين وحدهم . فرغم أن قضايا إصلاح القانون الإسلامى ،

والتحول الاجتماعى والسياسى فى العالم الإسلامى ، هى من شأن شعوب الأقطار الإسلامية فى المقام الأول ، فإنها أيضًا تدخل فى الاهتمامات المشروعة للبشرية جمعاء ، بسبب تأثيرها فى حقوق الإنسان والحريات الأساسية للبشر ... ذلك أنه لم يعد بوسع البشرية أن تتنصّل من مسئوليتها عن مصير البشر فى أى جزء من العالم . وهو ما نعتبره إنجازًا مجيدًا للحركة الدولية الحديثة المناصرة لحقوق الإنسان . فكافة شعوب العالم مدعوّة إذن لمساعدة المسلمين فى محنتهم ، ولأن تقبل مساعدة المسلمين لغير المسلمين فى محنهم . غير أنه ينبغى أن نؤكد مع ذلك أن هذه الجهود فى سبيل التعاون المتبادل ينبغى النهوض بها فى رهافة حس وطيب نية ، إن أردنا لها أكبر قدر ممكن من النجاح والفعالية » .

٤

إن آراء كتلك التى وردت فى كتب طه والنعيم هى فى ظنى كملح الفواكه ؛ لا تؤتى مفعولها إلا بعد مدة ! غير أنى أكاد أكون على ثقة من أن اليوم سيجئ الذى تُحدث هذه الآراء فيه تأثيرًا عميقًا وواسع النطاق فى فكر المثقفين فى العالم الإسلامى أولاً ، ثم فى وجدان جماهيره العريضة . ولن يكون هذا اليوم بعيدًا كما قد يتصور بعض المتشائمين. فحاجة المسلمين تشتد فى زماننا هذا - ويومًا بعد يوم - إلى توفير حلول مناسبة للمشكلات المتفاقمة بأقطارهم ، تكون من وحى تراثهم ودينهم وتقاليدهم ، وإلى تأكيد هويتهم الحضارية فى مواجهة الأخطار التى تهدد بابتلاعها .. غير أن حقهم هذا فى تقرير المصير يحدّه حق الأفراد الآخرين والجماعات الأخرى فى ذات الشيء ، مما يحتّم تحقيق مصالحة بين الشريعة الإسلامية وبين كافة حقوق الإنسان العالمية ، وإقناع المسلمين بأن « الشخص الآخر » الذى ينبغى عليهم قبول مبدأ المساواة الكاملة بينهم وبينه ، (كالدولة الأجنبية غير الإسلامية ، والأقليات غير المسلمة التى تعيش فى أقطارهم ، والنساء المسلمات اللواتى تنتقص الشريعة التقليدية من حقوقهن) ، يشمل كافة البشر الآخرين ، بغض النظر عن الاعتبارات العرقية والدينية والجنسية .

* * *

وعندى أن هذا الحل كامن فى الأفكار الأساسية التى طرحها المفكر الإسلامى السودانى الفذّ الأستاذ محمود محمد طه ، وفى كتاب تلميذه المفكر الإسلامى السودانى الفذّ الدكتور عبد الله أحمد النعيم . وهو الكتاب الذى سألنى النعيم يوم ٢٩ من مارس ١٩٩٢ أن أكتب مقدمة له ، فانبريتُ فى حماس أسأله الإذن لى بترجمته بأكمله إلى اللغة العربية .

* * *

ـ ٢٠ ـ

موقف المسلمين العرب من الحضارة الأوروبية

١

خلّف لنا الأمير أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨م) فى «كتاب الاعتبار» ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى (١٧٥٦ - ١٨٢٥م) فى كتابه « عجائب الآثار » ، صورتين بالغتى الأهمية والطرافة لحدثين تاريخيين بارزين عاصراهما . وقد جمع بين الحدثين أنهما يمثّلان عدوانين أوروبيين مفاجئين على الشرق ، وأن العدوانين فتحا عيون كل من أهل الشرق وأهل الغرب على حدّ سواء على أوضاع غير مألوفة البتة فى حياة الطرف الآخر . غير أن القرون السبعة التى تفصل بين الحدثين كانت قد شهدت من التطورات الهائلة هنا وهناك ما جعل الصورتين تختلفان اختلافًا جوهريًا فى خلفيتيهما الحضاريتين .

فأما ما شهده الأمير الشاعر فالشطر الأول من الحروب الصليبية فى الشام . وبالرغم من أن الشعوب الإسلامية فى وقته كانت قد أنهكت نظمها السياسية الفُرقة ، واستنزفت طاقاتها الحروب فيما بينها ، فقد ظلت نظمها الحضارية أرقى فى مجالات شتى من النظم الحضارية فى الغرب . وكان بوسع أسامة أن ينظر إلى الغزاة الأوروبيين نظرة استعلاء ، وأن يصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما فى البهائم فضيلة القوة والحَمْل » ، وأن يقول إن « كل من هو قريب العهد [منهم] بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين عاشروا المسلمين » ، « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة » ، وأن « طِبّهم ساذج جاهل بالمقارنة مع الطبّ العربى » ، و«محاكماتهم غبية غريبة» . وهو مع ذلك يدعو الفرسان الدّاوية « بأصدقائى » ، ونسمع صديقًا إفرنجيًا له يدعوه « بأخى » ، ويرجو أسامة أن يسمح لابنه (مرهف) بأن يرافقه إلى بلاده « يبصر

الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل » . فيتعجب أسامة من غباء الرجل وكلامه الذى « ما يخرج من رأس عاقل » ، « فإن ابنى لو أُسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج ! » .

وأما ما شهده الشيخ المؤرخ الجبرتى فسنوات الحملة الفرنسية على مصر التى وصفها بأنها « سنو الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن، واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع » وهو فى نظرته إلى الإفرنج وعاداتهم ليس أقل وقارًا من أسامة ، وليس بأخف حدة فى استنكاره لبعض مظاهر سلوكهم . غير أننا نتبين مع هذا اختلافًا كبيرًا بين موقفيهما ... إن كل ما يستنكره الجبرتى من الفرنسيين إن هو ناجم فى رأيه عن «كفرهم» ، وعن أنهم ليسوا من أهل الدين الحق ، بينما يجد وقاره حيالهم سندًا له فى إيمانه بأنه من أهل هذا الدين . أما أسامة ، فهو وإن نعت الإفرنج بالكفرة ، واستنزل عليهم لعنة الله ، فإن وقاره إزاءهم منبثق إلى حدّ كبير عن تفوّق حضارة قومه .. كان بوسع الجبرتى أن يحتقر إقبال الفرنسيين على شرب الخمر ، وأن يستنكر سفور نسائهم وقلة حيائهن . غير أنه لم يعد بالوسع أن يصفهم بالبهائم ، أو أن يقول إن محاكماتهم غبية وطبّهم ساذج . بل أصبح إذا رأى سلعة مصرية جيدة الصنع ، يقول إن من يشاهدها لا يشك فى أنها من صنع الإفرنج ، وأن من يذهب إلى بلادهم « تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ، ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم مع كفرهم » ... لقد شهدت القرون السبعة انقلابًا فى الأوضاع وتغيرًا فى الموازين . وعاد الإفرنج الذين بهرهم فى عصر أسامة ما أنجزته حضارة الإسلام ، واقتبسوا منها ما رأوه جديرًا بالاقتباس ، عادوا بعد تلك القرون السبعة إلى الشرق ، ناظرين إلى أهله نظرة علماء الأنثروبولوجيا إلى قبائل البدائيين .

٢

كانت الانتصارات الحربية والسياسية التى حققها الإسلام فى حقبه التاريخية الأولى قد غرست فى نفوس الشعوب الإسلامية شعورًا من الاطمئنان والرضا عن النفس ، لم تر معها حاجة إلى تقليد ما ابتدعه الغرب منذ بداية عصر نهضته من أسلحة وأدوات ونظم وأفكار، كوسيلة للتصدى لهذا الغرب ذاته . وقد كانت ذكرى هذه الانتصارات الإسلامية هى أيضًا مما جعل الغرب يتردّد طويلاً فى شأن الانتقال من طور الدفاع إلى طور الهجوم ، خشية أن تتكرر هزائمه فى الحروب الصليبية المتتالية . غير أنه ما إن أحرز الغرب انتصاره الحاسم عام ١٦٨٣ على الأتراك العثمانيين المهاجمين عند فيينا ، حتى بدأ يدرك حقيقة ضعف خصمه ، ويتطلع إلى الهجوم المضاد . غير أن هذا الهجوم المضاد تأخر قرابة قرن من الزمان لعدة أسباب منها : انشغال الدول الأوروبية بتأسيس مستعمرات لها فى كل من آسيا والعالم الجديد . فما حل عام ١٧٦٨ حتى اشتعلت نيران الحرب الروسية التركية التى توالت - خلال سنواتها الست - الهزائم الساحقة على العثمانيين ، وبحلول عام ١٧٩٨ كانت الحملة الفرنسية على مصر، ثم توالت بعد ذلك هجمات الأوروبيين على العالم الإسلامى التى أسفرت عن وقوع جل أقطاره فى براثن الاستعمار الغربى .

وقد أزعج المسلمين ما منوا به من هزائم على يد مخالفيهم فى الدين . وكان أن بدأت ثقتهم بأنفسهم تهتز . بل إن الاعتزاز بالدين نفسه سرعان ما تأثر هو أيضًا لدى الكثيرين . ذلك أنه كان منهم من تأثرت نظرته إلى دينه ، إذ يرى تفوق المسيحيين الغربيين فى مضمارى السلاح والحضارة ، وهو ما استمر حتى بعد أن نالت الأقطار الإسلامية استقلالها . وكان منهم من لم يفهم الهزيمة الحربية على معناها الدنيوى ، وإنما عجب لما أصابه من مذلة والقرآن يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، ولما حلّ به من هزيمة والقرآن يقول : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم ٤٧) .. ومع ذلك فإنه مما يسّر لغالبية المسلمين بعد ذلك الإذعان لمختلف مظاهر الحضارة الغربية أمران ، الأول :

اتخاذ الحضارة الغربية لنفسها إطارًا دنيويًا بحتًا ، وإغفال المستعمرين اعتبار الدين بحيث لم يبدّ الأمر فى صورة استعباد أهل ملة معينة لأهل ملة أخرى ؛ والثانى : تصديق الغالبية فى الأقطار المفتوحة لادعاء الغرب أن حضارته إنما هى حضارة كاملة دائمة ، وأن الصورة الدنيوية لها بعد تحررها من ربقة الدين هى الصورة النهائية الناضجة للحضارة بوجه عام ، وهى صورة لا يمكن أن يعتورها تدهورٌ أو يصيبها فساد ، بل ومن المحتم أن تقود الإنسانية إلى الطريق نحو الوحدة الاجتماعية .

وقد أحدث اتصال العرب الوثيق بالمدنية الغربية ، وغزو هذه المدنية لبلادهم ، أثرًا عميقًا فى طبقة المسلمين المستنيرين ، وفى علاقة أفرادها بما توارثته من نظريات وتقاليد دينية ، إذ شعروا بحاجة شديدة ملحة إلى التقريب والملاءمة ، بين هذه النظريات والتقاليد ، وبين الأحوال الجديدة التى وجدوا أنفسهم فجأة فى ظلها . وقد كان من المؤسف حقًا أن تجئ جهود هؤلاء الساعية إلى التوفيق بين الحياة والفكر الإسلاميين ، وبين مطالب الحضارة الغربية فى الوقت الذى تزعزعت فيه ثقتهم بتراثهم ، بل وبدينهم ، ونظروا إلى المستعمرين نظرتهم إلى أنصاف الآلهة . فلم يكن من الغريب إذن أن تغلب على محاولاتهم نزعة عقلية هى نزعة أوروبية محضة ، وأن تتأثر أفكارهم بالتيارات الفكرية السائدة فى المدنية الغربية ، وأن يتبنّوا قيمًا كلها أو جلها من قيم الغربيين المستعمرين . فإن كان هؤلاء المفكرون قد انبروا للدفاع عن الإسلام والإشادة به لصدّ الحملات التى شنّها المسيحيون للطعن فيه حتى لا يقف حائلاً دون غزو مدنيتهم (وبضائعهم) ، فإنما تركز دفاعهم على إزالة وصمة مناقضة تعاليمه للحضارة ، وإثبات مرونة الأحكام والأوضاع الإسلامية ، وسهولة تشكّلها حتى تطابق حاجات الجنس البشرى فى كل زمان ومكان .. وقد اكتشف هؤلاء شبهًا قويًا بين الإسلام « الحق » وقيم السلف الصالح ، وبين القيم الغربية الحديثة . فالإسلام يخاطب العقل ، بدليل أنه لم تكن لنبيّه معجزة غير القرآن . وقد أبطل عمر قطع يد السارق عام الرمادة . والقراءة المتعمقة للقرآن تهدينا إلى أنه فى حقيقة الأمر غير مرحب بتعدد الزوجات . وقد أوصى الإسلام بالمساواة بين الجنسين ، وحرر المرأة ، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط

فأذاب الفوارق بين الفقراء والأغنياء .. وقد كان منهم من أنكر ضرورة الجهاد فى زماننا هذا وأسقطه من الفرائض ، وكان منهم من دعا إلى السلم والتسامح ونهى عن التعصب ، ومنهم من جدّ فى أن يبعث الميل إلى العلم والثقافة ، والعناية بالتربية والتعليم ، وتحرير المرأة ، والاهتمام بالصحة . وكان أذكاهم من دعا إلى التفرقة بين معالم الإسلام الأصلية ، وبين الزيادات التاريخية التى أضيفت إليه عن طريق الإجماع ، والتى يسهل التضحية بها فى سبيل حاجات المدنية ، ومقتضيات العمران ، وذهب إلى أنه لا يقف بين المسلمين وبين النهضة غير حوائل زائفة فى إمكانهم إزالتها بإصلاح نظام التعليم ، وتطهير الإسلام مما علق به من شوائب عبر القرون ، وإعادة صياغة العقيدة الدينية على ضوء الفكر الحديث ، والعناية بدراسة العلوم الحديثة وتاريخ أوروبا للتوصل إلى معرفة سرّ تقدمها .

وهكذا أخذ من سمّوا بالمصلحين فى كل البلاد الإسلامية يدعون دعوات متشابهة، عمادها أن تأخذ شعوبها من المدنية الغربية ما يناسب ، وأن يأخذوا من المدنية الإسلامية ما يناسب .. وكانت خلاصة رأيهم « أن عقدة العقد فى موقف المسلمين اليوم هى التوفيق بين المدنية الغربية والمبادئ الإسلامية . غير أن المسلمين لحسن الحظ ليسوا مخيرين بين التمسك بدينهم ، وبين اعتناق الحضارة الغربية . فمدنية الغرب غير مؤسسة على دين ، وإنما على العلم والتجربة والاختبار ، وهى بالإضافة إلى هذا محدودة بحدود المادة . فليس هناك ما يمنع من أخذ المدنية الغربية المادية بعد صبغها صبغة روحانية إسلامية . والحق أن الاثنين ليسا متخاصمين بطبيعتيهما ، وإنما هما متخاصمان من سوء فهم سكانهما . وبالإمكان توثيق العلاقة الودية بينهما واستعانة كل منهما بما عند الآخر من مزايا . فخير للعالم الإسلامى اليوم أن يأخذ من المدنية الغربية كل علمها وتجاربها فى الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة وسائر العلوم، من غير قيد ولا شرط ، ثم يحتفظ مع ذلك بروحانيته التى يلوّن بها هذا العلم ، فتجعله موجهًا لخير البشرية ، لا لغلوّ فى كسب مال ، ولا لإفراط فى نعيم ، ولا

للقوة والغلبة ، ولكن للخير العام . وهذا هو المبدأ الذى يضئ للمسلمين الطريق ، ويبدّد حيرتهم ، ويحل الكثير من مشاكلهم . فدينهم الإسلامى لا يمنعهم أى منع من ذلك ، بل إن الإسلام حث على طلب العلم ولو فى الصين ، ولا شيء يمنعهم من ذلك إلا تمسكهم بالتقاليد الموروثة ، وتقديسهم للعادات المألوفة ، ودينهم براء من ذلك .. وإنما بزّت أوروبا الشرق المسلم فى مضمار الحضارة لا لأنها مسيحية ، وإنما لعنايتها بتطوير العلوم وإهمال المسلمين لها . وليس فى الإقبال على التعلم من الغرب من بأس ، ولا هو مدعاة للخجل ، فإنما كان الفضل فى نهضة العلوم فى أوروبا راجعًا إلى استفادتها من النقل عن المسلمين الذين عنوا بالحفاظ على تراث الإغريق وتطويره وتنميته » .

هكذا كانت دعوة هؤلاء « المصلحين » . وهى دعوة أيدها المستعمرون وأبهجتهم ، خاصة إن صدرت عن رجال الدين البارزين من أمثال الشيخ محمد عبده ، إذ رأوها فى مجملها دعوة مقنعة إلى التغريب . والذى نتج عن هذه الدعوة هو ما كان متوقعًا منها ؛ فتحت الباب على مصراعيه أمام الاقتباس من مدنية الغرب دون حرج ، فى حين أُغفل الشطر الثانى وكأنما لم يورده الدعاة إلا من قبيل التمويه والنفاق وتسهيل الأمر . وإنه لمن الشائق حقًا أن نقرأ فى العدد الأول من مجلة « العروة الوثقى » تحديدًا لأهداف المجلة ، ومن بينها « ... ٣ – الدعوة إلى التمسك بمبادئ السلف المماثلة فى واقع الحال لمبادئ الدول الأجنبية القوية المتقدمة ! » .

فهنا إذن إحساس بتفوق الغرب ، وإدراك لضرورة الدفاع ، واعتراف بصحة الأسس التى تقوم عليها حضارة الدول الأوروبية تضمّنته الإشارة إلى الشبه بينها وبين مبادئ الإسلام ، وهو أكثر صنوف الإطراء والمديح إخلاصًا .. وقد شكا المبشرون المسيحيون من أن هؤلاء المصلحين الإسلاميين إنما يتبنّون الأفكار والقيم المسيحية، ويسعون إلى تشييد صرح إسلام جديد « مسيحى » . غير أن الواقع أنهم لم يتبنوا القيم المسيحية ، وإنما نسبوا إلى الإسلام القيم الليبرالية الإنسانية البورجوازية التى عمّت أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، وهى قيم غير مشتقة عن المسيحية .

٣

فإن كان الطابع الدنيوى للحضارة الغربية ردّ فعل لأهوال الخلافات الدينية فى العصور الوسطى ، فقد كان من المحتم أن تحدث فى الغرب ، إن عاجلاً أو آجلاً ، حركة مضادة لهذا الطابع . وقد بدأت هذه الحركة المضادة فى التبلور فى الخفاء فى الوقت الذى كان سائر العالم - ومنها الأقطار العربية - ينهل فيه من الحضارة الغربية نهلاً، ويتخلى عن تراثه الثقافى وعن تقاليده ودينه . وكانت المأساة المضحكة أنه فى اللحظة التى تم فيها تبنى الشعوب غير العربية لحضارة الغرب الدنيوية ، وجدت هذه الشعوب نفسها قد وقعت فى شباك أزمة الغرب الروحية التى انتابته فجأة فى القرن العشرين ، والتى كان لها صداها فى مختلف بقاع العالم. فمنذ نشوب الحرب العالمية الأولى، بدأ الغربيون أنفسهم يدركون أن حضارتهم الدنيوية الحديثة ليست بالكاملة على الإطلاق كما خالوها فى البداية ، وأنها أبعد ما تكون عن الحصانة ضد الانهيار وضد عنيف الأزمات . وقد كان الأمر فى الواقع مؤسفًا بالنسبة للشعوب غير الغربية أكثر منه لشعوب الغرب . فقد وجدت الأولى نفسها معلّقة بين تراث ودين وتقاليد قد هجرتها وفقدت ثقتها فيها ، وحضارة غربية لم تملك بعد ناصيتها ، ولم تكد تبلغ يدها الثمرة حتى بدت تلك الثمرة معيبة فاسدة . وكان أن نتج عن هذا شعور حاد بالمرارة تجاه الغرب ، وحدوث انفصام فى المجتمع وفى نفوس الأفراد لمّا يلتئم .. صاروا كالغراب الذى مضى يتعلم مشية الطاووس ، فلم يتعلمها ، ونسى مشيته .

وقد علمنا التاريخ أنه فى المجتمعات التى تمر بهزّات عنيفة ، أو تطورات ضخمة متلاحقة ، كثيرًا ما تظهر جماعات دينية انعزالية تميل إلى أن تغلق الأبواب على نفسها فى عالم خاص بها ، وتقلل إلى أقصى حد ممكن من صلاتها وعلاقاتها ببقية العالم . وقد ظهر مثل هذه الجماعات بين كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين ، وربما بين غيرهم من أتباع الديانات الأخرى . فمن بين أبرز الأمثلة التاريخية على رفض التكيف وفق الأحوال الجديدة ، موقف الفرنسيين اليهود من غير اليهود ، إذ وضعوا القواعد المفصّلة الصارمة التى تكفل تجنب كل صلة بمن هو ليس يهوديًا ، وذلك حين كانت الهلينية تهدد بابتلاع

الديانة اليهودية واستئصالها من الوجود . كذلك ظهرت فى بقاع كثيرة من العالم المسيحى ، خاصة من منتصف القرن التاسع عشر ، جماعات (أشهرها جماعة شهود يهوه) ، أفرادها من المسيحيين الأتقياء الذين وجدوا من الصعب أن يوفّقوا بين الاكتشافات الحديثة فى علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والنظريات المتعلقة بتاريخ الأرض وظهور الحياة فيها ، وبين مفهومهم التقليدى عن الكتاب المقدس . وكان أن وجهوا همهم الأكبر إلى تجنب الاتصال بالتيارات العلمية والفكرية التى سادت مجتمعهم، ورأوا أنه لابدّ من أجل حماية عقيدتهم من عزلة صارمة وسط مجتمع لابد أن تؤدى به ثقافته وأنماط عيشه إلى الكفر . وكانت النتيجة أن قبلت هذه الجماعات وضع الأقليات فى مجتمع أفراده على نفس دينها فى الظاهر على الأقل .

وقد كان هذا هو ما حدث أيضًا فى العالم الإسلامى مع بداية الثلاثينيات من هذا القرن ، حيث بدأت تظهر جماعات إسلامية ، دعوتها شديدة الاختلاف عن دعوة المصلحين الإسلاميين من أتباع محمد عبده ، بل ورأت فى هؤلاء « المصلحين » شبهًا قويًا بدعاة التغريب إذ هم لم يطعنوا فى قيم الغرب ، وإنما انتحلوها للإسلام ، فلم يقدموا بفعلهم هذا بديلاً حقيقيًا لأمتهم . وقد ذهبت هذه الجماعات الجديدة ، بدءًا بجماعة الإخوان المسلمين ، إلى أن الإسلام بمفرده قادر على التصدى لكل تفاصيل مظاهر حياة الفرد والمجتمع ، دون حاجة إلى اقتباس من حضارات وأنظمة أجنبية . ومع ذلك ، ورغم هذا الإصرار منهم على شمولية الإسلام وتفرّده ، وتميز كل نظمه ومفاهيمه عن كل النظم والمفاهيم الغربية ، لم يفلحوا إلا فى إبراز حفنة من النقاط والقضايا ، ركزوا عليها وألحفوا فى تكرارها إلى حد الإملال ، دون أن يتجاوزوها إلى غيرها إلا فى النادر . وأعنى بهذه النقاط : موضوع الربا وفائدة البنوك ، وسفور المرأة وتحديد النسل ، والحدود ، وكراهة العلمانية والعقلانية ، والنفور من استخدام سبل البحث العلمى والمنهج التاريخى فى مجال الإسلاميات .

ثم عيب خطير آخر يتمثل فى مفهوم أفراد هذه الجماعات عن المعرفة. فهى عند المجتمعات المتّسمة بالحيوية والتحضر تعنى استخدام المعروف فى إماطة اللثام عن

المجهول . أما عند هؤلاء فهى لا تعنى أكثر من تجميع المعلومات . والمعلومات فى رأيهم ليست بالمتطورة ، النسبية ، القابلة للاتساع ، وإنما هى ثابتة خالدة . وقد نجم عن هذا المفهوم ثلاث عواقب :

الأولى : أن المعرفة عندهم لم تعد عنصرًا ديناميكيًا فى الفكر ، بل كتلة جامدة ، مما أسهم فى قهر كل نشاط فكرى حرّ بدعوى مخالفته لأحكام السلف .

والثانية : أن اعتبار المعرفة دائرة مغلقة ثابتة يجعل من المحال اطراح شيء من المعارف المقبولة متى ثبت خطؤها ، أو عدم مسايرتها لأحوال العصر ، ويجعل من الصعب تقبّل المعارف الجديدة ما لم تجد لها سندًا فى فكر الأقدمين .

والثالثة : أن صار سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف ، أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف ، لا التحليل والاستنباط والتجربة والفكر الحر . وكلها عواقب خلقت عند غير المسلمين اقتناعًا بأنه لا يمكن للإسلام أن يكون له مستقبل ما دام عاجزًا عن مسايرة التطور على ضوء الجديد من الأفكار والنظريات العلمية .

٤

لقد أصاب الأفغانى ومحمد عبده وأتباعهما فى بيانهم لضرورة إعادة تفسير الإسلام تفسيرًا يوائم احتياجات العصر الحديث المتغير. غير أن موقفهم الدفاعى والاعتذارى تجاه الحضارة الغربية حال دون تقديمهم لمثل هذا التفسير الشمولي، ومال بهم إلى الاقتصار فى فكرهم على التصدى لقضية هنا وقضية هناك من القضايا التى تشغل الأذهان فى الغرب ، مثل الديموقراطية ووضع المرأة ، وذلك من قبيل الرغبة فى الرد على خصوم الإسلام فى الغرب ، أو الأخذ بمشورة الأصدقاء الناصحين فى الغرب أيضًا . وقد كان أنصار التيارات الإسلامية الجديدة على حق فى انتقاداتهم للموقف « التغريبى » لدى هؤلاء المصلحين التوفيقيين ، لما ينطوى عليه بالضرورة من إحساس بالنقص ، دفعهم إلى محاولة التبرير . غير أن أنصار هذه التيارات ، باندفاعهم فى الاتجاه المضاد ، وقعوا

فى خطأ مماثل . إذ بينما ركز الأولون على نفى أن تكون فائدة البنوك من الربا المحرم ، ونفى أن يكون الإسلام قد انتقص من حقوق المرأة ، وحدّ من دورها الاجتماعي، والإصرار على أن الشورى الإسلامية هى بعينها ديموقراطية الغرب السياسية ، وعلى اهتمام الإسلام بالدعوة إلى تنمية العلوم وتحصيلها ؛ أو بعبارة أخرى : بينما ركز الأولون على بيان اتفاق الإسلام مع المقومات الإيجابية للحضارة الغربية ، اتجهت الجماعات الإسلامية الجديدة إلى انتقاء قضايا محدودة للغاية لإثبات تميز الإسلام واختلافه عن المفاهيم والقيم الغربية ، كضرورة عودة النساء إلى الحجاب ، وضرورة تأسيس بنوك إسلامية لا فائدة فيها ، وضرورة إقامة الحدود الشرعية كقطع يد السارق وجلد الزانى وشارب الخمر ، والتفرقة فى المعاملة بين المسلمين وأهل الذمّة . أما فيما عدا هذا من مسائل اقتصادية واجتماعية وسياسية بالغة الحيوية والأهمية ، فلا يكاد يكون ثمة علاج أو برنامج أو فكر . وهو ما يقودنا إلى نتيجة هامة : هى أن فكر الجماعات الإسلامية الجديدة ليس أقل انشغالاً بالغرب من فكر المصلحين التوفيقيين . ولكن الأفغانى ومحمد عبده وتلامذتهما انشغلوا به على نحو إيجابى ، فى حين انشغلت به الجماعات الجديدة على نحو سلبى . وشبح الغرب عند هؤلاء وأولئك هو الشبح الجاثم الرابض ، مغرٍ ومنفّر معًا ، يدعو إلى الإعجاب ويستثير الكراهية فى آن واحد .

قلة قليلة فحسب من المفكرين الإسلاميين المحدثين رأت الحل الأمثل فى الإقدام على دراسة موضوعية هادئة للأفكار والنظم الغربية من أجل تحديد طبيعة الاستجابة الصحية الواجب على المسلمين أن يتبنّوها إزاء الضغوط الغربية المختلفة على مجتمعهم . فإن كان فى الحضارة الغربية من العناصر ما هو فاسد مفسد ، فالكثير من الأفكار والنظريات التى ورثناها عن أسلافنا المسلمين هو أيضًا فاسد مفسد . وما لم نتصدّ بالدراسة لتراثنا وتقاليدنا هى الأخرى بنفس الموضوعية والهدوء والمعايير العلمية والحرص على تجنّب الآراء التحكمية ، فما من أمل يبقى فى قدرتنا على مواجهة التحديات المعاصرة . كما أنه ما لم نولِ اهتمامًا بما يمكن للدين أن يحققه لخير الإنسان

الاجتماعى والاقتصادى مماثلاً لاهتمامنا بما يمكن للإنسان أن يفعله من أجل تمجيد الخالق، فما من أمل يبقى فى قدرة الإنسان على حلّ المعضلات .

غير أنه حتى هذه القلة القليلة المتعلقة نراها اليوم فى انحسار . فتفاقم مشكلات المجتمع العربى ، وتعاظم المد الفكرى والحضارى الغربى ، يميلان بالبعض إلى هجر الاعتدال وفقد الثقة بجدواه ، والتعاطف مع التطرف باعتباره السبيل العملى الأوحد إلى مواجهة الأخطار التى تهدّد بابتلاع هويّتنا ، واستفظاع بهاظة الثمن الاجتماعى والنفسى الذى لابدّ من دفعه إن نحن أردنا اللحاق بركب الغرب فى مضمار التقدم . أضف إلى ذلك أن انتشار تأثير الجماعات الإسلامية المتطرفة فى صفوف الجماهير العريضة ، وازدياد فرص استيلائها على الحكم ، على نحو ما حدث فى إيران ، خلال سنوات قلائل ، دفعا بعض الانتهازيين من المفكرين إلى التضحية باستنارته ، والتعبير عن تعاطفه واتفاقه فى الرأى مع فكر تلك الجماعات ، من أجل ضمان الرضا والشعبية ، أو الاستفادة المالية من حكومات دول عربية غنية تنفق بسخاء على وسائل نشر ذلك الفكر . هذا إلى أن ميل السلفيين إلى الدخول فى تنظيمات تجمع شتاتهم ، وتنسق خطاهم ، وميل المجددين المستنيرين شأن المصلحين التوفيقيين قبلهم ، إلى العمل فرادى، لا يصبرون على تنظيم ، يزيد من فرص نيل الأولين دون الآخرين لأغراضهم .

٥

ما من شك فى أن مستقبل الأمة يتوقف بصفة أساسية على قدراتها على التوصل إلى مفهوم إيجابى يساعدها على مواجهة التوترات الناجمة عن تغييرات هائلة طرأت على المجتمع العربى فى القرنين الماضيين ، والتغلب على القوى المخربة التى تدفع المجتمع دفعًا إلى المزيد من التفكك والتحلل .

كذلك فإنه ما من شك عندى فى أن كافة الحلول التى طرحت فى مجتمعنا خلال المائة سنة الأخيرة ، معيبة قاصرة :

فالمحافظون الرافضون لكل تجديد ولكل مساس بالأفكار والمعتقدات الموروثة قد فقدوا صلتهم بالعصر واحتياجاته ، ولم تعد حججهم بالقادرة على إقناع المثقفين ، وهى التى يصوغونها دومًا فى قوالب فكرية شكلية تستند استنادًا كاملاً إلى أقوال السلف ، مما لا يمكن أن يتجاوب المحدثون معه . بل إنه حتى اللغة التى يستخدمونها توحى على الفور بخلو جعبتهم من رسالة لعصرنا الذى نعيش فيه ففكرهم تستغرق التكاليف الشرعية . وما من أحد منهم حاول أن يوجه الإسلام فى قنوات خلاقة ، وإنما قيدوه بنظرة رومانسية درامية لتاريخه ، أساسها انتقاء تحكمى للمادة واستبعاد لكل ما ينقض الصورة التى يفضّلون أن تكون الأحداث فى الماضى قد تمت عليها . وهم بهذا أغلقوا الباب فى وجه أهم عامل كان بوسعه أن يحفظ على الفكر الإسلامى مرونته ، ويحول دون تعفّن العقائد ، ألا وهو المنهج التاريخى العلمى الذى ابتدعه الغرب ، والنظرة التاريخية إلى الأمور .

وأما المصلحون الإسلاميون التوفيقيون فموقفهم فى جوهره مشابه كما قلنا لموقف دعاة التغريب العلمانيين ، وبالتالى فإنهم لم يطرحوا بديلاً حقيقيًا للقيم الغربية . فإن كان دعاة التغريب قد أعلنوا أن « القيم الغربية هى القيم المثلى فلنتبنّاها » ، فإن المصلحين التوفيقيين قد أعلنوا أن « القيم الغربية شبيهة بالقيم الإسلامية فلنتبنّاها » ! وقد ظل هؤلاء دومًا يلهثون فى عدوهم وراء التغريبيين كى يبرروا كل جديد ، ولكى يوجدوا الأسس الدينية لتبنى المفاهيم الغربية . فإن كان العلمانيون قد نادوا بأن العلم والعقل هما مفتاحا التقدم والحضارة ، فقد تركوا للمصلحين الإسلاميين مهمة إثبات أن الإسلام يقر هذا الموقف .

وأما عن دعاة التغريب والعلمانية ، فإنهم مع كل تحمسهم للديموقراطية والمساواة وغيرهما من المفاهيم الغربية، لم يكن بوسعهم قط الادعاء بأنهم يعبرون عن إرادة الشعب ، وإنما أفصح لسان حالهم عن أنهم إنما يسعون للصالح العام باعتبارهم الصفوة ، وأنهم أدرى من الشعب باحتياجات الشعب ومصلحته . فهم صفوة حسنة النية . غير أنهم دائمًا صفوة مباينة للجماهير فى عقائدها وطريقة تفكيرها . صحيح أن المفهوم

العلمانى والاتجاه إلى محاكاة الغربيين كانا قد انتشرا فى صفوف الجماهير من جراء التعليم المدنى ، ووسائل الاتصال والإعلام المتزايدة ، والتصنيع والحياة فى المدن ، وأنماط الاقتصاد وغيره ، وأن تأثير الفرنجة إنما كان ضخمًا بقدر ما كان الفراغ فى الساحة الفكرية العربية ضخمًا . غير أن الثابت الواضح الآن أن الولاء الأول لدى الجانب الأعظم من الجماهير فى العالم العربى هو للإسلام دون غيره ، وأن الفكر الإسلامى لايزال له بعد أربعة عشر قرنًا سلطان عليها تصعب زعزعته . وقد كان المسلمون الأوائل إبان ازدهار حضارتهم ينهلون نهلاً من منابع الحضارات والثقافات غير الإسلامية ، دون تحرّج أو تحفظ أو حيرة أو قلق. فقد كانت الثقة بالنفس تعمر صدور هؤلاء وهم الفاتحون السادة. أما وقد وقع المسلمون فى براثن استعمار الفرنجة وباتوا يعانون من الهيمنة الاقتصادية والسياسية للغرب على أقطارهم : فقد فقدوا هذه الثقة ، وصاروا يرون فى كل اقتباس من نظم الفرنجة مكيدة للإسلام وفخًا ، واقتباسًا معاديًا للدين .

والواقع أنه لولا هذا الخلل النفسى ، وهذا الارتياب المرضى ، وفقدان الثقة ، لكان للإسلام المعاصر ، فى زعمنا ، شأن آخر .

* * *



- ٢١ -

صورة العرب والمسلمين فى وسائل الإعلام الغربية

من المفيد هنا أن نبدأ بإلقاء نظرة خاطفة على ملامح صورة العرب والمسلمين فى أذهان الأوروبيين المسيحيين قبيل بدء الحروب الصليبية وأثناءها ، وذلك بسبب تشابه الكثير من هذه الملامح مع ملامح الصورة فى عصرنا هذا :

لقد فرضت صورةُ النبى والإسلام نفسها على الغرب أول ما فرضت فى ظل حروب دينية طاحنة : حروب الفتوحات الإسلامية ، فحروب الثغور ، فالحروب الصليبية ن وذلك فى عصر كانت تسود أوروبا فيه الجهالة والخرافات . وكان ردّ الفعل الأول إزاء هذا الخطر السياسى والدينى ، وفى سبيل تعزيز ثقة المسيحيين بأنفسهم شنّ حملة عارمة الغضب ، مفعمة بالأكاذيب والتشويه المتعمّد ، على النبى والدين الجديد ، وهى حملة لعب فيها رجال الكنيسة دورًا رئيسيًا . فالإسلام عندهم مجرد صورة مشوّهة من المسيحية ، بل هو ديانة وثنية قوامها العنف ودعامتها السيف ، ووسيلته إلى الانتشار هى إتاحة الفرصة أمام أتباعه لإشباع شهواتهم الجنسية فى هذه الدنيا وفى الآخرة . وما محمد إلا نبى كاذب شهوانى ، ما كان غرضه من خروجه بهذا الدين إلا تحقيق مطامحه الشخصية .. وقد انعكس هذا الموقف فى « الكوميديا الإلهية » لدانتى الذى أحلّ نبى الإسلام أدنى درك فى الجحيم ، فى فقرة تجهالها مترجم الكوميديا إلى العربية حرصًا على مشاعر قرائه !

وقد كان من السهل على الأوروبيين قبول هذه الصورة مادام الاتصال بينهم وبين عالم الإسلام قاصرًا على الحرب . أما وقد بدأت الحروب الصليبية ، وأقام الأوروبيون الممالك فى الشام ، ودخلوا فى علاقات تجارية وثقافية وفى محاورات وجدال مع أهله من المسلمين ، واطّلعوا على حضارتهم وعلومهم وآدابهم ، وتعلّم البعض منهم لغتهم ، فقد أضحى من الصعب خداعهم بمثل ما كان القساوسة يردّدونه من افتراءات على الإسلام

وعلى العرب والمسلمين . وقد أزعج هؤلاء القساوسة وغيرهم أن يروا العائدين من الشرق يتدحون لأهلهم ومعارفهم بعض جوانب الحضارة الإسلامية والخُلُق الإسلامى ، ويبدون الإعجاب بعلوم المسلمين وثقافتهم ، ويتحدّثون بما اطلعوا عليه من حياة النبى فى كتبهم ومن خلال أحاديثهم . فكان من الضرورى لإذكاء عداوة المسيحيين للإسلام ونبيّه (وقد باتوا الآن أقل جهلاً بهما) انتهاج منهج آخر هو أكثر « علمية » هذه المرة، وأكثر التزامًا بالحقائق . وبالتالى فإن المسلمين مدينون إلى حدّ كبير للحروب الصليبية بتصحيح بعض المفاهيم الأوروبية عن الإسلام .

بدأ هذا الاتجاه الجديد فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر ، حين قرّر بطرس الموقَّر رئيس الدير الشهير فى كلُونى بفرنسا ، تشكيل لجنة لنشر سلسلة من المؤلفات العلمية الرصينة عن الإسلام ، بهدف مواجهة تحدّياته الفكرية والردّ على دعواه . وقد اهتمت هذه اللجنة بنشر ترجمة للقرآن ، وسيرة النبى ، وكتب عن تعاليم الإسلام ، وأخرى عن تاريخ أممه . وكان الأساس فى كل هذه المؤلفات كتب المسلمين أنفسهم ، لا وحى الخيال ودواعى الحقد ، وإن كان المرء ليستشعر إزاءها دومًا روحًا عدائية قوية، ومزيجًا من مشاعر الإعجاب والخوف ، ورغبة فى تشويه صورة الإسلام ونبيّه فى أذهان المثقفين بالأخص . وقد أعطى هذا النمط من الاهتمام بالإسلام فى أوروبا دفعةً قويّةً أخرى ، ظهورُ قوة العثمانيين ، وتوغّل جيوشهم فى هذه القارة توغلاً خطيرًا .

ثمار الإحساس بالنّقص

كان لشعور أوروبا الغربية (بلاد الفرنجة) بالنقص عند مُواجهتها للحضارة الإسلامية إبان الحروب الصليبية جوانب متعددة . فالتكنولوجيا الإسلامية كانت متقدمة عن التكنولوجيا الأوروبية فى كثير من الميادين . وكان أثرياء المسلمين أكثر استمتاعًا بالكماليات وأساليب الحياة الرغدة من أثرياء الأوروبيين . ولم يقتصر دور الحروب الصليبية فى الشام (وصلات الأوروبيين بمسلمى الأندلس) على تعريف أوروبا الغربية بالكثير من المنتجات المادية والاكتشافات التكنولوجية فى ديار الإسلام ، ولا على إثارة اهتمام الأوروبيين بالعلوم الفلسفية ، بل إن الفرنجة أقلقهم ما لمسوه إبّان تلك

الحروب من إحساس المسلمين الثابت الذى لا يتزعزع بتفوّقهم وفضلهم على غيرهم ، فدفعهم الإحساس بالنقص إلى التحوّل إلى ميدانَى العقيدة والتاريخ فى سعيهم لإثبات وجودهم ، والتعويض عن عقدة النقص فى مواجهة الحضارة المتفوّقة . وكان سبيلهم إلى ذلك ذا شقّين :

الأول : سعيهم إلى إقناع المسيحيين الآخرين بأنهم في حروبهم ضدّ المسلمين إنما يحاربون من أجل نصرة النور والدين الحق على قوى الظلام ، وأنه حتى إن كان المسلمين أقوياء فإن المسيحية هى خير من الإسلام وأجدر بالغلبة والسيادة .

والثانى : تهوينهم المتعمّد من شأن أثر العرب والمسلمين فى حضارتهم الأوروبية (وهو تهوين لانزال نلحظه فى كتابات المؤرخين الغربيين غير المنصفين إلى يومنا هذا) ، ومبالغتهم فى بيان أفضال التراث اليونانى والرومانى على هذه الحضارة . فكان أن نتج عن الحروب الصليبية فى نهاية الأمر إقبال نهم من الأوروبيين على دراسة التراث الأدبى والفنى والفلسفى والعلمى للإغريق والرومان ، والتظاهر بالاستخفاف بالإنجازات الإسلامية والعربية فى تلك الميادين. وبالتالى فإن الأوروبيين مدينون إلى حدّ كبير للحروب الصليبية ببزوغ عصر النهضة فى قارتهم .

نوعية الكليشيهات

نخلص من هذه اللمحة الخاطفة إلى عدة نتائج :

أولاً : أن فهم الأوروبيين الغربيين (والأمريكيين الذين ورثوا عنهم هذا الفهم) للعرب والمسلمين ، تحكمه منذ مئات السنين ، وإلى اليوم، مجموعة من الكليشيهات، أو الأفكار المبتذلة، التى عفى عليها الزمن ، والتى آن الأوان لتعديلها وإحلال المفاهيم السليمة مكانها .

ثانيًا : أن هذا الفهم ينعكس بالضرورة على الصورة التى تقدّمها وسائل الإعلام الغربية عن المسلمين والعرب .

ثالثًا : أن بزوغ ملامح تلك الصورة فى ظل علاقات هى فى المقام الأول علاقات عداوة وصراع حربى ، صبغ خلفية الصورة بلون قاتم ثابت من العداء الدفين ، والخوف الكامن ، خاصة وقد دام التفوق العسكرى الإسلامى على الغرب قرابة ألف عام ، وكان الخطر دائمًا من جيران على الأبواب .

رابعًا : أن ضعف الصلات الحضارية من ثقافية وتجارية إلى آخره ، وضآلة مدى اطلاع أحد الطرفين، أو كليهما ، على أساليب عيش الطرف الآخر وإنجازاته ومعتقداته، يهيئان الطريق لانتشار الكليشيهات الزائفة ، والصورة الكاذبة المغرضة للآخر ، فى حين يبدّد نموّ الاتصالات من جدوى الكذب والافتراء .

خامسًا : أن الصورة التى تخلقها وتنشرها وسائل الإعلام فى جانب ، غالبًا (أو دائمًا) ما تخدم مصالح القائمين على أمر تلك الوسائل وتحقق غاياتهم البعيدة إزاء الجانب الآخر ، عن طريق تكييف نظرة رعاياها ومشاعرهم تجاه ذلك الجانب .

سادسًا : أنه مادام ثمة توازن فى القوى بين شعبين أو حضارتين يدفع كلاً من الطرفين إلى الاعتراف بقوة الآخر ، وإلى أخذه بعين الاعتبار والاهتمام ، فإن الكليشيهات هنا إن نشأت فهى فى العادة كليشيهات تنمّ عن الاحترام والتقدير ، حتى مع الاعتراف باختلاف الطرف الآخر سواء فى القيم أو الدين أو أسلوب العيش . فهنا نجد الإقرار بالجوانب الإيجابية ومزايا أساليب الحياة لدى الآخرين ، ونواحى القوة فى معتقداتهم وقيمهم .. من أمثلة ذلك ما نجده فى كتب الأوروبيين فى العصر الوسيط من إشادة بحضارة مسلمى الأندلس ، ومن مديح لصلاح الدين الأيوبى ، أو الظاهر بيبرس ، وفى كتب المؤرخين المسلمين فى نفس العصر من إعجاب بشخصية فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، أو ببلاطه فى صقلية .

غير أن كلّ هذا يتغيّر متى اختلّ التوازن فى القوى وأصبح ثمة طرف أقوى بكثير من الطرف الآخر ، سواء من الناحية العسكرية أو الحضارية أو الاقتصادية .. وهو بالضبط ما حدث منذ تآكل قوة العثمانيين المسلمين وهزيمة جيشهم على أبواب فيينا فى القرن

السابع عشر ، ومنذ وقوع غالبية الأقطار العربية فى براثن الاستعمار الأوروبى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتحت الهيمنة الأمريكية فى أواخر القرن العشرين وبداية الحادى والعشرين. فهنا يصبح الطرف الثانى موضع احتقار الأول، وتضحى نظرة الأول إليه ليست فقط باعتباره «مختلفًا»، ولكن أيضًا باعتباره ضعيفًا و«متخلّفًا» ، ولا مستقبل أمامه إلا إن هو تعلّم من الأول وتبنّى مفاهيمه وقيمه وأسلوب عيشه ومظاهر حضارته.

وهنا تنشأ لدى الطرف القوى حاجة إلى الحفاظ على ذلك الوضع من اختلال التوازن، لا بالوسائل العسكرية فحسب (فهى وسائل مكلّفة سواء بشريًا ، أو ماديًا) ، وإنما أيضًا عن طريق قيام وسائل الإعلام بالنشر المتعمّد لمجموعة من الأفكار والكليشيهات الخاصة بأوجه الاختلاف بين الطرفين ، وتصويرها على أنها ثابتة لا تتغير، وذلك من أجل إثبات حقه فى استمرار هيمنته ، وغرس الشك لدى الآخر فى ذاته وفى قدرته على التصدّى بنجاح لمقاومة الطرف الأول الذى ينتمى إلى جنس أرقى، وحضارة أعلى .

« عبء الرجل الأبيض »

حينئذ يهمّ الطرف الأقوى أن يشيع لدى الجميع ، هنا وهناك ، فكرة أنه الطرف المتحضّر ، وأن عليه عبء نشر الحضارة فى الأقطار الهمجية المتأخرة ، ومسئولية إلحاق هذه الأقطار بركب الحضارة والمدنية ، ولو فى ذيل ذلك الركب .. وأغلب الظن أنه ربما كان من الأهداف الرئيسية لإنتاج مسلسلات تليفزيونية أمريكية مثل «دالاس» و«الجرئ والجميلة» وغيرهما ، وعرضها فى دول العالم الثالث ، إطلاع شعوبنا المتخلفة على ما تتمتع به الشعوب المتحضرة من رخاء وثراء ونعيم عيش ، وهو ما لن نحقّقه ولو بعد ألف عام ، «ما لم تبدأ شعوب العالم الثالث من الآن بإبداء الرغبة والاستعداد لاقتفاء أثرنا نحن ، وإطاعتنا طاعة كاملة ، والامتثال لأوامر ونواهى البنك العالمى وصندوق النقد الدولى ، والتصرّف على النحو الذى نُمليه نحن عليهم فى ثرواتهم التى وجدناها نحن فى صحاريهم التى تتبعهم اسميًا». فعن طريق الأفلام والمسلسلات التليفزيونية وما شابهها إذن يمكن تبليغ هذه الرسالة بصورة غير مباشرة ، ولكنها أكثر

فعالية وأبلغ تأثيرًا ، بالنظر إلى أنها تتسلّل إلى العقل الباطن دون أن تَلْقَى مقاومة أو اعتراضًا ، فيصعب التصدّى لها أو تحدّيها .

ولا يكتفى الغرب بإبراز الجوانب « الإيجابية » من حضارته هو ، وإنما يُعنَى أيضًا بإبراز الجوانب « السلبية » فى المجتمعات التى يهيمن عليها ، وذلك من أجل استئصال أى إحساس بالذنب أو تأنيب الضمير قد يشعر به المهيمنون من جرّاء استغلالهم أو استعمارهم لأقطار أخرى .. (تأمل الصورة التى تنجم لدى جمهور المشاهدين لأفلام طرزان عن الفارق بين الأفارقة السود الذين لا يصلحون إلا لحمل أمتعة الرحّالة البيض ، وبين طرزان الأبيض الشجاع المغامر واسع الحيلة) . فهو يصوّر شعوب تلك الأقطار على أنها فى حاجة دائمة إلى مساعدة الغرب وتوجيهاته بالنظر إلى عجزها عن مساعدة نفسها ، ويحاول أن يخلق لدى تلك الشعوب استعدادًا لقبول كل ما يقرّر الغرب أنه مفيد لها وله . وعلى سبيل المثال : صحيح أنه لايزال فى العالم العربى حمير وجمال ، ونخيل ورمال ، وخيام وبدو ، غير أن هناك اليوم أشياء أخرى كثيرة غير هذا ، وأنماطًا من الناس غير الإرهابيين الإسلاميين .. ولذا فإن الشركات السينمائية تكثر من إنتاج الأفلام التاريخية أو المستقاة من قصص الكتاب المقدس ، حتى ترسخ فى أذهان المشاهدين من الأوروبيين والأمريكيين هذه الصورة القديمة عن الشرق الأوسط . فإن تناولت الأفلام موضوعات حديثة ، فهى عادة أفلام بوليسية أو أفلام مغامرات تُظهر أهل المنطقة بنفس الصورة البدائية تقريبًا .. ولا يلاحظ المتفرجون عندنا إلا نادرًا أن هذه الأفلام تقدِّم عامدة خدمة كبيرة لمصالح ذوى النفوذ فى الغرب ، بخلقها مفاهيم وكليشيهات عن مدى تخلّف أهالى الأقطار الأخرى .

الأخطار الكامنة

مثل هذه السياسة من موجّهى وسائل الإعلام فى الدول الغربية تنطوى على نظرة ضيقة وخطرة على تلك الدول فى المدى البعيد . وهى شبيهة بقولة لويس الخامس عشر : « بعدى الطوفان » .

ذلك أن ثمة خطرًا من أن تَضْحَى الدول الصناعية الغنية حبيسةً ، ثم ضحية لمفهومها عن مصالحها ، ولكليشيهاتها عن العالم الثالث . وعن نفسها ، وهى الكليشيهات التى تخلقها أجهزة الإعلام فيها .. فكل ما يشغل بالها فى الوقت الراهن هو كيفية الاستفادة المادية الآن وفى المستقبل القريب ، ثم « بعدى الطوفان » كما قلت .. تأمّل مبيعاتها من السلاح مثلاً إلى الدول النامية ، أو انظر إلى أفلامها وبرامجها التليفزيونية التى تخلق الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنها أبدًا إشباعها أو تحقيقها ، اللهم إلا حكامها وطبقة جدّ محدودة من الأثرياء فيها .. هى تسعى إلى أن تقلّدها هذه الشعوب لأنها تعلم أن التقليد بطبيعته يرسّخ الإحساس بالنقص، والشعور بعدم المساواة. غير أن إعلامها وأفلامها تقول لأفراد تلك الشعوب : « عليكم بالعمل على اقتناء ما لدينا مهما كانت كلفة ذلك عليكم وعلى مجتمعاتكم ، وإلا بقيتم على تخلّفكم » . ولا شك فى أن هذه الرسالة رسالة خطرة . فتزايد الرغبات وتنامى التطلعات لدى الشعوب الفقيرة – دون القدرة على إشباعها – يهدّدان أمن الدول الغربية . وإدراك هذه الدول لهذا الخطر سيدفعها إلى أن تحرص (بل وقد بدأت تحرص من الآن) على بناء أسوار عالية حول مجتمعاتها الصناعية المتقدّمة حتى لا يتسلّل إليها الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على أمنها من دول العالم الثالث ... بدأت تضع العقبات فى سبيل حصولهم على تأشيرات دخول إليها ، أو على تصاريح بالإقامة أو العمل فيها ، ورفعت أسعار تذاكر السفر إلى أقطارها . وسيأتى الوقت الذى لن تسمح فيه بالدخول إليها إلا لعدد محدود جدًا منهم ، وذلك فى أوقات الرخاء حين تكون فى حاجة إلى أيدٍ عاملة رخيصة تقوم بالأعمال الوضيعة التى يأبى مواطنوها أداءها ، أو إلى أطفال تتبنّاهم حين يقلّ عدد السكان فى هذا القطر من أقطارهم أو ذاك .

غير أن هذه الأسوار لاشك فى أنها ستُخترق متى عظُم الضغط عليها من الخارج . وسيزداد الضغط عليها كلما ازدادت الشعوب الفقيرة المتخلّفة فقرًا وتخلّفًا .

وهنا يكمن الخطر على الدول الغربية الغنية . ولن يتحقق تصحيح الوضع إلا إذا تغيّرت طبيعة نظرتها الراهنة إلى علاقاتها بالعالم الثالث تغيرًا جذريًا . وسيكون أحد

السبل لتغيير طبيعة تلك النظرة ، تغيير الصورة التى ترسمها وسائل الإعلام فيها لشعوب العالم الثالث ، ومنها الشعب العربى .

ولكن ماذا عن الإسلام ؟

إن وسائل الإعلام فى الغرب - خاصة فى الولايات المتحدة - هى المكلّفة من قِبَل السادة المستفيدين من تجارة السلاح باكتشاف العدوّ إثر العدو لنمط الحياة الغربى . أو كما قال ألبرت أينشتاين عام ١٩٥٠ : « إن أصحاب السلطة الحقيقية فى الولايات المتحدة لا نيّة لديهم أن يُنهوا الحرب الباردة أبدًا » . فإن انقضى خطر الاتحاد السوفييتى والشيوعية فهناك اليابان، أو العرب، أو الإسلام . والظاهر أن المواطن الأمريكى العادى لديه حاجة نفسية ملحّة إلى أن تُطلعه جهة عليا على هويّة عدوّه الجديد، واقتناع عميق الجذور بأنه لابدّ أن ثمة عدوًا له يتربّص به ، قد يكون سببه إحساسه بأن العالم الجائع خارج بلاده يحسده على ارتفاع مستوى معيشته . فوسائل الإعلام الغربية الآن لا تكفّ عن تصوير خطر الأصوليين الإسلاميين الداهم ، لا على بلادهم هم فحسب ، بل وعلى الحضارة والبشرية جمعاء . والاعتماد الكامل فى هذا التصوير هو على فريقين من الناس ، أعتبرهما أقل العناصر قدرة على فهم حقيقة الأوضاع ، وأعنى الصحافيين المولعين بالتهويل ، والأكاديميين من أساتذة الجامعات المغرمين بتضخيم ما يكتشفونه من حقائق صغيرة .

غير أنى أكاد أجزم أن المستهدف من هذه الحملة الإعلامية الغربية ليس بالأصوليين الإسلاميين والإرهابيين، وإنما هو الإسلام ذاته، عكس ما ادعاه الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون فى ٢٠ من أغسطس ١٩٩٨ فى تبريره للقصف الأمريكى لأفغانستان والسودان ، ثم كرّره بعد ذلك بأيام فى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة .

ولإيضاح ذلك أمضى فأذكر أن التعاليم المسيحية مثلاً ما كانت - بأية حال من الأحوال - لتقف عقبة فى سبيل مبادئ الحرية والديموقراطية ، وما كان من الصعب

عليها ، وهى التى قضت منذ البداية بالمساواة بين البشر أمام الله ، أن تقضى بالمساواة بينهم أمام القانون .. غير أن الذى حدث فى بعض العصور هو أن الكنيسة التى نصبت نفسها قيّمة على هذا الدين ، رأت من صالحها الدنيوى أن تتحالف مع القوى المعادية للديموقراطية والحرية والمساواة ، وأعنى المَلَكية والإقطاع ، لترسيخ المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإذا هى تُعادى المساواة التى قضى بها السيد المسيح ، وتساند مظاهر التفرقة بين الطبقات وبين الأفراد ، وتربط نفسها برباط وثيق مع الرجعية . هذا الرباط الوثيق هو الذى سهّل فيما بعد على الفلاسفة والليبراليين ودعاة الحرية والديموقراطية (ممّن خلطوا بين الدين المسيحى وكنيسة ذلك العصر) أن يزلزلوا من دعائم الدين نفسه ، خاصة أن ذلك الخلط كان قائمًا فى أذهان المتديّنين أنفسهم .

أما الإسلام فلم يعرف منذ نشأته إلى يومنا هذا كنيسة . ورغم أن علماءه (وهم الذين لم تقترب سلطتهم أبدًا من سلطة رجال الدين فى المسيحية) كثيرًا ما ساندوا الخلفاء والسلاطين والولاة فى بغيهم ، والاتجاهات الرجعية فى فسادها ، فإن تأثير تلك المساندة كان محدودًا دائمًا ، متذبذبًا فى الكثير من الأحيان ، بحيث كان من الصعب أو المحال أن يرتبط موقفهم الرجعى بحقيقة الدين . وهذه هى علّة فشل من سوّلت له نفسه من المفكرين والليبراليين فى العالم الإسلامى مهاجمة الإسلام بدعوى رجعية مبادئه .

واليوم نجد أنفسنا إزاء محاولة منظمة قوية من جانب وسائل الإعلام فى العالم الغربى للخلخلة من دعائم الإسلام كدين ، بدعوى عدم لياقته لمسايرة مقتضيات النظام العالمى الجديد ، وبدعوى أنه ، فى عالم اليوم ، يمثّل مفرخة للإرهاب والإرهابيين . وإذ لمس هؤلاء القائمون على توجيه وسائل الإعلام تلك الاستحالة التى تحدّثتُ لتوّى عنها فى الربط بين الإسلام وبين السلطة « الكَنَسيّة » غير القائمة أصلاً فيه من أجل توجيه ضربة قاصمة إليه كتلك التى استغلّت مفاسد الكنيسة الكاثوليكية فى زمن ما لزعزعة الدين المسيحى ، فقد لجئوا إلى وسيلتين رئيسيتين :

الأولى : العمل على نشر أساليب العيش والعادات الاستهلاكية الشائعة فى الغرب بين الشعوب الإسلامية ، خاصة الشباب فيها ، وغرس الاعتقاد بتفوّق أنماط الحضارة

الغربية ، حيث أن من شأن تأثير الطبقات الأغنى المتفرنجة وشريحة الشباب أن يخلخل القيم والمفاهيم الإسلامية ، وركائز الدين نفسه .

غير أن هذه الوسيلة تتطلّب حتى تُؤتى ثمارها زمنًا هو أطول من أن تحتمله الدول الغربية فى عالم سريع الإيقاع ، ويهمّه الوصول إلى نتائج فورية . ولذا فإننا نراها قد انتقلت فى الآونة الأخيرة إلى الوسيلة الثانية الشبيهة بتلك التى تبنّاها فلاسفة القرن الثامن عشر وليبراليّو القرن التاسع عشر فى أوروبا فى هجومهم على المسيحية ، ألا وهى الربط أولاً بين الإسلام وبين جهات تصوّرها وسائل الإعلام الغربية (حتى وإن لم تكن كَنَسِيّة) على أنها القائمة على أمر الإسلام، ثم تسديد الضربات إلى تلك الجهات ، بحيث يكون من المؤكد أن يُصاب الدين نفسه من جرّاء الضربات الموجّهة إلى الجماعات الإرهابية، مع التظاهر دائمًا بأن الإسلام ليس هو الهدف ، وإنما الهدف هو تلك الجهات الهمجية الإرهابية الوحشية التى لا شك عندهم « أن الإسلام منها برئ » .

* * *

بقى لنا أن نتساءل :

هل ثمة أمل فى أن يتصدّى الفرد العادى فى الغرب لهذه الصورة الإعلامية عن العرب والمسلمين والدين الإسلامى بالتمحيص ، فالتشكّك ، فالرفض ؟

مدى تقبّل شعوب الغرب لهذه الصورة الإعلامية

سبق أن ذكرت أن اتساع نطاق السياحة وتزايد الصلات الحضارية والثقافية فى العالم الحديث ، كفيلان بنمو قدرة الفرد على فضح الكذب الإعلامى ، ورفض الكليشيهات الزائفة .. بات من السهل مثلاً على السائح الألمانى الذى زار مصر ، أو حتى على التلميذ الألمانى الذى لم يغادر بلده قط ، أن يسخر من تصوير الكتب المدرسية لبلادنا على أنها مجرد صحراء جرداء يعيش فيها قوم من البدو فى خيامهم .

ومع ذلك ، فقد يقرأ الغربيون عشرات الكتب عن العالم الثالث ، ويشاهدون عشرات الأفلام السينمائية والتليفزيونية من روائية وتسجيلية عن الصين أو إيران أو العراق أو غيرها ، وقد يقضون إجازتهم السنوية فى سياحة فى هذه الدولة أو تلك . ثم تسمعهم بعد ذلك يصفون الثورة الثقافية الصينية بأنها « لغز » ، والثورة الإسلامية الإيرانية بأنها « محيّرة » ، واحتفال هذا الملك العربى أو ذاك بعيد ميلاده بأنه «فضيحة».. والفضيحة هنا ليست فضيحة الملك ، وإنما فضيحتهم هم . فالاتصال الحقيقى بين الشعوب ، وهو وحده الاتصال المجدى ، يتطلب أكثر من السفر بطائرة نفّاثة ، والإقامة المريحة بفنادق الشيراتون والهيلتون ، والطواف مع ترجمان حول الهرم أو تاج محل ، وارتداء العباءة قبل ركوب الجمل ، ثم إرسال بطاقة بريدية إلى الزوجة أو الصديق .

غير أن هذا بات أمرًا معروفًا لدى الكثيرين . أما ما لا يعرفه غير القلة القليلة من أفراد شعوب الدول الغنية ، فهو أن الخسارة إنما هى خسارتهم هم إن ظلت نظرتهم إلى الشعوب الأخرى على ما هى عليه من سطحية ، تكيّفها أغراض وسائل الإعلام عندهم . وقديمًا قال المثل العربى : « كلّما ازددْتَ مثالة (أى حسن حال) ، زادك الله رعالة (أى سطحية وحماقة) » ! ، والمثل الشعبى المصرى : « الحمار مهما سافر موش حايرجع حصان » ! . ولن أنسى فى هذا المقام قولة قالها لى مدير الإدارة العربية فى وزارة الخارجية الألمانية :

« ألا تلاحظ أنه مع نمو السياحة ، وما تنشره وتعرضه وسائل الإعلام المختلفة ، وكثرة ما يكتب عن الدول الأجنبية ، يزداد جهل شعوب العالم بعضها ببعض على نحو لم يعرفه أهل القرن التاسع عشر ، أو مستهل القرن العشرين ؟ » .

فالجهل إذن غير قاصر على جهة دون جهة ، ولا الكليشيهات على أمم دون أمم . وما تصوّر العرب وتصويرهم للغرب بأقل تشوّهًا من تصوّر أهل الغرب وتصويرهم للعرب .. ومن أطرف ما قيل فى هذا الباب قولة المستشرق البريطانى برنارد لويس :

« بينما يتصوّر الغرب أن كافة رجال العرب يهيمن عليهم الشّبق ، ولا همّ لهم غير إشباع شهوتهم إلى النساء ، يتصوّر العرب أن كافة نساء الغرب يهيمن عليهنّ الشّبق ، ولا همّ لهن غير إشـباع شهوتهن إلى الرجال .. ولو صحّ هذا التصوّر منهم جميعًا لما كان هناك مجال لظهور المشاكل بين الجانبين ، ولكانت العلاقات بينهما ألذّ من الماء العذب ! » .

* * *

- ٢٢ -

بين بيزنطيى الأمس ، ومسلمى اليوم

عائد لتوّى من مقاطعتَى ديفون ودورسيت بإنكلترا .

نعم هناك فى مكتباتهما وفرة من كتب إنكليزية حديثة عن الإسلام والعرب . غير أنها - ربما بأسرها - كتب أُلِّفت بسرعة منذ الحادى عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ ، لسدّ حاجة طارئة عند القراء إلى ملء فراغ ، وربما بتكليف من دور نشر صادر لا إلى متخصّصين متفقّهين فى الموضوع ، ولكن إلى من بوسعه القيام بالمهمة فى سرعة فائقة ، وفى صورة يستوعبها القارئ العادى البسيط ، مع إيهامه بأن الكتاب يتّسم بالموضوعية المنشودة فى الظروف الراهنة .. هى كتبٌ القصد منها ، كالقصد من كل شيء تقريبًا هذه الأيام ، الكسب السريع من وراء طلب واسع مفاجئ .

خطر بذهنى بعد تصفّحى للمعروض من هذه الكتب كيف أن المذهب الإنسانى فى أوروبا اتّجه أوّل ما اتجه إلى دراسة الآثار الأدبية والتاريخية والفلسفية للرومان من أجل اكتشاف الكيفية المفترضة للتعامل مع شئون الحياة الدنيا فى عالم محوره الإنسان ، دون أن يخضع هذا التعامل لمفهوم يؤجل تحقيق السعادة البشرية إلى يوم القيامة .. وقد ظل قادة المذهب الإنسانى أمدًا لا يذكرون اليونان أو الحضارة الإغريقية . نعم كانت فى كتاباتهم إشارات إلى أفلاطون وأرسطو ، وإلى هوميروس وثوسيديدس وديموسثينيس . غير أن تلك الإشارات كانت تردادًا لما ورد فى آثار الرومان ، ولم يكن ثمة على الإطلاق إقبال على دراسة اللغة اليونانية يتيح لهم النظر بأنفسهم فيما خلّفه الإغريق .

ظل هذا الجهل باليونانية قائمًا حتى منتصف القرن الخامس عشر حين سقطت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (والتى كانت اليونانية لغتها) فى يد

الأتراك العثمانيين بقيادة محمد الفاتح عام ١٤٥٣ .. حينئذ تدفّقت على أوروبا حشود من اللاجئين من القسطنطينية ، خاصة على مدينة روما ، يبحثون عن أعمال يرتزقون منها . وكانت وسيلة الكثيرين من هؤلاء إلى الكسب هى تعليم اليونانية وآدابها .. وجدوا فى بداية الأمر صعوبة فى العثور فى القارة الأوروبية على من يرضى من دعاة المذهب الإنسانى أن يحوّل جهوده واهتماماته عن اللاتينية والدولة الرومانية القديمة ، أو من يمكن أن يتجاوز إعجابُه كتابات شيشرون وليفى وتاسيتوس وأوفيد وفرجيل.. غير أن ثلّة إثر ثلة ممن لم يروا بأسًا فى إضافة اليونانية إلى لاتينيتهم بدأت تروعها عظمة التراث الإغريقى وعمقه وإنسانيته ، بل وبدأت تتبيّن فيه تفوقًا ملحوظًا على تراث اللاتين ، وانتهت إلى أن اعتبرت كتب الرومان فى معظمها تقليدًا لما كتبه الإغريق فى التاريخ والأدب والفلسفة والمسرح والخطابة إلى آخره ، وأن التراث الأدبى والفنى اللاتينى إن كان جديرًا بالدراسة فمن أجل إلقاء الضوء على التاريخ والنظم الإدارية والحربية الرومانية ، أما التراث الفنى والأدبى الإغريقى فجدير بالدراسة لذاته ، وربما كانت الجدوى من دراسة تاريخ اليونانيين ونظمهم هى فى إلقاء المزيد من الضوء على هذا التراث الفذّ .

ركّز أبناء عصر النهضة فى أوروبا جهودهم منذ ذلك الحين على دراسة ثمار الحضارة الإغريقية ، يحدوهم شعور قوى بأن ثقافتهم الكنسية السائدة تتداعى وتتحلّل وتعانى من ضعف عام ، وأن فى تراث الأقدمين منجمًا من الأفكار وأنماط العيش يمكن استغلاله ، والاستفادة من إعادة بنائه .. كان شأنهم شأن من يقرّر الصعود إلى غرفة المهملات فى سطح مسكنه يتفحّص ما فيها من كنوز مهجورة منبوذة ، فيبادر إلى صقلها وتلميعها ، ثم إلى البحث عن أماكن مختارة من منزله لنصبها فيها . فهنا آثار يمكن للمثقف استغلالها لكسب الشهرة ، وأسماء مؤلفين قديمة جديدة ، لا كتلك التى عفا عليها الزمن رغم قرب معاصرتها ، وباتت لا تثير إلا الملل ، ولا تبعث إلا على التثاؤب .. وكان أن أصبح أهمّ ما ينقّب عنه الباحثون ويشدّ إليه رحالهم المسافرون هو كتب مفقودة ،

ووثائق قديمة منشودة ، وآثار فكرية إغريقية يفتّشون عنها فى أديرة الرهبان والقلاع القديمة. بل وشرع هؤلاء الرحالة فى ارتياد القسطنطينية ذاتها والمدن البيزنطية لإشباع نفس البُغية .

كان مبعث كل هذا النشاط وأصحاب الفضل الأكبر فى إثارته ، كما ذكرنا ، اللاجئون اليونانيون إلى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية.. كانوا أناسًا شديدى التوقير والإجلال والفهم لتراثهم ، متأجّجى الرغبة فى نقل عدوى هذا التوقير إلى الأجانب الجاهلين به . وبفضل هذه المثابرة والصبر استطاعوا أن يُبقوا على جذوة اهتمام الأوروبيين بالتراث الإغريقى متّقدة ساطعة ، بل وتضاعف هذا الاهتمام حتى اعتُبرت اليونان مهد الحضارة الغربية ومصدر الإلهام الفنى الكامل ، وحتى صارت المأساة اليونانية عندهم حاوية لأرقى صنوف الحكمة الخاصة بالحياة البشرية ، وسقراط أحكم إنسان فى التاريخ ، والإلياذة قمة الأدب العالمى ، وثوسيديدس هو النموذج الواجب الاحتذاء به فى الكتابة التاريخية ، ومحاورات أفلاطون أرقى ما تفتّقت عنه القريحة البشرية من فكر ..

* * *

ثم ننتقل فننظر إلى نوعية المسلمين والعرب الذين تغصّ بهم اليوم القارتان الأوروبية والأمريكية ، وبأعداد تفوق بكثير عدد من لجأ من اليونانيين إلى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية ، ولنر مدى قدرتهم على أن ينشروا بين جيرانهم ومواطنيهم الجدد توقيرًا وفهمًا لحضارة الإسلام ، واطلاعًا عميقًا على القضايا العربية ، واحترامًا للشخصية العربية ، وما إذا كانوا – فى حالة توفّر هذه القدرة – راغبين حقًا فى بذل بعض الجهد من أجل تحقيق هذا الغرض :

من ناحية نجد أنه من بين الأسباب الرئيسية للصورة الشائهة فى الغرب للعرب والمسلمين ، ونفور العامة منهم ، هو الاحتكاك اليومى بجاليات معظم أفرادها ذوو مستوى حضارى متدّن ، عاجزون عن الاندماج فى المجتمعات الغربية والتأثير الإيجابى

فيها ، (كالأتراك فى ألمانيا، أو العمال من أقطار شمال أفريقيا فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا) وغير مؤهلين لتقديم صورة ناصعة للإسلام والعروبة ، أو الاحتكاك بطائفة من أثرياء دول النفط العربية ذوى مسلك منفّر .

ومن ناحية أخرى نجد المتعلمين والمثقفين المسلمين والعرب فى الغرب إما وقد قطعوا شوطًا طويلاً فى سبيل الفَرْنَجَة ، أو انشغلوا بأساليب كسب عيش لا صلة لها بهويّتهم ، أو أصابهم إحباط نتيجة شيوع مشاعر من النفور والعداء عميق الجذور تجاه العرب والمسلمين لدى العامة ، وشيوع الاعتقاد لدى الخاصة بأن المسلمين (والإسلام) يمثلون عقبة فى سبيل مسيرة الأمور على ما يوافق هواهم ومصالحهم ، وتنفيذ مخططاتهم المرتبطة بفرض العولمة والنظام العالمى الجديد ، واقتران الإسلام فى أذهانهم بالتحجّر والعنف والإرهاب ، ورفض الديموقراطية والتعدّدية ، وإهدار حقوق المرأة والأقليات الدينية ، والاستهانة بحقوق الإنسان . وقد عزّزت من ترسيخ هذه الصورة تصرّفات من المسلمين أنفسهم ، كمذابح الجزائر ، وقتل السياح الأجانب فى بعض دولهم ، وتنفيذ الحدود الشرعية على نحو يستبشعونه ، مما دفع الكثيرين فى الغرب إلى التساؤل بعد انهيار الأنظمة الشيوعية فى أوروبا الشرقية : « إذا كنا قد نجحنا فى تقويض دعائم العقيدة الماركسية ، رغم ما كانت تحيط نفسها بها من سلاح ودعاية ، ورغم أصولها الأوروبية ، فما بالنا لا نزلزل أركان عقيدة متخلّفة لدى هؤلاء البرابرة الذين لا يملكون سلاحًا ، ولا يُتقنـون فنون دعاية ، ولا يستمتعون من الدنيا بغذاء أو كساء إلا ما نجود به عليهم ؟! » .

ومع ذلك ، ورغم قتامة الصورة ، فإنه لايزال على المثقفين من المسلمين والعرب فى الغرب أن يستوعبوا فكرة أن مستقبل الإسلام والعروبة بات يتوقف حاليًا ، وإلى حد كبير على تقييم الغرب لإمكاناتنا الحضارية .. يمكنهم فى ثقة أن يثبتوا - دون أن يكونوا مطالبين بالتخلّى عن تقاليدهم وأخلاقياتهم وقيمهم ، ودون اضطرار إلى كذب أو نفاق أو إلى تجاهل للواقع والحقائق - أن فى الإسلام جوانب مضيئة، وفى فكرة العروبة

مفهومًا بنّاء ، وأن مفهوم بن لادن والإرهابيين عن الإسلام ليس بالمفهوم الوحيد ، بل وليس من الإسلام فى شيء ، وأن ثمة إسلامًا آخر خيرٌ للغربيين أن يتعرّفوا على ملامحه.

غير أن هذا الإثبات يتطلّب إلى جانب الإيمان القوى بجدواه ، تسلّحًا بالمعارف كذاك الذى كان متوفّرًا لدى البيزنطيين اللاجئين إلى أوروبا ، الذين استطاعوا بفضل مثابرتهم إقناع الأوروبيين بأن من صالحهم الحيوى إعادة النظر فى تراث الإغريق ، والاغتراف منه ، والاعتراف بأفضاله ، وتمكّنوا بذلك فى النهاية من خلق مناخ شديد الاختلاف عما كان عليه ، ينظر إليهم فيه الغربيون نظرة التوقير والإقرار بالجميل .

* * *

- ٢٣ -

صفحات من يوميّاتي

رُباعيـة مصـرية

١

الثلاثاء ١٥ من مايو :

في مأدبة عشاء أقامها أحد أثرياء دولة خليجية بشقّته الفاخرة المطلّة على حديقة الحيوان في الجيزة ، ودعا إليها لفيفًا من الكتّاب والشعراء والصحفيين المصريين المرموقين، كما دعا عددًا من أصدقائه الخليجيين كي يمتعهم بلقاء من يقرءون لهم من عمالقة الأدب والصحافة بمصر ، دون أن تتاح لهم من قبل فرصة الالتقاء شخصيًا بهم .

فأما مأدبة العشاء فكافة صنوف مأكولاتها من مطعم سويس إير المجاور ، من الكافيار والسلّمون المدخّن وفواتح الشهية ، إلى الحمام المحشوّ بالفريك والدجاج المحمر والسمك المشوى ، إلى الخضروات فالفاكهة وأصناف لا حصر لها من الحلوى ، شرقيّها وغربيّها . وأما عن الخمور فحدّث ولا حرج . ورغم أن معظم الضيوف وصل إلى شقة الداعي وقد بدا عليه أثر ما تناوله من خمر في بيته ، أو في المكان الذي قدم منه ، فقد استأنفوا الشراب فور وصولهم ، كأسًا مترعةً من الويسكي ، تلو الكأس .

لم يأل الداعي الخليجي إذن جهدًا في الإعداد للحفل ، ولا ضنّ بمال في الإنفاق عليه.. الخطأ الوحيد الذي ارتكبه هو أنه لجهله (وهو الغريب عن مصر) بطبيعة العلاقات الشخصية بين أفراد هذا الحشد من « المفكرين » و« الشعراء » و« الأدباء » ، جمع عنده عن غير قصد بين هذا الذي لا يطيق رؤية ذاك ، وهذا الذي يكره هذا كراهة التحريم ، ومن سبق له في مقالاته أن لعن أجداد الجالس إلى جواره ، ومن اتّهم الجالس قبالته بالعمالة لإسرائيل أو النفاق للسلطة ، ومن طالب الحكومة بمصادرة كتاب فاجر

الحادى لهذا الذى وقف يصافحه الآن بأطراف أصابعه وقد أشاح بوجهه عنه ، وناقد اتّهم الأديب الواقف إلى جانبه بمحاولة هدم رموز الأمة العربية بسبب كتابته لبحث يهزأ فيه من المتنبّى ، وصحفى يعمل وكيلاً لمجلة خليجية سبق أن طلب من هذا المفكر أمامه مقالاً مقابل مائتى دولار ، فلما سلّمه إياه نشره الصحفى فى المجلة فى صورة حوار لا مقال ، واستولى لنفسه على المكافأة .

بدأ أحد الضيوف الكويتيين بسؤال جاره المفكر الإسلامى الكبير عن مسألة فى الدين ، فانبرى المفكّر يجيب فى خُيلاء وهو ينظر إلى سقف الغرفة بأنه أول من تعرّض تفصيلاً لتلك المسألة فى كتابه كذا ، وأنه فى نفس الكتاب حسم الأمر بشأن الناسخ والمنسوخ فى القرآن ، وأنه وضع أول تعريف للشريعة الإسلامية ، وأن نصر حامد أبو زيد سرق من مقال له فكرة تاريخية النص ، وأن المستشرق برنارد لويس سرق من إحدى محاضراته فكرة كتابه «اللغة السياسية فى الإسلام» ، وانتهى حديثه بأن وصف نفسه بأنه « القوة الأولى المستنيرة على مستوى العالم » . وإذ أخطأ الضيف الكويتى بأن انطلق فى حسن نية يعلّق تعليقًا طويلاً على بعض أفكار نصر أبو زيد ، تثاءب أبرز المفكرين المستنيرين فى العالم فى ملل ، ثم أغلق عينيه فى كلل ، ثم غلب عليه النعاس وشرع فى الشخير .

فى ركن من الصالون اعتزل روائيان لا يفترقان ، قد شاع بين الناس أنهما يتهارشان تهارش الحمير ، إن نشر أحدهما رواية هلّل لها صديقه فى الصحيفة التى يرأس تحريرها ، وإن نشر الآخر قصة وصفها صديقه فى المجلة التى يعمل ناقدًا أدبيًا فيها بأنها من أجمل ثمرات الأدب العربى ، حتى فقد القراء الثقة فى مصداقية الاثنين معًا .. على بعد متر منهما وقف كاتب يعاتب رئيس تحرير جريدة «يسارية» معارضة تخصّص منذ بضع سنوات فى الكتابة ضد الجماعات الإسلامية ، على أنه بات يحذف من مقالاته كل انتقاد للنظام أو لرئيس الدولة ، وهو ما اعتبره تصرفًا مستغربًا من جريدة تصف نفسها بالمعارضة .. أجابه رئيس التحرير بقوله : « نحن والنظام الآن نحارب فى خندق واحد ضد عدوّ مشترك ، هو الجماعات الإسلامية .. وحتى يتم القضاء قضاء مبرمًا

على تلك الجماعات ، فجهادنا مع النظام لا ضده . فإن شئت مهاجمة ذلك التيار فأهلاً وسهلاً بمقالاتك ، وإن أصررت على انتقاد النظام ، فسنضطر آسفين إلى وقف نشرها » . قال الكاتب ساخرًا : « فهمت الآن سبب تعيينك فى مجلس الشورى ، وتخصيص الحكومة حارسين شخصيين لك رأيتهما عند دخولى ينتظرانك خارج الشقة » .. ألقى رئيس التحرير عليه نظرة اشمئزاز ، ثم أدار له ظهره متّجهًا إلى مكان قصصى مرموق يقف وحده ، وراح يداعبه ملمّحًا إلى علاقة القصصى الصريحة العلنية بزوجة مهندس صديق له يعمل فى المملكة السعودية ، كانت قد فضّلت البقاء مع أبنائها فى مصر على مرافقة زوجها فى غربته .. وسرعان ما تحوّل حديثهما من الكلام المسموع إلى الهمس ، دوّت منهما بعده قهقهات عالية .

ودخل علينا الصالون مَن أعلن المُضيف على الملأ وصولَه واصفًا إياه بأمير شعراء مصر . وكان الأمير عند دخوله فى حال من السكر البيّن .. شرع كعادته يتحدّث فور جلوسه عن نفسه . فهو أيضًا - كالمفكر الإسلامى المستنير - يتمتع بخُيلاء البريمادونا أو الطاووس ، ما لم يتحدّث عن نفسه ، أو يكلّمه الحاضرون عن نفسه أو شعره ، نام .. أطال فى وصف لغته العربية بأنها فى مصاف لغة محمد الرسول وأبى حيان التوحيدى ، ثم فى الحديث عن احتمال ترشيحه لنيل جائزة نوبل للآداب هذا العام . فلما بدا الملل على الوجوه ، حاول أستاذ الفلسفة بكلية آداب جامعة القاهرة أن يغيّر الموضوع إلى انتقاد الأوضاع الراهنة فى مصر . فما تعرّض فى انتقاده لرئيس الجمهورية ، حتى انتفض الطاووس وانبرى يقول :

- إن كنت بهذه الشجاعة التى تسوّل لك انتقاد النظام والسيد الرئيس ، فلماذا إذن تمتهن نفسك بالسعى لاهثًا وراء جائزة الدولة التشجيعية ؟

امتقع وجه أستاذ الفلسفة وقد بوغت ، ثم قال :

- أنا ؟ أنا أسعى لاهثًا وراء جائزة الدولة التشجيعية ؟ من قال لك هذا الكلام ؟

- جابر عصفور .

– سيدى الفاضل ، جائزة الدولة ترشّح لها الهيئات ، وقد لا يكون للمرشَّح علم بترشيحه . ولم يحدث أن رشّحت نفسى أو طلبت من جهة أن تفعل ذلك .

– بل فعلت .

– ما هذا ؟ تحقيق معى ؟!

والتفت أحد الروائيين إلى الشاعر الكبير يعاتبه قائلاً بصوت خفيض :

– ما مناسبة هذا الكلام الآن ونحن فى حفل سمر لأصدقاء ، وفى ضيافة غرباء ؟

أجاب الشاعر رافعًا صوته حتى تسمعه الكافة :

– لأنى لا أطيق الذين يتظاهرون بالشجاعة فى المجالس الخاصة ، ولهم فى مسلكهم العلنى شأن آخر .

فما كان من أستاذ الفلسفة إلاّ أن هبّ سريعًا من مقعده متوجّهًا إلى المضيف يستأذنه في الانصراف . وحاول المضيف أن يهدّئ من ثائرته ويقنعه بالبقاء للعشاء ، ولكن دون جدوى . فما أغلق الباب خلفه حتى التفت الروائى إلى الشاعر قائلاً فى غضب :

– وأنا أيضًا أنصرف .. منذ أن عانقك رئيس الجمهورية بعد إنشادك لقصيدتك التى تهنئه فيها بنجاته من محاولة اغتياله فى أديس أبابا ، وأنت تسعى بكل الوسائل حتى تُعيّن وزيرًا للثقافة .. وما التصرّف الذى بدر منك الآن إلا على أمل أن ينقل أحد الحاضرين دفاعك عن الرئيس إلى الجهات العليا فيزداد رضاؤها عنك .

– يلعن أبوك ابن كلب !

وهبّ الروائى من مقعده لضرب الشاعر . غير أن المضيف أسرع فحال ببدنه بينهما .

ثم حاول أحد كبار الناشرين أن يلطّف الجو . فشرع يروى نكاتًا جنسية متّصلة ، شديدة البذاءة .. لكن الجو كان قد تكهرب الآن إلى درجة لم تسمح بغير ضحكات قصيرة مفتعلة ، ليس بها أثر لمرح .

وخطرت بذهنى وأنا أنصرف من المكان قولة جوته : « إن الطبيعة وهبت الإنسان العقل كى يضحى أكثر حيوانية من الحيوان » .. قلت فى نفسى :

- ولهذا أيضًا وهبت المثقفين المصريين الثقافة .

٢

الخميس ١٧ من يوليو

فى ضيافة احد أقربائى بقرية مارينا على الساحل الشمالى ..

فى هذه القرية وأمثالها فقط يمكنك أن تفهم حق الفهم ظاهرة التطرف الدينى فى إمبابة ، والزاوية الحمراء ، وعين شمس ، وأبى قرقاص .. إلى آخره ، وأن تعلم علم اليقين أية أسوار تلك التى سيبدأ الثوار باقتحامها عند اشتعال الثورة الشبيهة بتلك التى بدأت عند أسوار الباستيل .. فهنا طبقة جديدة من أغنى أغنياء مصر ، لا يعرفون شيئًا عن الواقع المصرى ، ولا يهمّهم أن يعرفوا شيئًا عنه .. طبقة لا تمتّ إلى الأرستوقراطية بصلة ، ولا تتحلّى بأية فضيلة من فضائل الأرستوقراطية ، وإنما هى مزيج غريب غير متجانس من أفراد لا يجمع بينهم غير وفرة المال ، والميل إلى فاجر الإنفاق .. رجال أعمال ، وزراء ، تجار ، أثرياء دول الخليج ، كبار الصحفيين ، مشاهير الفنانين ، فنانات من طراز لوسى أرتين ، ممن باعت الحكومة لهم (سعيًا إلى مكافأتهم ، أو كسب رضائهم ، أو اتقاء شرهم ، أو شراء ضمائرهم) ، مساكن القرية بأسعار زهيدة (١٨٠ ألف جنيه للفيلا) ، فإذا ثمنها يرتفع فى بحر سنوات قلائل إلى ما يزيد على أربعة ملايين ، بل ثمة من تقاضى ثلاثة ملايين جنيه مقابل تأجيرها لمدة أربع سنوات فحسب ، وثمة من كبار مسئولى الدولة من ساءه تآكل البلاج أمام قصره ، فأنفقت الدولة ما يقرب من أربعة ملايين فى سبيل تجفيف البحر فى منطقته .

مرّ علينا صبى فى الثانية عشرة من عمره ليصحب ابن قريبى إلى البلاج . وإذا طلب ابن قريبى من أبيه مصروفًا اعتبره مبالغًا فيه ، رأى أن يسأل صديق ابنه عما

يتقاضاه من والده من مصروف . أجاب بقوله : مائتا جنيه – فى الشهر ؟ ضحك الصبى طويلاً ثم قال : فى الشهر ؟! فى اليوم طبعًا .

– مائتا جنيه فى اليوم الواحد ؟! ماذا تصنع به ؟

– مائة وخمسة وعشرون إيجار الموتوسيكل المائى (جيت سكى) فى البحيرة لمدة نصف ساعة .. خمسة عشر جنيهًا ثمن أيس كريم « بسكين روبنز » .. ثلاثون لألعاب الفليبرز . ثم ثلاثون إما مقابل جولة فى البحيرة فى البنانابوت ، أو لشراء السندوتشات والحلوى والكوكاكولا .

قال لى قريبى بعد انصراف الصبيّين : فى قريتنا فلاحة ضربتْ صبيّها يوم ذكرى المولد النبوى علقة ساخنة – لأنه اشترى بالجنيه الذى أعطيتُه إيّاه عيديّة له مسدسًا من البلاستيك لرش الماء ، وصاحت به وهى تضربه : جنيه يا ابن الكلب على لعبة واحنا موش لاقيين ناكل ؟!

أمام أحد محلات السوق وقف رجل بالمايوه مع ابن له فى التاسعة يسأل صاحب المحل عن ثمن ما يسمى هنا بالـ buggy ، أو موتوسيكل الرمل . فلما أجابه بأنه ستة وثلاثون ألف جنيه ، سأله عما إذا كان يقبل من النقد أربعة وعشرين ألف ، والباقى بشيك ، فقبل البائع . قال الرجل : سأمرّ عليك إذن عصر اليوم بالمبلغ والشيك وأتسلم الموتوسيكل . فأجابه صاحب المحل معاتبًا :

– عيب يا سعادة الباشا ، عيب .. بل يتسلّمه ابنك الآن ، وتشرّفنا سعادتك بعد الظهر .. ومن غير فلوس خالص . يا سلام ؟

حراس الأمن هنا يعلمون جيدًا لمن السلطة العليا بالقرية . وكثيرًا ما تسمع صبيًا يصرخ فى وجه حارس أمن اعترض على تصرف له غير مشروع : « أنا حاقول لبابا يرفدك » . والنتيجة هى أن أصيبت غالبية حراس الأمن بالقرية بحالة من الإحباط الشديد ، وكفّوا عن محاولة التصدّى لأية مخالفة للقانون . وبالتالى فقد بات بوسع الشباب أن يُقدم على أى شيء ، وأن يقود السيارة بأى سرعة ، وأن يهدّد بالموتوسيكل

المائى حياة السابحين فى البحر أو البحيرة ، وأن يستخدم فى مغازلاته أبذأ العبارات ، بل وأن يتهجّم على الفتيات تهجّم المغتصبين ، وأن يستعين بالبلطجية فى اقتحام بيت لضرب شقيق فتاة اعترض على مغازلة أخته ، أو الترصّد فى الطريق ليلاً لشاب شاهد غريمه يراقص صديقته فى إحدى الحفلات الموسيقية التى تقام هنا وهناك .

وهى حفلات تنقل مكبرات الصوت موسيقاها وأغانيها إلى أطراف القرية النائية حتى الساعة الرابعة أو الخامسة صباحًا ، فتحول بين أمثالى من طالبى الراحة والاستجمام وبين النوم . فهنا عليك الالتزام بما جرى عليه العرف : تأوى إلى مخدعك فى الخامسة صباحًا ، وتستيقظ من نومك فى الواحدة ظهرًا . أما قبل الواحدة فغالبية أهل القرية فى سبات عميق . إن توجّهتَ إلى مبنى التليفونات فى الثانية عشرة لطلب إصلاح خلل بتليفونك الخاص ، مررت بعنبر ينبعث منه غطيط العمال الراقدين فيه على أسرّتهم . وإن مررت عليهم فى الواحدة ، وجدتهم جالسين إلى إفطارهم . وإن توجّهت وقتئذ إلى باعة لقمة القاضى أو الفول أو الطعمية لشراء إفطارك أنت ، وجدتهم يفتحون أبواب محالّهم أو يوقدون النار لبدء العمل ، وهم يتثاءبون .

الوحيدون الذين تراهم قبل الواحدة فى شوارع مارينا هم الزبالون والكنّاسون والمكلّفون برش الحدائق ورعايتها . وهؤلاء جميعًا وغيرهم من عمال القرية ، ممن يراقبون يوميًا أسلوب حياة أصحاب الفيلات ، وأسلوبهم فى إنفاق الأموال الطائلة ، ويعرفون ما ينفق بعضهم من ملايين الجنيهات على الديكور وحده ، وأن لبعض الخليجيين قصورًا بعدد زوجاتهم ، تحرسها ليلاً ونهارًا ميليشيات كتلك التى تسبّبت فى نشوب الحرب الأهلية فى لبنان ، قد أصابهم ما يمكن وصفه باللّوثة أو الخبال ، وأضحوا جميعًا - وبلا استثناء - شحّاذين ، ليس على ألسنتهم غير الدعاء للمليونيرات بطول العمر ، وبأن يظلوا كل عام وهم بخير ، ويقصدون أيًا من الملاك فى لهفة إن هم لمحوه متوجّهًا إلى باب سيارته المرسيدس أو البى . إم . دبليو لمساعدته فى فتحه ، أو يعدون وراءه لاهثين إن رأوه يمارس رياضة الجوجينج اليومية ، أو يتبعونه كظلّه إن خرج

من قصره مع حراسه المسلحين ، وقد ارتدى المايوه قاصداً البحر للاستحمام ، حتى ينهرهم الحراسُ ويهشّونهم عن مخدومهم هشّهم للذباب .

وليس الزبالون والكناسون وسائر الشحاذين وحدهم من تهشّهم هذه الميليشيات هشّ الذباب . فرجال الأعمال وكبار الصحفيين والفنانين والتجار أنفسهم قد تأمرهم الميليشيات فجأة بإخلاء البحر ، إن كانوا في البحر ، أو بإخلاء البلاج أو التزام الأدب فى الجلوس عليه وإزاحة الساق عن الساق ، أو الكف عن لعب الكرة ، إن حدث ووصل رئيس مجلس الشعب ، أو أحد الحكام ، أو أحد أنجالهم ، ينوى النزول إلى البحر ، أو مجرد التمشية على الشاطئ .

وقفتّ أمام ركن الأسماك فى مطعم « سى جَلْ » فى انتظار دورى لاختيار ما أريد من سمك ووزنه . لم يكن أمامى غير رجل أعمال سمين . على عينيه نظارة شمس وبين شفتيه سيجار ، وفى الجيب الخلفى لبنطلونه تليفون محمول .. طلب من العامل أن يزن له خمسة عشر كيلو من الجمبرى الكبير ، وعشرة كيلو من الكابوريا ، وعشرة من السمك الوقّار .. ثم ألقى له من قبل شروعه فى الوزن بورقة من فئة العشرين جنيها من قبيل البقشيش ، التقطها العامل وهو يتمتم بالدعاء له .. قلت فى نفسى وأنا أراقبه : وماذا عساك أن تطلب أنت من الأسماك ، أو تدفع أنت من البقشيش يا مسكين ! غير أنها كانت مفاجأة سارة حين عاملنى وازن السمك عند حلول دورى بتواضع حُلو يُحمد عليه ، وكأنما لم يحدث شيء .....

هكذا تحوّلت الدولة المصرية إذن إلى دولة من أمّتين ...

٣

السبت ١٩ من يوليو:

فى زيارة لقرية مراقيا على الساحل الشمالى .

هنا طبقة أُخرى من الناس ، قوامها عائلات مصرية من البرجوازيين الذين كوّنوا ثرواتهم من عملهم بليبيا أو الدول الخليجية . الكثيرون من رجالهم يرتدون الجلاليب

البيضاء ، والغالبية العظمى من النساء ترتدى الحجاب أو النقاب ، وينزلن البحر بكامل ملابسهن ، بل وبالنظارات الشمسية والقفافيز أحيانا ، أو لا ينزلن على الإطلاق . أما نساء الماضى ممن لا يرين بأسا فى نزول البحر بملابس البحر ، فتلاحقهنّ نظرات الاستنكار ، ويسمعن هنا من التعليقات أو من السباب ما يكرهن ... يملئون شوارع القرية يسيرون فيها وهم يقضمون من كيزان الذرة ، وما من عائلة إلا ويحمل أحد أفرادها على كتفه جهاز راديو أتى به من الدولة الخليجية ، وقد أداره صاخبًا مدوّيًا .. فقد أضحت الضوضاء شرطًا من شروط المتعة لدى المصريين ، هى وكيزان الذرة .

هذه طبقة جديدة لم يعرف تاريخ مصر مثيلاً لها من قبل ، يُطلق سائر المصريين عليها اسم « النوفوريش » . أفرادها ينتمون إلى أسر لا بالعريقة ولا بالغنية ، قصدوا دول الخليج للعمل بها طلبًا للرزق وفرارًا من الضائقة الاقتصادية فى مصر ، وقضى أربابها سنوات بها دون عائلاتهم أو معها ، يقترّون أو لا يقترّون على أنفسهم ، لكنهم يكنزون الجانب الأكبر من مرتباتهم ويعودون به فى يوم ما إلى بلادهم حين تستغنى الدول الخليجية عنهم ، أو يستغنون عنها .

وبالنظر إلى أن هؤلاء لم تتح لهم الفرصة أبدًا للاتصال بالطبقة العليا من المصريين أو الاندماج معها ، ولا للتحرك فى الأوساط الراقية ، فقد كان من الطبيعى أن يتّسم سلوكهم بقدر من الغلظة والفجاجة ، وقدر أكبر من الخيلاء المألوفة من حديثى النعمة . كذلك فإنه من الطبيعى أن يكونوا هم وزوجاتهم وأولادهم قد تبنّوا أثناء إقامتهم الطويلة بدول الخليج عادات وأذواقًا كثيرًا ما تثير عجب من لم يعمل بتلك الدول ، خاصة من الطبقة العليا ، وغالبا ما تثير اشمئزازهم وتقزّزهم . ذلك أنهم بعد أن أفلحوا فى تكوين ثروات لم يكن لهم ولا لآبائهم وأجدادهم بها عهد ، وحقّقوا أملهم فى الحياة ، وصار بوسعهم لأول مرة فى حياتهم أن ينظروا إلى المستقبل نظرة آمنة مطمئنة ، وأن يأكلوا ويلبسوا ويُطعموا أولادهم ويُلبسوهم ما كانوا محرومين منه فى مستهل حياتهم ، وما كان لعابهم يسيل له إن رأوه فى أيدى غيرهم وعلى أبدانهم ، قد عادوا مصمّمين على

قطع صلتهم نهائيا بماضيهم التعس ، وعلى ألاّ يعودوا فى بلادهم إلى مركـزهم الاجتمـاعى التافه القديم ، وألاّ يقبلوا أن تنظر إليهم الطبقات الأعلى نظرة استعلاء أو استخفاف ... لقد غدا المال ينساب انسيابًا من أيديهم . غير أن افتقارهم إلى أصالة المحتد ، وإلى ما يؤهّلهم لمخالطة أفراد الطبقة العليا ، جعلهم يميلون إلى أن يُظهروا للملأ ، وبأسلوب سافر فجّ ، الميزة الوحيدة التى يتمتّعون بها ، وهى المال .. وهم حيثما يذهبون - المعمورة أو العجمى أو مراقيا أو مختلف الأحياء فى مختلف مدن القطر - سرعان ما تشبّ بينهم وبين أصحاب الثروات غير الخليجية ، وأبناء البيوتات ، نار عداوة شبيهة بتلك التى كانت فى الماضى تستعر بين العائلات الأرستوقراطية المصرية وأغنياء الحرب .. هذه الكراهية للطبقة العليا ، بل وللانتيليجنتزيا والفنانين ، هى أبرز ما يميز هؤلاء النوفوريش . وستظل هذه الكراهية قائمة ما دام أفرادها يستشعرون الحقد ، إذ لا يتمتّعون فى الحياة الاجتماعية المصرية بمكانة تتناسب مع قدر ثرواتهم .

وفى الجهة المقابلة ، نجد أفراد الطبقة العليا والانتليجنتزيا والفنانين لا يمقتون أحدًا ، ولا يستشعرون النفور والاشمئزاز من أحد ، قدر مقتهم لأفراد تلك الطبقة من العائدين من دول الخليج ، وقدر نفورهم واشمئزازهم منهم ومن عاداتهم وسلوكهم وقيمهم ، خاصة إذ يرون أعدادهم تتزايد مع كل عام ، وتأثيرهم فى أذواق السلع والملابس وبرامج التليفزيون وأفلام السينما والمسرحيات ينمو يومًا بعد يوم ، بحيث لا يكاد الأوّلون يجدون مكانًا لهم يعصمهم من هذا المدّ ، وبحيث يجدون المساحة التى بوسعهم أن يعيشوا فيها بمنأى عن هؤلاء فى تقلّص سريع مستمر .. كانوا فى الماضى يقضون إجازاتهم الصيفية فى المعمورة والإسكندرية والعجمى ، فإذا بهؤلاء البرابرة يغزونها ، وينصبون شماسى البحر بجوار شماسيهم ، وتنزل نساؤهم بجلاليبهن البحر مع صاحبات المايوه والبيكينى ، يديرون أجهزة الراديو بأعلى صوت ، إذ لا يعرفون السماع ولا الاستمتاع إلا بالصوت العالى الذى لا يعلوه شىء ، ولا يرتاحون إلا إن التصقت شماسيهم بشماسى غيرهم ، فى حين يُحدث أطفالهم الضجيج بألعابهم التى أتوا بها من

الخليج أو جاءهم بها آباؤهم من هناك ... عندئذ لا تجد الطبقة العليا حيلة لتجنّب هؤلاء الغزاة إلا بالفرار إلى أحياء أخرى ، وشواطئ أخرى: سيدى كرير ، أبو يوسف ، الروّاد ، ماربيلا ، مارينا ، فينيسيا ، قرية الدبلوماسيين ، يتبعهم إليها النوفوريش بشماسيهم ولعب أبنائهم وحجاب نسائهم ، فيضطروهم مرة أخرى إلى التراجع غربًا فغربًا فغربًا ... لقد أظهر أفراد هذه الطبقة همة عظيمة فى عملهم بالدول الخليجية ، وتحمّلوا فى جَلَد وصبر عظيمين مشاق الغربة ، وإهانات أرباب العمل الخليجيين ، وأسهموا إسهامًا عظيمًا فى تقليص مشكلات مصر الاقتصادية ، وجلبوا إليها كنزًا من العملات الصعبة .. غير أنهم فى مصر لم تتح لهم الفرصة بعد عودتهم لإظهار الجوانب الإيجابية فيهم ، ولا قدّموا خدمات مماثلة لما قدّموه من الخدمات فى الخليج ، أو بسبب إقامتهم فى دول الخليج .. لقد طفوا الآن إلى سطح مجتمعهم بعد خمول ذكر ، وشرعوا يتبجّحون بالإنفاق الوقح من الثروات العريضة التى كوّنوها لأنفسهم ، متسبّبين بإنفاقهم هذا فى رفع أسعار كل شيء ، من البيض إلى الفاكهة واللحوم إلى أسعار الأثاث والشقق السكنية والسيارات ، مما خلق المتاعب والضيق لمن لم يخدم فى الخليج .. بل لقد صار بعضهم أقدر على الإنفاق وشراء السلع الغالية من الطبقة العليا ، ويقتنون من فاخر السيارات ما ليس بمقدور تلك الطبقة اقتناؤها .. ومع ذلك ، ومع كل ما باتوا يملكون من الفيلات فى الساحل الشمالى أو فى القاهرة ، وما فى مساكنهم من تحف خزفية ، وسجاجيد عجمية أو صينية ، وأجهزة إليكترونية ، ونجفات من الكريستال ، ظلوا مفتقرين إلى كل مسحة من الذوق الرفيع ، وإلى آداب الحديث والمعاملة والسلوك ، لا يعجبهم من الغناء إلى السوقى ، ومن الموسيقى إلى الحوشى ، ومن الأفلام غير المضحك فى إسفاف ، ومن الصور الزيتية والتماثيل غير الذى لا يطيق الذوق الرفيع أن يقع عليه بصره ولو لثانية واحدة .. يتخلّص خدمهم من القمامة بإلقائها على رصيف المسكن المقابل ، ويزعج أطفالهم الجيران بصراخهم وصخبهم فى لهوهم .. والآباء والأمهات يفرطون فى أكل اللحوم التى حُرموا منها فى صباهم .. فهم لايزالون بعقليات وأذواق وعادات مرحلة حياتهم السابقة على سفرهم إلى دول الخليج ، بل وربما انحطّت وزادت سوءًا مع توافر

الثروة وتزايد القدرة على البروز إلى السطح ، وغزو مختلف أوجه حياة المجتمع المصرى ... كل هذا أثار عداوة وكراهية أفراد الطبقة الدنيا التى خرجوا منها ، وأفراد الطبقة العليا التى يحاولون جاهدين الدخول فيها ، وأثاروا لدى الفريقين جميعًا مشاعر هى مزيج من الحسد والاحتقار . ثم زادت الأحقاد حين رأت الأرستقراطية بناتها يتزوّجن من أولادهم ، واصطدمت أعين أفراد الانتليجنتزيا والفنّانين بالألوان البنفسجية والبمبية الفاقعة للعمارات التى يبنونها من مدّخراتهم ، وحرمتهم قزقزتهم اللبّ الدخول إلى دور السينما والمسارح ، ورأى الفنانون أعمالهم تُستبعد استبعادًا لأنها لا توافق ذوق الطبقة القادرة على الدفع والشراء ، واضطر مدرّسو البيانو إلى إعطاء الدروس فيه لأبناء من لا أدنى صلة له بالموسيقى ، أو بأى فن آخر ..... لقد كانت المسرحيات والأفلام المصرية فى الماضى تسخر من مثل هذه الشخصيات ، (غنى الحرب مثلاً) .. أما اليوم فإن هذه الشخصيات هى التى ترتاد المسارح ودور السينما وتتفرج على التليفزيون . فلم يعد ثمة من يجرؤ على عرض ما يسئ إلى مشاعرهم فيها .

٤

الإثنين ٢١ من يوليو:

فى عزبة أخى أحمد بقرية كمشوش فى المنوفية .. أربعة عشر فدانًا زرعها كل ما يصلح علفًا لمواشيه ، من برسيم وذرة وقمح ، ثم بيت صغير أنيق وسط ثمانية عشر قيراطًا حولها سور ، هى عبارة عن حديقة تملأها أشجار المانجو والكمثرى والليمون والبرقوق والخوخ ، وكرمة عنب ، وفى وسطها شجرة أكاسيا وارفة الظلال .

فى ركن من أركان هذه المساحة المسوّرة حجرتان من الطوب الأحمر يسكنهما ناظر الزراعة نزيه عبد الصمد وزوجته وابنته وأبناؤه الثلاثة ، يتناوب الأبناء الحراسة بعد ساعات الدراسة فى مدرستهم ، ويتولّى الأب الإشراف على الزراعة والرى واكتراء الأيدى العاملة فى الأرض ، بينما تنهض زوجته نجاة بأهم الأعمال المطلوبة هنا . تستيقظ

من نومها فى الخامسة صباحًا ، فتتّجه إلى حظيرة المواشى لحلب ثمانى عشر جاموسة وبقرة واحدة . وإذ تفرغ من الحلب تعود سريعًا إلى بيتها لإيقاظ الزوج والأبناء ، وتعدّ الشاى ، وتشوى كوز ذرة هو كل ما يشكّل طعام إفطارهم قبل أن ينصرفوا إلى الحقل والمدرسة . وبعد خبز الخبز تعود إلى الحظيرة لخضّ الحليب واستخدام الماكينة فى فصل القشدة عن اللبن ، استعدادًا لصنع الزبد من الأولى والجبن من الثانى . أما ما صنعته منها خلال الأيام الثلاثة الماضية فتهيّئه حتى يجده التاجر الذى يأتى لشرائه مرتين كل أسبوع جاهزًا ، فيزنان معًا ، وتتقاضى منه ثمنه لتسليمه إلى أخى أحمد . ثم تتوجّه إلى حظيرة الدجاج لتزويدها بالعليقة والماء ، ولجمع البيض الذى تنقله بعد ذلك إلى بيت أخى . وبعد تنظيف حظيرتى البط والأرانب وتزويدهما بالماء والبرسيم ، تعود إلى البيت لتنظيفه وترتيب محتوياته ، ولإعداد وجبة غداء قوامها الخبز والجبن القديم وسلطة الجرجير ، وتأخذ جانبًا منها لتوصيله إلى زوجها فى الغيط ساعة الظهر ، وتشترك عندئذ معه فى حشّ البرسيم والذرة لإطعام البهائم ، ثم تمضى إلى ماكينة الرى لفحصها والاطمئنان على توفّر المياه حتى لا تحترق الماكينة إن جفّت . يكون أولادها فى هذه الأثناء قد عادوا من المدرسة ، فتتولّى إعداد الغداء لهم ولنفسها ، سائلة إياهم أثناء الأكل عما صنعوه فى يومهم .. تقوم بعد الغداء بغسل الصحون ، ثم غسل ما اتّسخ من ثياب ونشرها فى الشمس ، ورتق ما عساه أن يكون قد أصابه مزق، تساعدها فى ذلك ابنتها . وإذ يجلس الأولاد للمذاكرة ولواجباتهم المدرسية ، تتوجّه هى لأداء ما تكلّف به من عمل فى بيت صاحب المزرعة ، كغسل صحونه وكنس الحجرات وتنظيف الحمّام ، ثم فى حديقة المنزل كتغطية عناقيد العنب فى الكرمة بأكياس مخرّمة من الورق لحمايتها من العصافير والنحل والزّنابير ، والإشراف على الصبية المستأجرين لجمع الثمار ، وعلى وزنها واستلام ثمنها من مشتريها . وتبدأ عند عودتها إلى بيتها فى إعداد وجبة العشاء (وهى الوجبة الرئيسية فى اليوم) ، وقوامها المكرونة والحلاوة الطحينية ، ثم اللحم مرة واحدة فى الأسبوع ، أيام الخميس ، تتولّى بعدها غسل الصحون .

في المسـاء ، جلست مع أحمد نلعب الشطرنج ، ثم انتقلت إلى ركن بشـرفة البيت أواصل قراءتي السادسة لرواية مارسيل بروست «بحثًا عن الزمن الضائع» . فما قرأت فقرة حتى رفعتُ عيني عن الكتاب أسأل أحمد :

– كم تدفع لهذه العائلة في الشهر ؟

– مائتين وسبعين جنيهًا .

– تكفيهم ؟

– يبدو ذلك .. أدفعها لنجاة وهي التي تتولّى الإنفاق . حتى شراء زوجها لسجائره يحتاج إلى موافقة منها . فالواقع أنها الكلّ في الكلّ وربة الدار ، لو مرضتْ يومًا تراهم يهيمون حيارى لا يدرون ما يصنعون .. ما رأيك لو أننا قمنا الآن بزيارة لهم ؟

وتوجّهنا إلى مكانهم قرب حظيرة الدواجن ، فإذا بجميع أفراد الأسرة قد افترشوا حصيرًا في الهواء الطلق ، والتفّوا حول طبق من الفول النابت ، يأكلون منه على ضوء مصباح كهربائي خارج باب مسكنهم . سلّمنا عليهم فهبّوا من مجلسهم مرحّبين ، ومضت المرأة تنظّف لنا أريكة خشبية مجاورة بقطعة من قماش ، ثم ذهبت تعدّ لنا الشاي ، وعادت به ومعه طبقان من الفول النابت والفول الحيراتي ، وضعتهما بيني وبين أحمد .

تأملتُها عن قرب لأول مرة . فإذا وجهها ملئ بالتجاعيد ، بدت معها في الستين ، وهي التي لم تتجاوز ولا تجاوز زوجها الأربعين .. شديدة النحول ، واضحة الذبول . وهي مع ذلك تفيض حيوية ونشاطًا ، ولا بدت عليها وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة ، وهي التي تستيقظ في الخامسة ، حاجة إلى النعاس .

مضيتُ أسألها عن حياتها ، وعما تصنعه في يومها . فكانت إجاباتها تغضّ من قيمة كل نشاط من أنشطتها ، وكل عمل تقوم به ، معتبرة نفسها مقصّرة كل التقصير ، تافهة القدر ، عكس ما لمستُه منذ أيام من أمير الشعراء والمفكر الإسلامي المرموق . ثم سألتها عما إذا كانت تصلّي فأجابت ، وهي تعبّر عن أسفها بالنفي :

- بنصوم أيوه . إنما الصلا ربنا عارف وشايف وعازر .. وربك كريم .

وكانت تضحك أثناء الحديث ضحكات عالية من الصدر ، لم أسمع مثلها لا فى مارينا ، ولا فى مراقيا ، ولا فى حفل المليونير الخليجي ، اللهم إلا ضحكة الصحفى ، وهو يداعب القصصى بشأن مضاجعته لزوجة صديقه الغائب فى المملكة السعودية .. وكان نزيه ناظر الزراعة يضحك لضحك زوجته ويستمع إليها فى إعجاب .. ثم شرع يداعبها بتهديدها ببناء حجرتين علويتين ، والزواج عليها من غيرها . فإذا هى تضحك مقهقهة وتقول :

- وماله يا خويا ، وماله ؟ اتجوّز إن شا الله أربعة . أخدمكم وافرح بعيالكم . ليه لأّ ؟

أجابها بقوله :

- ودا معقول يا أم صابر أتجوّز عليك ؟ هوّه أنا بقى فى نفس ولاّ حيل ؟ دا أنا خلاص خلصت من زمان ! ما انتِ عارفة .

* * *

تأمّلتُها وهى تطيل الضحك لكلامه .

إنها هى التى حاولتُ طيلة حياتى أن أكون مثلها فلم أوفّق ، مستعينًا على ذلك بإطالة التفكير والتأمّل وكثرة القراءة دون جدوى .. قد عشتُ من أجل نفسى والحياة الدنيا ظانًا أنى إنما أطلب الله ، وعاشت هى من أجل الله ظانّة أنها إنما تطلب الحياة الدنيا وخدمة نفسها .. بلى .. مجرد عمل صالح واحد ، رغيف خبز تقدّمه لجائع دون أن تفكر لنفسك فى جزاء ، هو أفضل من الكتب العشرين التى ألّفتها ، والمقالات التى تخيّلتَ أنها مما ينفع الناس .. ولكن ، وحتى لا تظلم نفسك ، ألم تكن أبدًا مخلصًا فى طلب الله بنشاطك هذا ؟ أجل . ولكنه إخلاص أفسده التعطّش إلى ثناء الناس ، والفرح بتصفيق القرّاء .. ولا إله لمن يعيش من أجل ثناء الناس ، ويطربه تصفيقهم .

* * *

من إصدارات الدار

الداروانية الجديدة	ترجمة/د. مصطفى إبراهيم فهمى
استنساخ الإنسان	ترجمة/د. مصطفى إبراهيم فهمى
الحياة الخفية للغبار	ترجمة/د. مصطفى إبراهيم فهمى
بنية الثورات العلمية	ترجمة / شوقى جلال
تشكيل العقل الحديث	ترجمة / شوقى جلال
العلم ثقافة المستقبل	تأليف / د. أحمد شوقى
الجنيوم البشرى	ترجمة / د. أحمد مستجير
هندسة المستقبل	تأليف / د. أحمد شوقى
علم وحلم	تأليف / د. أحمد شوقى
حكايات عالم عجوز	تأليف / د. سمير حنا صادق
أسلحة الدمار الشامل	تأليف / د. محمد زكى عويس
سبع بنات لحواء	ترجمة/د. مصطفى إبراهيم فهمى
الختان والعنف ضد المرأة	تأليف / د. خالد منتصر
تحديات عصر المعلومات	تأليف / د. نبيل على
إلاّ العلم يا مولاى	تأليف / د. أحمد شوقى
نشأة العلم فى مكتبة الإسكندرية	تأليف / د. سمير حنا صادق
نبش الماضى	ترجمة / د. أحمد مستجير
تعلم العلم فى القرن الحادى والعشرين	ترجمة/د. مصطفى إبراهيم فهمى
إدارة المعرفة والإبداع المجتمعى	تأليف / د. محمد رؤوف حامد

ف :51 تاريخ استلام : 2/12/2007

وهم الإعجاز العلمى	تأليف / د. خالد منتصر
الجديد عن مرض الإيدز	تأليف / د. رفعت شلبى
مدخل رياضى إلى عروض الشعر العربى	تأليف / د. أحمد مستجير
السعادة الحقيقية فى علم النفس الإيجابى	ترجمة/أ.د. صفاء الأعسر وآخرون
العقل المحيط	ترجمة / ثائر ديب
موسم الهجرة إلى الشمال	تأليف / الطيب صالح
التنوير الزائف	تأليف / جلال أمين
المجتمع المدنى وثقافة الإصلاح	تأليف / شوقى جلال

لغة العرب
وأثرها فى تكييف العقلية العربية

يضم هذا الكتاب ثلاثاً وعشرين دراسة شائقة في اللغة، والتراث، والأدب، والتاريخ، والدين، يصل مؤلفها في أكثرها إلى نتائج لم يُسبق إليها. من بينها:

• تحديد المسئولية عن تباطؤ تطور اللغة العربية بعد قرون أثبتت هذه اللغة خلالها مرونة مذهلة، وقدرة على أن تكون أداة لكل ما نُقل إليها من علوم الفرس والهند واليونان وغيرهم؛

• سرّ لجوء بعض المؤلفين والشعراء العرب إلى نسبة كتبهم وقصائدهم إلى مؤلفين وشعراء آخرين!

• تفسير لظاهرة تناول كتب ككتاب «ألف ليلة»، بل ومسرحيات شكسبير!، بالحذف والتغيير؛

• سر الاستخفاف الشديد الذي أبداه ويبديه المؤرخون العرب بالملكة العربية زنوبيا (وهي التي وصفها المؤرخ جيبون بأنها أعظم ملكات التاريخ)، في حين يبدي أعداؤها من الفرنجة الذين حاربتهم وجاهدتهم لسنوات عديدة، نحوها إجلالا وتوقيراً عميقين؛

• هل الحوار بين الأديان ممكن؟ فإن كان ممكنا فهل هو مفيد؟

• السبب في أن موقف الجماهير العريضة من المصلحين الدينيين المعتدلين هو في الغالب موقف عدائي؛

• التكوين النفسي للمتدينين المتشددين، وتأثير نشأتهم الأولى موقفهم من الحياة.

عشرات من مثل هذه الأسئلة قد يفاجأ القارئ بما ورد في هذا الكا عليها.



